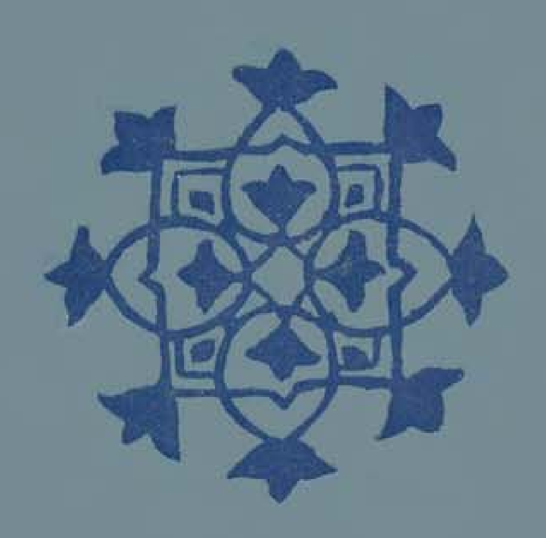
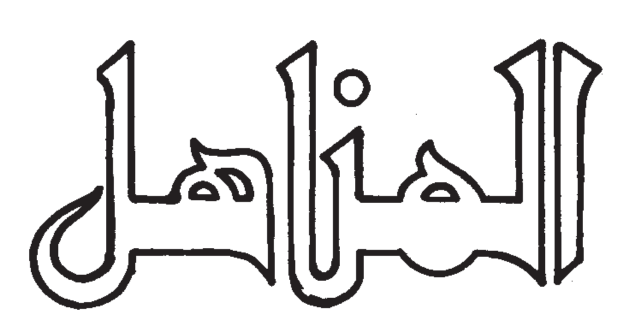
المناهل



1

المناهل



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الأول
السنة الأولى

ذو القعدة 1394
نوفمبر 1974



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وءاله وصحبه



كان حرصنا ومازال قوياً شديداً على أن تقوم الثقافة في مملكتنا على أمتن الأركان وأوثق الدعائم فعهدنا الى وزيرنا في الشؤون الثقافية بتأسيس منطلق جديد لمختلف مرافق الوزارة ومدها بنفس خليق أن يحرك العمل الثقافي تحريكا يكفل أخذاً عظيماً وعطاء كريماً ويحدث أسباب التعريف الكامل بما للمواطنين من مواهب وكفايات وبما يتوافر لبلادهم من نفائس واعلاق وأصالة وطرافة.

وما لبثنا أن علمنا أن العمل دائب بخطى ثابتة على الاهتداء بهدينا والاسترشاد بما رسمناه من توجيه وأقمناه من معالم الطريق. وقد أفضى هذا العمل الى عبور وزارتنا في الشؤون الثقافية لمرحلة التنظيم والتأسيس والى الشروع في المرحلة التي نرجو من ورائها أن يفيد المثقفون ويستفيدوا وتتسع ميادين المعرفة وتنفسح ءافاق الثقافة اتساعاً وانفساحاً تصبح معهما الآمال المعقودة بمختلف المجالات حقيقة ملموسة وأمرا ملحوظا مشهودا.

فامتدت العناية الى وجوه ثقافية شتى وأخذت الوزارة على نفسها أن تحقق مشروعا شد ما تعلقت به الرغائب وتطلعت اليه الأماني فوجهت نداء إلى أرباب الفكر وذوي العرفان وأصحاب الملكات وهم والحمد لله معشر غفير - تهيب بهم أن يمدوها بما ءاتاهم الله من علم ووفقهم إليه من ابتكار ليتسنى لها أن تصدر مجلة تلتقي فيها قرائح الشباب والكهول ويشترك في رعايتها والحدب عليها إبداع المبدعين وضلاعة الباحثين والدارسين، وإن ماحظي به هذا النداء من جميل الاستجابة وكريمها ليفيض في قلبنا المسرة التي يلازمها التفاؤل والاستبشار.

وها هو العدد الأول من مجلة "المناهل" يطالع بطلعته القراء ويحمل اليهم عصارة قلوب وعقول ويتلقاه الاشتياق إلى زلال الفكر والوجدان بالترحيب والتأميل، وأخلق بهذه الوسيلة من وسائل الثقافة وهذه السبيل من سبل التعارف والتصادق والتنافس المعطاء والتباري المخصاب أن يجتمع على جادتها من تمرسوا بالكتابة والبحث ومن قعد بقرائحهم الاحجام فانزوى في غيهب الخفاء إلى يومنا هذا حظ جزيل من التفكير والتحبير جدير بأن يتبينه الناس.

والرجاء مكين أن تصبح المناهل مورداً غزيراً سائغاً من موارد المعرفة يرده المثقفون باستمرار ويرتوي منه على تراخي الأيام وتعاقب الأعوام عشاق الأصيل والجديد والطريف والتليد .

والله المسؤول بعد هذا كله أن تؤدي "المناهل" في وطننا العزيز وفي غيره من الأوطان على غرار شقيقاتها من موارد الفكر والعرفان رسالتها في التعريف والتثقيف .



تقديم

محمد الصباغ

اخضرت الحقيقة ، وارتفع الحلم المنثور، فاستقامت « المناهل » منظومة تعنـــدل فى قصيدة مياه ــ اميرة بساتين وبرايا . فـــلا حرقة صاد بعدهـــــا .

ليست هذه « المناهل » من دفقات أوانها ، ولا هى من خاطرات يومها الحاضـــر ، فشـــرارة وردها انبثقـــت من ترب عهد دابر ، تقادمت عليه ذكرى حلـــم وشـــاب ، احلولى ــ عهدئذ ــ فى خواطر فتية سباقة الى تلة الفكر الصعبة المحروسة ، لتفجر مكنونات بجدتها « مناهل » رية ثرة .

فنية جمعهم المداد فى توريقة الكتب وطياتها ، تحت قنديل : « الجاحظ » ، « والتوحيدى » ،و «ابن العميد» ، وسواهم من ناثرى الجمان ، وناسجى الديباج ، رائعات فتون ، تتحـــرك ، فتحـــرك الـــدوارس ، والآســـان ، ونطاف الزمن .

على ضوء ذلك القنديل المعتق ، وعلى الهامه باتـــوا يتنادون سمرة فكر ، جاشت آمالهم واكتنزت ، وشحت مواردهم ونزرت ، وصولا الى مبتغاهم الذى يقرع بالحاح خاطرهم الأدبى ، وضميرهم الوطنى الموار ، فى عهـــد كانت حربة الأجنبى مسنونة مسلولة بجهالة من قحـــة شراراتها نحو الأقلام الزاحفة .

•

من هذا المدى الموتور، المشحون بشتى الانفعالات، انبثقت «المناهل» ذكرة رجاء، ومطالب أمل، ودفقة حنين، سالت حرى من جوارح مبدعيها الفتية ، وهم من تعرفون: نضارة وشى ، ورمية حبر وندى ، على الأجمل والأبهى.

وحسبكم صاحب هذا المعدن ، وتلك البادرة المناهلية، ذلكم المتألق امحمد أبا حنينى ، مختصر أندلس ، وقيامة

آياتها ، ومذهبات « أطواق حماماتها » فى هذه العـدوة ، مع خدنيه الناصعين ، عبد الرحمن الفاسى ، ومحمد بن العباس القباج ، وغيرهم من تلك العصبة .

من سبر هذا المعدن ، وأرومته ، تدفقت « المناهل » وللكلمة ــ يومئذ ــ ملمس جدة ، وبهاء صباح ، قبـل أن تغدو اشتقاقاتها متداولة فى الابعاد .

والاسم ــ يا صاح ــ معنى وجرسا ، له فى رهيف الحس ، حنين وطرب ، وفى العين مرمى أخضر بـواح ، ينطلق بك الى كل فاتن ، ناصع ، زكى ، مرنان ، فواح ، احتفظ به ــ ذخيرة ــ فى لفة شوق ، وذكرى ، وأمل ، الى هذا الأوان ، الذى تنفك فيه عقدته المزمنة المستعصية ، فيفور زلالا ، سائغا ، ريقا ، فى مجرى اللهوات .

وهكذا يحفظ العهد المؤمل ، برورا به ، حتى يصبح حقيقة تلمس ، تضم ، تشم ، ترتشف .

*

أقصوصة « المناهل » تلك ،تداعت الى فى جلسة أدب حديثة العهد ، فأحببت أن تشاركنى فيهـا عائلـة

« المناهل » كتابا وقراء ، ليقفوا على حقيقــة ولادتهــا، وما قطعته من أعوام ، وهى سادرة فى ذاكرة الصمت الوفى الامين ، الذى أصبح اليوم على هذه الصفحات ، جرية مياه حروف تتهل ،ومهرجان نصاعة فى سطور تغرى بالقطف.

اخضرت الحقيقة ، وارتفع الحلم المنثور ، فاستقامت « المناهل » منظومة تعندل فى قصيدة مياه — أميــــرة بساتين وبرايا ، فلا حرقة صاد بعدها .

*

فالى فتية « المناهل » الألى اكتهلوا فى ميسان الرجاء ومطله ، ينقش الشكر فى النداوة ، والصباحة ، والجنى ، والقطاف ، وفى كل نثرة من نثراتها الخيرة ، والى كتابهــا البررة ، خلاصة ما تحمل النحلات الى الخليات ، وما تجود به هذه الزكيات ، والى قرائها سلال غلال مستطابــة ان شاء الله .

الــربــاط **محمد الصباغ**

الشريف الإدريسي
أعظم جغرافي أتى بعد "بطليموس" في القرون الوسطى

عبد الله كنون

يتصل نسب الجغرافي العظيم المعروف بالشريف الادريسي ، ببني حمود ، الاشراف الادارسة الذين كونوا بعد انهيار الخلافة الاموية بالاندلس ، احدى ممالك الطوائف التى كانت قاعدتها مدينة مالقة الشهيرة .

ومن المعروف ان اجداد الحموديين هؤلاء، كانت لهم دولة بالمغرب هي دولة الادارسة التى انشأها ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بي ابي طالب على عهد هارون الرشيد ، واستمرت الى عام 375 هـ .

فمن هذه الاسرة العلوية العريقة ، ينحدر الشريف الادريسي ،

وهو محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن علي بن حمود ، من اهل مدينة سبتة ، وبها ولد سنة 493 هـ . اذ كان سلفه قد استقروا بها بعد انقراض ممالك الطوائف بالاندلس ، والى نبوغه المبكر ، فانه نشيء تنشئة رفيعة ، وتلقى دراسته الاولى بمدينة سبتة ، اذ لم تبرح مركزا علميا هاما لوقوعها على الطريق بين المغرب والاندلس ، فهي محط الصادر والوارد من البلدين . وهكذا نجده يشد الرحلة للسياحة وطلب العلم ، وهو دون العشرين من عمره ، فيزور بلاد الاندلس وافريقيا الشمالية ، ومصر والشام ، ويتجول فى آسيا الصغرى ، وقد كان فيها خلال سنة 510 هـ كما اخبر بذلك فى كتابه .

ولم تقتصر رحلته على البلاد الاسلامية، فقد زار فرنسا وخاصة بعض مدنها الواقعة على شاطيء المحيط الاطلسي وكذلك زار بعض مدن الشاطيء الانجليزي . وعلى ما يظهر فان رحلته كانت اوسع مما ذكرنا ، الا انه لا يتحدث عنها بتفصيل .

ولنستمع الى ما يقوله فى احد اشعاره مما ينبيء بطول رحلته :

ليت شعري اين قبري ؟ ضاع فى الغربة عمري
لم ادع للعين ما تشتاق فى بر وبحر

ونستفيد من شعر آخر له انه ربما كان ينوي الاقامة بالمشرق ، الا أن أمنيته هذه لم تتحقق لانه لم يجد ما يرغبه فى الاقامة ، ولذلك يقول :

ان عيبا على المشارق ان ار جع عنها الى ذيول المغارب
وعيجب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالغرائب
ويقاسي الظمآ خلال اناس قسموا بينهم هدايا السحائب

ان ما توحي به هذه الابيات الثلاثة اشياء كثيرة ، فهي مع بلاغتها التى تظهرنا على مقدرة الشريف الادريسي البيانية، وعارضته الشعرية، تدل على اعتداد كبير بالنفس ، لا جرم انه يرجع الى كـرم ارومتـه واصالته فى الملك ، وثقافته المتميزة فى عصره ، وتدل على انه لم يلق التقدير اللائق به فى المشرق ، وخيبة امله فى اهله ، برغم ما هم عليه من بسطة حال واقتدار ، كما تدل على انه لم يكن راضيا عن مقامه بما سماه « ذيول المغارب » ونظن انه يعني صقلية التى اتخذها دارا على كره منه ، وان كان صاحبها روجار لا يقصر عن غاية فى تكريمه وحسن معاملته كما سنبينه فيما بعد .

حياتـــه العلميـــة

مما لا ريب فيه ان رحلته الطويلة قد افادته كثيرا وزادته علما الى علمه الذى حصله فى بلاده ، لاسيما فيما ظهر فيه نبوغه من علم الجغرافية وعلم النبات ، بل تميزه فيهما حتى اصبح من أعلامهمـــا المشاهير . والجغرافية وعلم النبات هما مثل علم الحديث مما يزكو مع الرحالة وينمو بالتجول فى البلاد . فكما كان المحدثـون يرتحلـون للرواية عن حفاظ الحديث فى اقطار العالم الاسلامي ، كذلك الجغرافي والنباتي عليه من اجل التضلـع فى هاتين المادتيـن ان يرتحل ويقـف على عين الامكنة التى يصفها، والنباتات التي انما توجد فى اقليم دون اقليم ، ويتصل بعلم النبات علم الطب ، فقد كان الطبيب قديمـــا صيدلانيا ومعالجا ولهذا لا نستغرب ان يكون الادريسي نباتيا وطبيبا فى آن واحد عارفا بمنافع الاعشاب واماكن وجودها واعيانها وطرق استعمالها ، الى كونه جغرافيا كبيرا ، فان هذه العـلوم كلها ممـا يكتسب بالرحلة والضرب فى آفاق الارض .

واذا كان مؤرخـوه ــ على قلتهـم ــ اكثـر ما يذكرونـه بكتابـه

الجغرافي واعماله فى وصف الارض ، فان بعضهم انما ذكره بصفته نباتيا كابن ابي اصيبعة وبكتابه فى هذا العلم .

وعلى كل فانه وان شارك فى العلوم الادبية والنظرية المنتشرة فى عصره فان حياته العلمية انما تتميز بعلو كعبه فى علم الجغرافية وعلم الطب والنبات ، وهي من غير شك الغرائب التى اتى بها فكره ، على ما المع اليه فى ابياته الشعرية المتقدمة .

مقامه بصقلية

وفى جزيرة صقلية تفتقت مواهبه العلمية وقام بعمله الخالد الذي عرف به فى التاريخ وكانت صقلية فى ذلك العهد قد خرجت من حكم المسلمين ، وخضعت لحكم النورمان المسيحيين وان كان المسلمون يكونون فيها اكبر جالية من السكان غير المسيحيين ، وكان ملوكها من النورمان وخاصة روجار الثاني الذى عاش الشريف في اكنافه ، يتشبه بالمسلمين ويتظاهر بعاداتهم فى اللباس والهيئة وشارات الملك ، ويخالف عادة الافرنج فى كل ذلك . وكان يكرم المسلمين ويقربهم وينتفع بخبرتهم ومعارفهم . قال الصلاح الصفدي فى ترجمته من كتابه الوافي بالوفيات : (وهو الذى استقدم الشريف الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ليصنع له شيئا فى شكل صورة العالم) .

ولا شك ان شهرة الادريسي كانت قد سبقته الى صقلية حتى يمكننا ان نفهم كيف استدعاه روجار لهذا الغرض .

ويقول حسين مؤنس فى بحثه « الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس» ، ان احد قرابة الشريف ممن كان متوطنا فى صقلية وله ولاية

على بعض أعمالها ، ربما كان هو واسطة التعرف من روجار بالادريسي، وهو احتمال مقبول .

ويشير كراتشوفسكي فى كتابه تاريخ الادب الجغرافي العربي، الى دلالة استدعاء روجار للشريف الادريسي بقوله : « وروجار ، وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر ، كان على معرفة جيدة بالاثنتين ، وتكليفه لعالم عربي بالذات بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك ، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية فى ذلك العهد وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق » .

وعاش الادريسي فى بلاط روجار معظما محترما مكفى الحاجة فقد رتب له هذا الملك — كما يقول الصفدي — كفاية لا تكون الا للملوك وكان يجيء اليه راكبا بغلة، فاذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معا .

واذا كان الشريف قدم الى صقلية فى الاربعينيات من القرن السادس الهجري ، فان مقامه فيها قد دام الى ما بعد الخمسينيات من هذا القرن، وبذلك يكون قضى شطرا من عمره فى هذه الجزيرة لا يقل عن 20 سنة .

جغرافية الادريسي

وجغرافية الادريسي اوكتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق هو اعظم عمل قام به فى حياته وخلد به على مر الازمان ، وقد انجزه فى صقلية تلبية لطلب صاحبها روجار كما سبق القول ، فانه لما استقر عنده عرض عليه رغبته فى ان يؤلف له كتابا يصف مملكته وعمرانها ويذكر مسالكها وحدودها كما يذكر موقعها من بقية الممالك مع وصف هذه الممالك ايضا وذكر ما يتعلق بها من ذلك على وجه التحقيق وتجنب المزاعم الباطلة والخرافات والاوهام ، فانه لم يجد ما يشفي غليله من ذلك لدى كتب



هذا نموذج من الخريطة الادريسية يمثل بلاد المغرب ، وهو منقول عن مخطوط اكسفورد رقم 2 ، وننبه الى أن الجنوب يقع فى أعلى الصفحة عكس المتعارف الآن فى كتابة الخرط .

المؤلفين فى تقويم البلدان ولا من يجيب عن اسئلته فى هذا الصدد من العلماء المتواجدين فى بلاطه .

وشرع الادريسي فى العمل ، ولاجل ان يبنى على يقين كما فعل فى البلاد التى زارها بنفسه ، طلب من روجار ان يبعث الى اطراف مملكته، باشخاص كل من لهم علم بشيء من صفاتها واحوالها الى حضرته وتلقى ما يدلون به من معلومات فى هذا الشأن مما تتفق عليه كلمتهم ولا يختلف فيه خبرهم ، وكذلك بعث الى الممالك المجاورة بالسفار والمتجولين وقيد عنهم ما اخبروا به واستفادوه فى رحلاتهم . ولاجل التحقق من صحة اقوال هؤلاء المخبرين ولاسيما فى مادة العروض للبلاد المختلفة ، كان الادريسي يحضر ما سماه « لوح الترسيم » وهو على ما يظهر مشروع خريطة العالم التى وضعها فيما بعد ، فيمتحن عليه موقع البلدان واحدا فواحدا بواسطة بركار من حديد مقارنا ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون فى هذا العلم محققا بغاية العناية المواقع المذكورة ، مما جعله يصادف الصواب ولا يختلف عما حققه العلماء المعاصرون ، فى درجات العرض خاصة ، الا بفوارق يسيرة لا تعد شيئا بالنسبة الى تقدم وسائل البحث الحديث ، وكان هذا هو الاصلاح العظيم الذى ادخله الشريف الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرب من وضعها العلمي الصحيح ، وكان بذلك اعظم جغرافي اتي بعد بطايموس ، فوضع اول خريطة عالمية جامعة دقيقة على شكل دائرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن اربعمائة رطل في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . فلما كملت امر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها وما بين كل بلد منها من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات والمراسي على ما هو ممثل فى « لوح الترسيم » الذى اشرنا اليه آنفا ويأتوا به على هيأته وشكله ولا يغادروا منه شيئا.

ولما انجز هذا العمل انصرف الى انجاز كتابه « نزهة المشتاق »

الذى جاء بمثابة التفسير والشرح لخريطة العالم هذه ، وقد انتهى منه فى عام 548 هـ بعد ما صرف فى اعداده هو ، والخريطة الاساس ، نحو خمسة عشر عاما .

وقد كافأه روجار على هذا العمل مكافأة عظيمة ، وتنازل له عن مقدار الثلثين من الفضة التى دفعها له ليصنع منها الخريطة المذكورة ، اذ انه لم يستعمل منها الا نحو الثلث ، وقد بلغ وزن هذا الثلث فى تقدير بعض العلماء 150 كيلوغراما ، فيكون ما بقي معه 300 كيلوغـرام وزاده روجار على ذلك حمولة مركب جاءه من برشلونة مشحونا بأنـواع الاجـلاب والطـرف .

ومن المؤسف ان هذه الخريطة الفضية قد نهبت فى احدى الثورات التى نشبت فى الجزيرة سنة 555 اي بعد سبع سنوات فقط من وضعها ، وذلك فى عهد غليوم ولد روجار ولكن تفاصيلها بقيت فى كتاب النزهـة لحسن الحظ ومنها استخرجت خريطته العامة .

ومن الجدير بالذكر ان الادريسي كان يرى ان الارض مكـورة على شكل بيضة وانها منقسمة بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين شمالي وجنوبي ، المعمور منها هو الشمالي فقط ، أما الجنوبي فهو خلاء غير معمور الاجزاء صفيرا منه وذلك لشدة الحـرارة ولعدم المـاء فيه . وان كان هذا ليس رأي غيره من جغرافيي العرب الذين اثبتوا بالدليل ان النصف الجنوبي من الكرة مأهول بالسكان وان طبيعته لا تمنع من ذلك .

فخريطة الادريسي اذن انما تمثل النصف الشمالي من الارض وهي مبنية على نظرية الاقاليم السبعة التى درج عليها الجغرافيون القدامى ، ولكن عبقريته تتجلى فى تحديده لهذه الاقاليم بحسب درجـات العـرض تحديدا دقيقا .. كما أنه فى الجزء الصفير الذي أضافه الى المعمـور من القسم الجنوبي تحدث عن منابع النيل وبينها ببراعة علمية تدعو الى

الاعجاب . وهو لم يعن باثبات خطوط الطول وانما قسم كلا من الاقاليم السبعة الى عشرة اقسام متساوية من الغرب الى الشرق ، وهذا التقسيم يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة ، لاسيما وهو قد وضع لكل قسم من اقسام الاقاليم خريطة خاصة . وفعلا فان المستشرق الالماني (ملير) جمع هذه الخرط الصغيرة فى خريطة عامة واخرجها فى طبعة ملونة غاية فى الاتقان . ثم كان ان اعتنى المجمع العلمي العراقي بنقلها الى العربية واخرجها فى حلة قشيبة ملونة بحجم مترين طولا ومتر ونصف عرضا .

ولا يزال العلماء فى العراق يعنون بالادريسي وكتابه ، فصديقنا العلامة محمد بهجة الاثري يعد «النزهة» لاخراجها فى طبعة علمية لائقةبها، والدكتور احمد سوسة الباحث العراقي المعروف كتب ترجمة موسعة للادريسي تخرج فى مجلد كبير تناول فيها تقدير عمله الجغرافي والخدمة الممتازة التى قام بها فى هذا الميدان ، وهي تحت الطبع الآن . كما ان بعض علماء الاستشراق فى ايطاليا قد اخرجوا مؤخرا طبعة كاملة «للنزهة» وما زلنا لم نطلع عليها حتى نعرف قيمتها وان كان بعض اقسام الكتاب قد سبق نشره وترجمته من غير واحد من اهل العلم قبل اليوم بكثير .

ثنـــاء وتقديـــر

وقد كثر ثناء العلماء من عرب واجانب على الادريسي وتقديرهم لعمله ، ونقتصر هنا على قول كارا دوفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » : « ان الادريسي استعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه واعمال المؤلفين قبله ، من مثل المسعودي وابن حوقل والمقدسي، ولا شك ان ما كتبه عن البلاد الغربية كان احسن ما كتب عنها لانه اعطاها بحثا من الطبقة الاولى .

اعمـال اخـرى للادريســـي

كان روجار قد توفى حين انتهى الادريسي من تأليف كتابه « نزهة المشتاق»، ويظهر انه اضطر لعمل شيء باسم ولده غليوم الذى خلف اباه على الملك بصقلية . ويذكر المؤرخون انه الف له كتابا جغرافيا آخر اكثر بسطا من «نزهة المشتاق»، سماه «روض الانس ونزهة النفس» ولكن هذا الكتاب ضاع ولم يصلنا منه الا بعض المنقول فى تاريخ ابي الفداء .

وذكر ابن ابي اصيبعة ان للادريسي كتابا فى الادوية المفردة ، وهذا العمل يرجح ما قدمناه من معرفته بالطب وعلم النبات . وقد قال ابن ابي اصيبعة عنه فى هذا الصدد : « انه كان فاضلا عالما بقوى الادوية المفردة ومنافعها ومنابتها واعيانها »..

وفـــاتـــــه

وتنتهي حياة الشريف الادريسي فى سنة 560 ببلده سبتـة على مـا يرجح ، لان احوال صقلية اضطربت بعد وفاة صديقه روجار ، ناهيك بالفتنة التى نشبت بها سنة 555 وسطا فيها الثوار على الخارطة الفضية التى افنى زهرة عمره فى صنعها ، واقتسموها فيما بينهم . فكيف تطيب له الحياة بعد ذلك فى هذا الجو ، مع الغربة التى طالما اشتكى منها .

رحمه الله رحمة واسعة وجازاه عن امته وعن خدمته للعلم احسن الجـــــزاء .

طنجـة　　　　　　**عبد الله كنـون**

في دروب الإيمان

إعترافٌ وضراعَة

محمد العربي الخطابي

ألقيتني في بستان جلالك ذرة في خيط شعاع ، وجعلتني على مرمى حصاة من جداول نعمك ، التفاح عن يميني ، وعرائش الكروم تظل مسراي ، وزهور النارنج تعطر حواشي ازاري .

وبعد ان صنعتني من قوتك ضعيفا وجعلتني بضعفي هذا قويا حينما أسميتني انسانا تنوء الافلاك بما قدرتني على حمله خطت يمينك في كل خلية من خلايا جسمي سؤالا مفتوحا على ما تحرك وما سكن من موجوداتك .

واذ ابدعت حوالي الجمال والقبح فصورت الجمال بالوان الضحى والقبح باصباغ الغسق عطشت جذور نفسي فعصرت من كروم بستانك شرابا ملأت به دنان حياتي .

في الصباح الاول فتحت على الحياة عينين نقيتين وخالتيين من نهمة الغواية فوقع بصري على تفاحة اصطبغت بحمرة وصفرة مع خضرة فاتحة ، ورمقت ليمونا وخوخا وظلال صنوبر .

غضضت الطرف ، لحظة ، حياء منك الا ان الـدم فـار في قلبـي وتوترت العروق في أحشائي ودبت رعدة الحمى في بدني ، وما زلت كذلك حتى فقدت زمام نفسي فدنست تفاح بستانك بشفتي وأسناني . وبعد ان عصرت في حلقي ليمونة ناضجة نضحت اطرافي بماء النبع المحرم .

وما لبث ان تراءت لي الحياة في صورة امرأة غضة تشتعل الاحلام في خديها ، وترتوي الورود الحمراء من شفتيها وتتعطر الرياحين بطيـب اعطافها ، امرأة صغتها انت بقدرتك لراحـة نفسي ، ووهبتهـا الحسن الندي ليتعلق بها قلبي فاغرق خاشعا في عبادتك .

— * —

في الليل اريتني من آياتك نملة تدب فوق حصى منثور ، واذ كنت عاجـزا عـن ان ابصـر الاشيـاء في اللا ضـوء دسـت النملـة بقدمـي فحطمتهـــا .

وفي النهار حينما رايتك تقصـف الاشجار بعواصفك ، وتمحـق الحرث بسيولك ، وتهدم البيوت والاعشاش بصواعقك ، وتغرق الدواب بطوفانك ، اصابتني لوثة التدمير فخنقت البراعم ، ومزقت الزهور ووادت فراخ العصافير . واذ رايتك بعد ذلك ترسل الرياح لواقح ، وتحيـي بمزنك الارض الموات ، وتنضج بنور شمسك الثمار ، وتكسي الطيور ريشا والحمـلان صوفـا خجلت من عجـزي وجهلي ، واستعظمت غروري وجراءتــــي .

— * —

كل ما هو جميل فهو منك ، ومنك ايضا كل ما هو طيب في نفسي ، واطيب ما في نفسي عشق الجمال ، واجمل ما في كونك الجميل المرأة

الجميلة ، والخمرة المعصورة من كروم بستانك ، والعطر المستخلص من رياحين عفوك . ورحمتك سر جمال الكون وسعت كل شيء حتى عظائم زلاتـــــي .

— * —

ولكم دعوتك فاستجبت واستغفرتك فغفرت مع أني اتوب فلا اقنع من فرط ضعفي ولغلبة انسانيتي علي .

ولما كان لمحبتك فى قلبي مكان لا يكبره سوى جـلال قـدرك فان طمعي لا ينقطع فى كل ما هو جميل عندك :

طامع فى كريم نعمك ،
طامع فى جميل عفوك
طامع فى فيء كرسيك العظيم ...

ذلك لانني ، على كثرة ذنوبي ، غني بك وحدك ، قوي بك وحدك ، لا اعتد بجبروت غيرك ((وانا على عهدك ووعدك ما استطعت)) واستطاعتي محدودة بقدرتك ، ضعيفة بقوتك . وكل ما اقترفه فهو بيني وبينك ، وما كان متصلا بك وحدك لا تقطعه زلة ولا تفصم عروته هفوة .

— * —

ايماني جمال نفسي ،
وحكمتك مرآة وجودي ،
وخشيتك طعـام يومـي ،

فكيف اقنط يا بارئـي ولطفك سابق ، وعفوك لاحـق ، وضعفي ثابت ثبات عزتك وجلالك .

الربـاط — محمد العربي الخطابي

نظرات في القصّة

عبدالمجيد ابن جلون

بدات حياتي الادبية المبكرة شاعرا ، وكنت أجد فى قرض الشعر راحة نفسية يغلب على الظن أن مرجعها يتمثل فى الرضا الذى يتزايد بقدر ما يتزايد دقة الانسان فى القدرة على التعبير عما يعتمل فى نفسه من أفكار او عواطف أو خلجات ، أو اقتناص للصور التى ترتسم فى هذه النفس ، وعندما يكون المرء فى ميعة الصبا تتسم نفسه بالصفاء لقلة معلوماته وسطحيتها ولضآلة تجاربه وافتقارها الى التعمق والاحتكاك بالحياة وما فيها من جزئيات وتفاصيل ، وتعمد وتشعب وما فيها من ترابط وتفاعل وتنافر ، ثم لا يلبث ان يتسع أفق الانسان الفكري والعاطفي مع مرور الايام ، فاذا بالمعالم التى كانت بارزة تتحول الى مجرد حلقات فى سلسلة لا يكاد يتبين الانسان اولا لها من آخر ، ولا يلبث ان ياتي عليه حين من الدهر يخيل اليه فيه ان الحياة فقدت معناها من شدة التعقد والتشعب ،

وتبدو معانيها اكبر من ان يحاط بها ، اوليس لها أي معنى على الاطـلاق ، فيمر المرء منا بفترة من فترات التيه هي اشبه بفترة المراهقـة فى حياتنـا الجسمانية ونحن نجتاز مرحلة التكوين .

وهذا هو الذى حدث لي بالضبط فى مفتتح حياتي الادبية حينما بدات هذه الحياة بقرض الشعر ، يوم كانت تبدو لي الفكرة والصورة والعاطفة والخالجة واضحة يمكن افراغها كاملة فى قالب من قصيدة شعرية موقعة مقفاة فيزداد الشعور بالرضا عن هذا الانتاج كلما استوفى تلك المعاني التى تجيش بها النفس محدودة التجارب ، وكلما استوفى جمال التعبير والفن والموسيـقــى .

ولما تبين لي ان الادب بمختلف فنونه تعبيـر جميـل عن الحيـاة وانعكاس لهذه الحياة بجميع ابعادها على الفكر الانساني والنفس الانسانية، ولما تشعبت أمامي الحياة بكل ما فيها من جمال ، وقبح وعمق ، وسطحية وانسجام، وتناقض واتساع وضيق، واطمئنان وخوف، ورجاء وياس،وجدية وعبث، وسعادة وشقاء، ولما كان انعكاس هذا كله واكثر جدا من هذا كله على الفكر الانساني والنفـس الانسانيـة متباينـا يختلف باختلاف الانسان،واختلاف المكان، واختلاف الزمان، ولماكانت المؤثرات المتشابهةنفسها تعكس افكارومظاهروعواطف وخوالج وخيالاتغيرمتشابهة، لاباختلافالناس وحده فقط ، ولكن بالنسبة للفرد الواحد ايضا لان استعداده للتفاعل مع الحياة فى كلياتها وجزئياتها ليس استعدادا واحدا على مدار الساعة ، بقطع النظر عن الملابسات وعن الاستعداد للتقبل والتجاوب والانصهار ، او عدم الاستعداد لذلك على الاطلاق ، وهذا الاستعداد نفسه متفاوت ومتراوح يدور فى قوته وضعفه مع الظروف والملابسات والاحوال ، ولا ياتي على وتيرة واحدة مهما توحدت هذه الظروف والملابسات والاحوال .

ولما كانت النفس الانسانية ذاتها قابلة للامتداد والانكماش لاسباب تظل متسمة بطابع الغموض والابهام ، مهما تعمق فيها علم النفس وحللها وعاد بها الى بواعثها القديمة احيانا او بواعثها الحديثة القريبـة احيانـا اخرى ، اقول انه عندما اتضح لي هذا كله وغير هذا كله من الجزئيـات

المتشعبة التى لا مجال هنا لتتبعها ، ولا داعي اليه فى نفس الوقت ، بدا لي ـ وقد أكون على غير حق فى هذا ـ أن الشعر ضيق المجال بالنسبة لاية جزئية من جزئيات الحياة ـ بل وبالنسبة لاية خالجة صغيرة من الخوالج التى تعتمل فى النفس الانسانية ، وان التعبير الجميل المنطلق المستوعب الذى يستطيع ان يعكس الحياة باوسع معانيها ، وبأضيق هذه المعاني ايضا ، يجب ان يبحث له عن متنفس غير الشعر بتوقيعاته وموازينه وقوافيه ، فان الذى وجدت نفسي فى أثره لم يكن تغنيا ، وانما وجدت نفسي فى أثر التعبير عن الحياة ما وسعني التعبير ، بكل ما فيها من عموميات وكل ما فيها من تفاصيل بطريقة الحياة نفسها ، على نحو ما أشرنا اليه فى مقدمة هذا الحديث .

يضاف الى ذلك ان للشعر العربي تقاليد عريقة قديمة مقيدة ، وتاريخا لم يمسه التطور الذى مس جوانب الادب الاخرى ، ولم تزل حركة التجديد فى الشعر تتخبط الى اليوم لان الذين قيدوا الشعر العربي منذ عشرات القرون احكموا تقييده ، ليس من ناحية الميزان والقافية فحسب ، ولكن من حيث الموضوعات التى ظل يتناولها عبر هذه القرون ايضا ، وقد حاول الكثيرون أن يثوروا على الشعر العربي فى الازمنة الحديثة ، ولكن ثورتهم كانت ثورة هدم اكثر منها ثورة بناء فألغى بعضهم الميزان الشعري ، وابقى التفعلة والقافية والغى آخرون التفعلة وحدها ، بل ذهب غيرهم الى الغاء ذلك جميعا ، فلم يعد هناك فرق بين النثر والشعر فى غير طريقة رسم السطور ، فقيل الشعر المرسل او الشعر الحر ، وقد نسي هؤلاء جميعا أن للشعر أصولا فى جميع اللغات ، وهو نثر اذا لم تكن له هذه الاصول مهما كانت الطريقة التى رتبنا بها سطوره.

والموضوعات التى تناولها الشعر العربي وثيقة الاتصال بهذه الاصول، التى وضعت بعد استقصاء هذه الموضوعات ، وعلى ضوء منها ، فلو عرف الشعر العربي مثلا الملحمة المطولة لما كان هناك بد من ادخال تغيير على هذه الاصول والقواعد الشعرية، فنحن نصطدم حينما نريد ان نتوسع فى فهم الشعر بالقواعد التى وضعها له علماء العروض ، لان هذه القواعد وضعت على أساس مما سلف ، لا على اساس مما يمكن ان يأتي فى

المستقبل ، فهي قوانين وضعت بعد استقصاء لما قيل ، وليست قوانين مطلقة وضعت لتشمل ما يمكن ان يقال مثل النحو والصرف على حد سواء، وقد عجزت ـ الى الآن ـ جميع المجهودات التى بذلت لادخال تغيير على قواعد هذا الشعر ، فتأثرت بذلك الى حد بعيد الموضوعات التى ظل يتناولها ، لانها جزء من هذه القواعد كما رأينا .

ولعله من غير المصادفة فى شيء أن يكون الفنان الادبيان اللذان أصابا النجاح اليوم فى الادب العربي ، القادران على التعبير تعبيرا دقيقا عما يدور فى الفكر والنفس معا ، وهما فنان جديدان لم يعرفهما الادب العربي القديم ، ولذلك فانه لم يتمكن من تقييدهما ، وهما فن المقالة وفن القصة كما نعرفهما اليوم وفن القصة هو الذى يعنينا فى هذا الحديث .

واذا كان الادب العربي القديم لم يعرف فن القصة على النحو الذي عرف هذا الفن الادب العربي الحديث فليس معنى ذلك ان القصة كانت غريبة عن العرب القدماء ، فقد كانوا يعرفون القصص المقترنة بأمثالهم ، كما عرفوا القصص المقترنة بالاحاجي ، وكانت ترد فى أشعارهم بعض الصور القصصية ، كتلك التى كانت ترد فى شعر عمر بن أبي ربيعة ، ولعلهم عرفوا بعض القصص المطولة التى كانوا يرونها اولا ، ثم دونوا بعضها ثانيا وهي التى كانوا يسمونها بايام العرب ، ووردت أقاصيص دينية مختلفة فى القرآن الكريم ، وما كادت أسبابهم تتصل بأسباب الادب الفارسي حتى اخذوا يلمون بالقصص الذى كان يشتمل عليه هذا الادب ، ولم يكن هذا القصص يدور حول تاريخ الفرس وايامهم وامثالهم فحسب ، وانما كان يدور حول الحيوانات ايضا ، وهي القصص التى كانت تستخلص منها العبر التى تضرب لبني الانسان ـ وعلى راس ذلك كتاب كليلة ودمنة المشهور .

وبالرغم من ان الادب العربي القديم عرف هذا النوع من القصص العربية الحديثة لم تستند اليه ، ولم يضع علماء الادب القدماء قواعد لها ، ولذلك جاءت متحررة ومتاثرة مباشرة بفن القصص ، كما عرف في

اللغات الحية الحديثة ، ومتأثرة مباشرة أيضا بالحياة اليومية فى الاقطار العربية ، بل اصبحت أكثر الفنون الادبية جميعا اتصالا بهذه الحياة ، ولذلك فان من الممكن الذهاب الى ان حداثة فن القصة ـ بالمعنى الذى نعرفه اليوم ـ فى الادب العربي الحديث هي مصدر تحرر هذا الفن ، ولو كان معروفا عند القدماء لكان من الجائز أن يضعوا لها قيودا مثل القيود التي وضعوها للشعر ، فظل يرسف فيها الى اليوم دون ان يستطيع التخلص منها .

ولقد رج فن كتابة المقالة والقصة بالادب العربي لاول مرة فى الحياة اليومية ، فاصبحت هذه الحياة مصدرا لهما وباعثا عليهما ، بعد ان كانت « المناسبة » بصفة عامة المصدر والباعث الرئيسين لفنون الادب العربي فى تاريخه ، وعن طريق ارتباط الادب العربي الحديث بالحياة اليومية تخلص من الروح البدوية التى ظلت عالقة به أو ببعضه حتى فى ازهى عصور الحضارة العربية وتخلص من الرياء والمداهنة والتملق من ناحية ، وتخلص من المباهاة والفخر والادعاء والتبجح من ناحية اخرى ، لان خوض المشاكل اليومية والتعبير عنها يوميا وتحليلها ومحاولة ايجاد حل لها ، ومعالجة موضوعات الفقر والجهل والمرض خلص الادب بصفة تكاد تكون نهائية من قبضة « المناسبة » التى كانت تدفع الادب الى السير فى مؤخرة قافلة الحياة العربية يتسقط الفتات ، ويفاخر بالاحياء والاموات ، وقد اصبح اليوم يشق طريقه الى مقدمة هذه الحياة ليكون لها من الهداة ، بعد ان كان يقتصر على السير فى مؤخرتها او على هامشها ، وحينما ، اصدر مثل هذه الاحكام وغيرها اقصد الى الصفة العامة بطبيعة الحال لان محاولة اصدار احكام مفصلة على ادب يكاد يتجاوز عمره الفي سنة ، محاولة لا يمكن ان تخلو من ظلم واعتداء .

وكان من الطبيعي ان يسبق فن كتابة المقالة فن كتابة القصة تاريخيا ، ولكنها كانت تمهيدا لكتابة القصة فى نفس الوقت ، فقد استيقظ الكتاب العرب فى القرن الماضي على بلادهم وهي ترسف فى أكثر من مشكلة ، ولكن هذه المشاكل كلها كانت تتركز فى مشكلتين كبيرتين ، تتمثل احداهما فى انحطاط المستوى الثقافي والتخلف عن قافلة الحضارة والتخبط فى

اعلال فكرية يصاحب ذلك كله شعور مركب معقد بالمكانة الممتازة والمركز المرموق مع الشك في اتجاه الآخرين في الحياة ان لم يكن مع الاحتقار لهذا الاتجاه ، وتتمثل ثانيتهما في تخلف اقطار العالم العربي تخلفا خطيرا عن التقدم الغربي سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا بصفة خاصة ، فكان عليها لذلك ان تخضع للحكم الاجنبي وان تعيش طبقا لمشيئة الغيــر ، وان تخضع لنظمه وتفكيره واسلوبه، عن ارادة من الجانبين تارة ، وعن غير ارادة منهما معا تارة أخرى ، ولا يكاد يحـل القــرن العشــرون حتى نجد ان استقلال هذه الدول جميعا قد ذهب بالتدريج في مهب الرياح ، ولمـا عرف العالم العربي الصحافة قفز فن كتابة المقالة الى المقدمة بعـد ان اصبحت له بواعث جديدة في العمل على تنوير القراء وتحريــر عقولهم من القشور والاوهام ، ثم في دفعهم الى التفكير في مستقبل بلادهم والعمـل على تحريرها ، وما زالت دائرة هؤلاء القراء تتسع الى أن أخذت تتحــول بالتدريج ـ وما تزال ـ الى الطبقات الشعبية وما زالت دائرة الموضوعات التى كانت تتناولها هذه المقالة تتسع ايضا حتى أخذت تشمل الحياة اليومية فأفسح ذلك كله المجال في آخر المطاف الى فن كتابة القصة كما نعرف هذا الفن اليوم في أدبنا العربي الحديث ، وهو يسعى بخطى ثابتة نحو النضج والمتانة والاكتمال .

وليس من المستغرب في شيء ان يكون لتاريخ الادب العربي انعكاس على تاريخ الادباء العرب انفسهم كافراد انعكاسا قد يكون جزئيا احياناوكاملا احيانا اخرى ، ولذلك فليس من عجب في شيء ان تتدرج حياتي الادبية من قرض الشعر الى كتابة المقالة الى كتابة القصة ، وحينما اقول المقالة اعني الكتاب ايضا فالكتاب لا يعدو ان يكون مجموعة مقالات تسمى فصولا يضمها موضوع واحد ، او موضوعــات مختلفة في نهايــة المطاف ، وهو لا يكتب دفعة واحدة وانما يوضع في اول الامر فصولا او مقالات .

كان من الطبيعي أن أتأثر بتجاربي في قرض الشعر وكتابة المقالــة حينما اخذت اعالج فن القصة او أن اعمل على استغــلال هذه التجارب بتعبير اصح ففي ميدان الشعر كنت اتجه الى وحدة القصيدة والى محاولة وضع صورة مكتملة للموضوع الذي أعالجه ، مع محاولة الابتعاد عن الموازين

الطنانة التى جعل منها دهر طويل استعملت خلاله فى الفخر والهجاء طبولا جوفاء لا تناسب المعاني الهادئة والتصوير المستأنس والهمس اللطيف ، كل ذلك مع انتهاج الاسلوب السهل الذى يكاد يقترب من النثر ، دون اخلال بالقواعد ، مع الابتعاد على اللفظ المعقد الحوشي او غير الشعري ومع محاولة انتقاء اللفظ السهل ولكن دون المبتذل ومراعاة جانب الموسيقى والاشراق فى هذا الانتقاء .

ولا شك ان العمل على الاقناع الواضح هو حجر الزاوية فى كتابة المقالات ، وخصوصا منها تلك التى تستهدف التنوير والاستنهاض وتستهدف فى نفس الوقت رسم آفاق المستقبل والقاء الضوء عليها ، ولذلك لا اعدو الحقيقة اذا قلت ان ممارستي للقصيدة وممارستي للمقالة على نحو ما اشرت ، هي التي مهدت امامي طريق كتابة القصة على ضوء من الفن والاقناع كما تراءى لي ذلك على أقل تقدير ، محاولا الاقتداء بما فى المقالة من فكرة وما فى القصيدة من جمال ، الى جانب العمل على ان يكون القراء على اوسع نطاق ، مع المحافظة على المستوى لا على أضيق نطاق ، ومع استهداف الطبقة المثقفة التى قد تكون فى غنى بثقافتها وما وصلت اليه من أفكار قد تكون متعصبة لها عن هذا الذى أخذت اتجه فى كتاباتي اليه فالقاعدة الاولى التي يجب ان نضعها نصب اعيننا قبل ان نرفع القلم للكتابة هو اننا لا نرفع هذه الاقلام لنملأ بها الرفوف وانما لنملأ بها العقول ، واننا نكتب لغير المثقفين قبل ان نكتب للمثقفين ، وان صفحة واحدة يقرأها الملايين ليتمتعوا بجمالها ، ويقتنعوا بما ترمي اليه من فكرة ، ويضعوا اليد على ما قصدت اليه من وراء حوار او تصوير اجدى علينا من كتاب ضخم يقتنيه متخصص فى هذه المرحلة التى نجتازها من حياتنا الثقافية الحضارية اذا لم يخطئني التعبير ، خصوصا وان دائرة القراء فى العالم العربي لا تزداد الا اتساعا ، وان هدفنا اليوم من حياتنا الادبية هذه لا تستهدف الجودة وحدها ، وانما تستهدف الى جانب ذلك ان يضطرد تأثيرها على الطبقات الشعبية وان تتمكن من الشروع فى رفع مستوى هذه الطبقات فى سبيل التمتع بالادراك والجمال .

ويمكن القول بصفة عامة على ضوء مما اسلفنا ، ان القصيدة اذا

كانت تتمتع بالقدرة على ان تشتمل على النغمة والصورة ، وان المقالة اذا كانت تتمتع بالقدرة على المنطق والاقناع فان في استطاعة القصة ـ التى اعتبرها مرحلة ثالثة بعدهما ـ ان تتمتع بذلك كله فى نطاق اوسع ، لانها اقرب الى الحياة الواقعية منهما فهي تصوير واقعي لها ، وان يكن هذا التصوير هادفا ، ففي الوقت الذى يتسع فيه صدر القصيدة للمجال من خيال يتراءى وفى الوقت الذى تتشبث فيه المقالة باسباب المنطق والاستنتاج واصدار الحكم تتمتع القصة بهذا كله ، ولكن حريتها فيه اوسع لانها تتقيد بالواقع اكثر مما تتقيد بأي شيء آخر وليس عند الواقع بأس من ان يختل المنطق ويفسد الاستنتاج ، وان لا يكون هناك أي حكم على الاطلاق ، لان الواقع الذى تكاد القصة ان تتقيد به مليء بالمفاجآت وبالمظالم وبالاختلال وبخيبة الآمال ، ولذلك جاءت القصة اقرب الى الحرية من القصيدة ذات القيود واقرب الى الفن والجمال من المقالة ذات المنطق والاستدلال .

— * —

وعناصر القصة عندي بعد ذلك ، على ضوء تجاربي الخاصة فى كتابتها ، وعلى ضوء تجاربي من قراءتها تعبير ، وتصميم وسياق وتحليل وتصوير ، وقد مكنتها هذه العناصر مجتمعة ومتفرقة من حرية لا يكاد يتمتع بها فن ادبي آخر ، ولا يكاد كاتب القصة يبحث عن فنه فى غير نفسه ولو كان ذلك علم النفس ذاته ـ حتى يفقد كثيرا من حريته وبمقدار تضاؤل هذه الحرية تتضاءل القيمة ، لان القصة تقوم على أساس من التجربة الذاتية التى تستند الى الملاحظة الدقيقة ، والتتبع اليقظ ، والربط الواعي بين الافكار والمشاعر والاحداث حينما ترتبط ، والفصم بينها حينما تنفصم ، ولكن القصة فوق هذا وذاك اوسع مجالا من ان تحشر فى تحديد ، او يلم بها تعريف على ان ذلك لا يمنعنا من ان نقف وقفة قصيرة عند كل عنصر من العناصر التى تستند اليها ، ان لم يشجعنا ذلك عليه :

1) التعبير : التعبير مادة القصة الخام ، كما هو المادة الخام لكل فن ادبي ، ونحن نعرف ان اللغة كائن حي تمر الفاظها كالكائن الحي ،

بمراحل الطفولة والشباب والشيخوخة والموت ولذلك فان تدوين هذه اللغة على ممر العصور ضرورة جوهرية لا يتمتع بها الادب العربي لان اللغة العربية ما تزال مدونة فى معاجم قديمة اتى عليها زمن طويل من الدهر ، ماتت خلاله كمية كبيرة من الفاظها التى لم تدون فى نفس الوقت بطرق سلمية اختلطت فيها الاسماء بالصفات ، وفى خلال هذا الزمن الطويل من الدهر ولدت كمية كبيرة جدا ايضا من الالفاظ التى لم تدون، ووجدت كمية كبيرة جدا من الاشياء لا الفاظ تدل عليها فى هذه اللغة ، فاتجه البحث الى التنقيب عن الفاظ اشبه بها فى تلك المعاجم القديمة تارة ، والى نقلها كما هي من اللغات الاخرى تارة اخرى، والفت مجامع للغة العربية هنا وهناك لتحقيق الغرض الاول وترك حبل الغرض الثاني على غاربه يفعل به الادباء ما شاءوا .

وقد كان من المعقول فى هذا التيه أن يظهر الرأي الذي يذهب الى القول بأن العرى قد انفصمت بين اللغة العربية ، تلك التى لم تدون منذ مئات السنين وبين الحياة الواقعية التى تطورت تطورا ماديا ومعنويا ، اصبحت معه هذه اللغة لطول ركودها عاجزة عن ملاحقته ولذلك فان اللهجات العامية العربية التى لاحقت هذا التطور راضية او كارهة اصبحت أقدر على التعبير من اللغة العربية ، ولا مجال هنا للاشارة الى ما فى ذلك من ظلم للغة العربية التى لا يمكن ان يطعن عدم الاهتمام بها اهتماما يتلاءم مع التطور الذى أصاب الاشياء ، فى مرونتها وقابليتها لملاحقته ، فموقف هؤلاء شبيه بموقف الذين يخلطون بين الاسلام والمسلمين .

واذا كان لكل فن من فنون القول لغته ، او لون من الوان اللغة خاصة به ، فان لغة القصة هي التي تهمنا هنا ، وقد رأينا مجال اتساع القصة ومدى الحرية التى تتمتع بها ، فان لغتها ايضا مستمدة من ذلك الاتساع وهذه الحرية .

اما فيما يتعلق باحياء اللغة العربية فانني أتصور ان من مصلحة وحدة هذه اللغة التى يهددها حتى المتشبثون بها ، لانهم يذهبون فى احيانها

طرائق قددا ، فانه يجب ان ينشأ مجمع عربي واحد يضم ادباء وعلماء ولغويين من سائر البلاد العربية ، على ان تتلخص مهمة هذا المجتمع فى :

1 ـ مراقبة السائر من الالفاظ الجديدة وتدوينها ، لا التنقيب عن الالفاظ القديمة الميتة فى المعاجم التاريخية ، لان الالفـاظ اللغويـة مـرآة للحاضر بفهمه وذوقه واستصاغته ، دون سواه وبذلك تصبح اللغة العربية ـ مثل اللغات الحية الاخرى ـ اداة من أدوات تعبير شعب كامل ، لا أداة من أدوات تعبير اوتوقراطـي لفرد منه او افـراد ، وهذا ما نسميـه بديمقراطية اللغـة .

2 ـ تتبع اللهجات العامة وتعبيراتها ، لان هذه اللهجات فى عمقها امتداد للغة العربية وليست خروجا عليها ، وذلك للمحافظة على ما بينها من انسجام وتدوين الاعم من الفاظها وتعبيراتها ، والعمل الدائب على التقريب بطرق الاعلام المختلفة بين اللغة العربيـة وهذه اللهجـات حتـى تتقارب ثم تندمج على قدر الامكان .

3 ـ فتح المعجم العربي امام الالفاظ الاجنبية ، كما كان مفتوحا فى عصور هذا المعجم الذهبية ، مع العمل على تعريبها كما كان العرب القدماء يفعلون ، ثم فتح هذا المعجم على نفس الطريقة امام مئات من اسماء الزهور والاشجار والنباتات والاسماك والحيوانات والمصطلحـات .. الخ . حتى يفتح ذلك كله امامها مجال الشمول والتعبير الدقيق ، ولا يقفل فى وجهها موضوعات انسانية تعالجها او مناطق جغرافية ترمي الى الدخـول اليهـا والاضطراب فيها واكتساب التجربة منها والحياة على مستوى عالمي .

4 ـ والموضوع الرابع ـ وهذا اثارة موضوع جانبي وليس استقصاء ـ هو موضوع كتابة الاسماء الاجنبية ، فهناك حروف فى اللغات الاخرى لا وجود لها فى اللغة العربية ، وهناك حروف فى اللغة العربية لا وجود لها فى هذه اللغات ، ولست ادري كيف لم يستطع العرب ان يوحدوا طريقتهم فى كتابة هذه الاسماء ، ويكفي ان نستدل على ذلك باسم ((هامنجواي)) تكتب بالكاف وبالجيم وبالغين ، وكان من البسيط ان يتفق العرب على وضع

كل حرف زائد فى ابجديتهم فى موضع كل حرف ناقص كما يوجد فى اللغات الاخرى كما فعل الاتراك والايرانيون والباكستانيون ، وهو موضوع تافه يخجل المرء من الاشادة اليه ، ولكنه لم يتحقق الى الآن يضاف الى ذلك كثير من اسماء الاقطار والمدن والمعالم الجغرافية التى تكتب بطرق تكاد تكون مختلفة باختلاف اقطار العالم العربي .

وبالرغم من هذه الصعوبات التي يصطدم بها الادباء والكتاب فانني ظللت اعتقد، وما ازال، ان هذه اللغة خاضعة للتذليل والسيطرة ، وقادرة على اداء ادق المعاني واعوص التعبيرات متى ما بذل الانسان جهدا صادقا لتملك ناصيتها ، وان التراث العربي القديم بما يشتمل عليه من ذخائر وكنوز كفيل بأن يذلل امامنا بالممارسة والتعمق والمواظبة كل هذه الصعوبات ويمكننا من ملكة التعبير ، وربما كانت اللغة العربية من اقدر اللغات على التعبير الدقيق متى ما أسلست لمن تبحر فيها القياد .

وقد عكفت منذ سنوات فى مفتتح حياتي القصصية على ترجمة أقاصيص مختلفة من الأدب الروسي والادب الانجليزي والادب الامريكي، وكنت القي فى ذلك صعوبات فى اول الامر ، وبالجهد المتواصل لانت قناتها ، ولكن اللغة العربية كانت فى حالتي العسر واليسر قادرة على الآداء ولا اذكر انني اضطررت الى تحوير او مراوغة او حذف ، ولا للجوء الى الابتعاد عن سلاسة الاسلوب ولا سلامة التعبير .

2) التصميم : يختلف تصميم القصة باختلاف طولها او قصرها، كما اختلف هذا التصميم باختلاف تاريخ القصة ايضا وكان يقال ان تصميم القصة يتكون من تمهيد ثم عقدة ثم تنتهي بانفراج هذه العقدة ولكن القصة الحديثة لم تعد تعتمد فى جوهرها على تعاقب الاحداث والسرد ، وبذلك اصبحت الاحداث تحتل المرتبة الثانية من هذا التصميم بل انك تكاد تعثر اليوم على قصص خالية من الاحداث وتعاقبها ، ولا تشتمل الا على موقف واحد يظل القاص يتناوله بالتصوير والتحليل الى ان تنتهي القصة دون أن يتغير الحادث او المنظر فالتصميم الهندسي على ذلك فقد اليوم كثيرا من اهميته التاريخية فى كتابة القصة الطويلة والقصيرة معا ، كما فقد

هذه القيمة ايضا التصوير المسهب التى اعتاد كتاب القصة ان يتناولوا به المسرح الذى تدور عليه حوادث قصصهم ، او البيئة التى تتم فيها هذه الحوادث فى مقدمة هذه القصص .

ولقد جعلت من الاستعمار الموضوع الذى دارت حوله القصص القصيرة الاولى التى كتبتها فكتبت مجموعة « وادي الدماء » تناولت فى قصصها القصيرة المظالم التى عانتها مختلف طبقات الشعب المغربي على يده وخصوصا منها الطبقات التى كانت تقيم فى البوادي وعلى الشواطيء وتحترف الزراعة والرعي والصيد وبعض الحرف المتواضعة ، كل ذلك الى جانب المكر الذى كان يتذرع به الافراد الذين قذف بهم الاستعمار الى المغرب أو جاءوا فى ركابه بحثا عن الربح الرخيص والثراء العاجل على حساب حتى الطبقات الفقيرة من المغاربة ، ثم كتبت مجموعة اخرى تحت عنوان « صراع فى ظلال الاطلس » صورت فيها وفى أحداثها جانبا آخر من الحياة فى ظل الاستعمار هو جانب المقاومة والبلاء الذى أصبح على الشعب المغربي ان يخوضه فى مقاومة هذا الاستعمار وضروب البطولة التى كان يتفنن المغاربة فى ابدائها لاجل الصمود فى وجه الاستعمار وقساوته ، بعد ان تبين لهم أن لا حياة كريمة او غير كريمة ما داموا يعيشون فى ظل جبروته وطغيانه .

ولا شك ان الاستعمار كان من أكبر المشاكل التى عاناها العالم العربي في النصف الاول من القرن العشرين ، وكان من المآسي التى عاناها هذا العالم وعانا بسببه رجل الشارع ورجل البادية بصفة خاصة اقسى ضروب المحن والنكبات وكانت تفاصيل هذه النكبات تدور فى صمت وعلى مبعدة من اقلام القصيصيين ، ولما كانت معظم هذه القصص قد كتبت فى مصر يوم كنت مقيما بها فانه لم يكن لي فيها بد من ان اعمل على تصوير البيئة المغربية وبعض عاداتها وتقاليدها الى جانب تحليل النفسية المغربية المعنوية ، واقول انه لم يكن بد من ذلك لان القراء من اخواننا فى الشرق الاوسط لم يكونوا يعرفون عنا نحن هنا فى المغرب العربي الا نزرا اقل من القليل ، وعلى ذلك فان هذه القصص نزعت الى تصوير تفاصيل ما كان يعانيه الفرد المغربي فى الحياة القاسية اللة التى فرضت عليه، وكانت هذه

القسوة تمس من حياته جوانب صغيرة كان يظن لصغرها انها بعيدة كل البعد عن ان تتأثر كل هذا التأثر البالـغ بويلات الاستعمـار وتصرفاتـه العدوانية وحينما أقول ويلات الاستعمار اقصد بالتأكيد ايضا تلك الويلات التي حملها معهم اولئك الذين جاءوا فى ركابه ليزاحموا المغاربة فى كسب اسباب الرزق بالميادين التى تتسع والميادين التي تضيق على حد سواء .

ثم كتبت بعد ذلك قصة واقعية ـ هي ترجمة ذاتية ـ تحت عنوان ((فى الطفولة)) فى جزئين ، صورت فيها حياة طفل مغربي عاش فترة من حياته في مدينة منشستر بأنجلترا وجزءا آخر من هذه الطفولة فى مدينة فاس بالمغرب ، اشتملت فصولها على مقارنة يقوم بها طفل بين الحياتيـن المختلفتين ، كما تضم كثيرا من الصور الاجتماعية عن الحيـاة فى مدينـة فاس بالمغرب ، اشتملت فصولها على مقارنة يقوم بها طفل بين الحياتين المختلفتين ، كما تضم كثيرا من الصور الاجتماعية عن الحياة فى مدينـة فاس خلال الثلاثينيات على نحو ما وجدها الطفل وتصورها بعد عودتـه الى مدينة آبائه واجداده ، ولما كانت فصول هذه القصة قد كتبت لتنشر فى مجلة ((رسالة المغرب)) التى كانت تصدر فى مدينة الرباط فى مفتتح الخمسينيات ، وكانت مجلة اسبوعية ـ فقد عمدت الى ان اجعل من كل فصل منها وحدة متكاملة ، وان كانت مدرجة كحلقة فى سلسلة الكتـاب بيد ان نشرها اسبوعيا على هذه الصورة كان كفيلا بأن يضمن استمتاع القاريء بها ولو نسى حلقة سابقة نشرت منذ اسبـوع او لم يكتـب له الاطلاع عليها او خطر على بال الرقيب الفرنسي ان يحذف حلقة من هذه الحلقــات .

واذن فقد كانت هناك عوامل خارجية خلال الحياة غير الطبيعية التي عشتها خلال شبابي هي التي فرضت علي ان الجأ الى أسـلوب معيـن فى تصميم هذا القصص الذى كتبته فى ذلك الحين ، وقد اجتهدت ما وسعني ان لا يكون لذلك أي أثر على طابعه الفني ، وعملت على ان اوفق فى ذلك فعسى ان اكون .

3) السياق : يستمد القصصيون الحـوادث التى تـدور حولهـا

قصصهم من الواقع تارة ، ومن الخيال تارة اخرى او من الواقع والخيال معا ، فهم يبتكرون احيانا هذه الحوادث ليفرغوا فيها افكارهم وعواطفهم وملاحظاتهم وخوالجهم ، وهم يتتبعون حوادث الواقع احيانا اخرى ليستنتجوا منها هذه الافكار والعواطف والخوالج ، ولذلك فان حوادث القصة فى الحالتين ليست مقصودة لذاتها ، لان القصة الادبية ليست خرافة يقصد منها سرد حوادث لا هدف لها ، وانما هي تأتي فى بعض الاحيان زبدة لدراسة دقيقة مفرغة فى هذه الحوادث ولذلك فان الاتجاه بالقصة فى طريق الوقائع والمفاجآت واثارة الفضول والاغراق فى المبالغة والمباغتة ، وجعل القصة اداة لاثارة الدهشة والاستغراب والامعان فى تغرير القارئ وايهامه ، ثم خطفه بعد ذلك فى سراديب ملتوية غير متوقعة ـ خروجا بالقصة الرفيعة عن المستوى الذى يجب ان لا تحيد عنه اذا ما ارادت المحافظة على طابعها الادبي وسمو مقامها فى الملاحظة والتفكير .

والقصة ايضا ليست شريطة من أشرطة الاخبار يسرد فيها الحادث تلو الآخر سردا سريعا متلاحقا ، كما تفعل النشرات الاخبارية ، وما ترويه بعض الصحف من انباء الفضائح وشدة يقظة رجال الشرطة وبراعتهم ، وجرأة اللصوص ومغامراتهم والحوادث المثيرة التى لا يقصد منها غير استثارة فضول القراء ولا تمس بعد ذلك عقلهم ولا خيالهم ولا عواطفهم من قريب او بعيد وانما القصة هي التي تنساب فى سياقها متمهلة وهي تصور وتحلل وتلاحظ وتفكر لتخرج منها وقد ايقظت فيك عاطفة او جلت لك غامضا ، او استثارت انتباهك الى ما يكتنفك من معاني كبيرة او صغيرة اعتدنا ان نمر بها مر الكرام وجعلتك اقرب الى فهم الطبيعة الانسانية بما تشتمل عليه من فضائل العمالقة او نقائص الاقزام ، ويكون الاكثار من سرد الحوادث دائما على حساب التامل وعمق العاطفة ونصاعة التفكير وحسن التناول ، لان كثرة السرد تصرف عن كل ذلك صرفا .

ولذلك فان القصة الادبية اليوم تتجه الى التخفف ما امكن من الحوادث وتكاد تتحول فى بعض الاحيان الى درسة علمية او نفسية ، ولا تكاد تشتمل فى بعض الاحيان الاخرى على اكثر من موقف او مشهد او حادث واحد مجرد ، ينسج حوله الكاتب قصته الادبية كاملة .

فالاسلوب القصصي بهذا المعنى يرتفع بفن القصة الى مستوى الذروة فى عالم الادب لانه فن سهل التناول ، خال من التعقيد الذى قد يعتور الشعر ومن فجاجة الدراسة التى قد تعتور المقالة فلغة القصة السهلة وأسلوبها السلس والحرية الوسعة التى تتمتع بها وقربها من الحياة الواقعية وسمو مقصدها وتنويهها الدائم ـ عادة ـ بالفضائل الانسانية كالحب والوفاء والتضحية والنبل .. الخ ، كل ذلك يجعلها اقرب الى قلوب القراء وادنى الى استجلابهم وارضائهم ولذلك فان من الملاحظ ان قراءة القصة اقدر من القراءة الاخرى على الانصراف الى الاستمتاع بقراءتها لساعات اطول من الساعات التى ينصرف فيها غيرهم من القراء الى الفنون الادبية الاخرى ، ولذلك ايضا فان من غير المستغرب ان تستهوي اكبر عدد من القراء على مختلف مشاربهم فى مستوى الذوق والتفكير .

4) التحليـل : كان للتقدم الذي اصابه علم النفس الحديث أثره الواضح على كتابة القصة الادبية فقد مكن كتاب هذه القصة من التعمق فى فهم دقائق النفس الانسانية سواء فى حلها او فى يقظتها وفى تاثرها بالبيئة والوراثة والمجتمع والتربية ولذلك فلا غرابة ان يكون كتاب القصص قد استفادوا استفادة كبيرة من علم النفس فاستطاعوا بواسطته ان يغوصوا فى النفس الانسانية ويلموا ببواعث ما يعتمل فيها سواء كان ذلك يتعلق بالشعور او باللا شعور ، بما يطفح فوق السطح او ما يرسب فى الاعماق وان يمكنهم ذلك من ان يضعوا ايديهم بوضوح على النماذج البشرية التى جعلوا منها ابطالا لهذه القصص ، وان يتمكنوا من تحليل النفس الانسانية تحليلا دقيقا شاملا .

واذا كان هناك اهتمام خاص فى الادب العالمي عامة وفى الادب العربي خاصة بالطبقات الكادحة والمغلوبين على امرهم والذين شردوا من ديارهم ، فان ذلك طبيعي ومعقول ، لان الفرد العربي فى القرن العشرين لا يزال نهبا للظلم والكدح والتشرد ، ويعاني من ذلك ضروبا لعله لم يعرف لها مثيلا فى التاريخ ، يضاف الى ذلك ان من شأن انتشار مبادىء الانصاف والعدالة والمساواة والتطلع الى حياة افضل، ان يبعث الادب القصصي الى البحث عن ابطاله بين الطبقات الشعبية التى تكون بدون ريب السواد

الاعظم من الشعب فى سائر البلاد العربية ويوشك ان ينعكس ذلـك علـى فنون الادب العربي عموما ، وفن القصص منه خاصة ، بعد ان جرفه التيه فى معركة استرجاع مجد الماضي الضائع وحرية الحاضر المسلوبة ، ولا شك ان في ذلك انعكاسا للظروف التى يجتازها العالم العربي من ناحية ، والظروف التى تكتنف الشباب فى مختلف انحاء العالم من ناحية اخرى .

بيد انني اود ان الاحظ هنا ملاحظتين :

اولاهما : ان هناك طبقة من الكتاب تغرق فى الاتجاه الى التحليـل النفسي اغراقا يكاد يحول القصة الى درس مكشـوف فى علـم النفس ، وان كان الاتجاه لم يؤثر الى الآن تاثيرا كبيرا على القصة العربية ، وقد يرجع ذلك الى ان هذا الاتجاه يمثل ضربا من ضروب الرفاهية لعل العالم العربي لا يزال فى غنى عنها .

وثانيتهما : اقتناص النماذج البشرية التى تقوم بدور البطـولة فى هذه القصص ، والتى توضع على مشرحة التحليل النفسي ، من الذين تتسم نفسياتهم بالشذوذ والعقد النفسية ، والنهاب فريسـة للتعاسـة المادية والروحية ، والتدهور الاجتماعي ، والفقر وبمختلف العاهات التى سلطت على هذه الطبقات الفقيرة ويبدو أن هذا طبيعي ايضا فان أدب القصة يجب ان يعكس على مرآته هذه الحياة ، ولكن الامعـان فى ذلـك والاقتصار عليه والانصراف اليه من جوانب الحياة الاخـرى فى العالـم العربي المعاصر، يوشك ان يجعل من هذا الادب القصصي فنا طافحا بالنقمة والمرارة والقنوط يردد نغمة واحدة متكررة تكاد تخل بالتوازن العاطفـي وتفتح ابواب الخير على مصاريعها ، وتطمس فى نفس الوقت ـ من حيث تدري ولا تدري ـ معالم التطلع ومواصلـة العمل المنطقـي فى رجاء ، لا مجرد التخبط فى ياس .

5) التصويـر : واذا كان التحليل يعني بابراز ما يعتمل فى باطن النفس الانسانية فان التصوير القصصي يعنـي بابـراز ما يحيط بهـذه النفس الانسانية فى العالم الخارجي ، وهو يستند الى الوصف والتعليل ودقة الملاحظة ومحاولة النفاذ فى نفس الوقت الى العمق ، لا الاقتصار على السطح ، مع التجسيم والتلوين والكشف عن الاسرار الكامنة والقاء الضوء

على الخبايا فى كل ما يتعلق بجمال او قبح ، بخير او شر بصادق او كاذب بأصيل او زائف .. الخ ولذلك فان فن التصوير فى القصة ليس فنا فوتوغرافيا ينقل ما يبدو كما يبدو دون زيادة ولا نقصان ، وانما هو ادنى الى فن الرسم يعتمد فى ابرازه وفى ألوانه وابعاده وتعمقه على الكلمة الصائبة ، والعبارة المشرقة التى تقتنص المعنى المراد كله بدقة ، عن طريق التعبير المناسب الجميل .

ولا يقتصر التصوير على الاهتمام بالمظاهر المادية التى تتمثل فى البيئات الطبيعية والاجتماعية وما يضطرب فى هذه البيئات من أناس أو حيوانات او طيور او أدوات أو وسائل ، وانما يعمل التصوير على ان ينفذ الى الاعماق ليبرزها لتطل من خلف الاشياء الظاهرة ولذلك فان التصوير ايضا يشمل المعاني المجردة لا الاشياء المادية وحدها فهو وثيق الصلة بالتحليل النفسي آنف الذكر ولذلك فانه يصدق هنا ايضا ما عرضت له فى موضوع التحليل الذى لا يعد أن يكون تصويرا باطنيا ، من ان الاقتصار على الصور القاتمة يحشر الحياة الواسعة فى زاوية ضيقة ويحجر افقا مترامبا ، وينشر فى نفوس القراء الكآبة واليأس وبالتالي الاختلال العاطفي والتخبط فان الدنيا طافحة ــ مهما تصطلح النكبات والصور الداكنة ــ بالوان من الصور لا تخلو من بهجة وحبور ولا ينبغي ان يتحول عمق شعورنا بالنقص الى احلال اليأس فى هذا الشعور محل الرجاء ، ولا أن يطمس فينا معالم الادراك السليم فنميل الى القول بأن البلاد العربية غير ناهضة ولا متحررة ، ولا باحثة فى صدق عن اسباب حياة افضل ، وتخلف فيها على التوالي الطبقات الواعية طبقات اعمق ادراكا واوسع علما وارهف وعيا ، ولا يحسن ان يفتننا عصر التمخض الذى نجتازه عن عصر الاستقرار والتألق الذى نسعى اليه ، ولن نبريء نفوسنا من التجني اذا ما مضينا نقدم الى قرائنا الصورّ التى تطفح بالمآسي المفزعة ، بعضها ظلمات فوق بعض فاننا اذا كنا فى حاجة ماسة الى معرفة اسباب القنوط لفي حاجة امس الى معرفة اسباب الرجاء ، وهذا هو الاتجاه الذي احسب ان من الواجب على كتاب القصص العرب ان يتولوه فيما يقدمونه الى قرائهم فى هذه القصص من صور نابضة بالحياة فى أوسع معانيها لا فى حيز ضيق فقط من هذه المعاني فالقصة كما راينا تكاد تكون اقرب فنون الادب الى التمتع بالحرية والمرونة والحياة .

القصر الكبير
أول حاضرة في المغرب

عبد العزيز بنعبد الله

أسس الفينيقيون مدينة ليكس Lix (us) عام 1101 قبل الميلاد وهي أول حاضرة عرفها المغرب بالاضافة الى مدينة أوتيك Utique قرب تونس الخضراء التي شيدت فى نفس السنة ، وقد أقيمت على انقاض ليكس فى عصر الامبراطورية الرومانية الاول (Haut-Empire) قبل الميلاد مدينة طارفة سميت ليكسوس ما لبثت ان تجددت فى عهد البزنطيين Bas-Empire ثم قامت فى العهد الاسلامي مدينة تشمش (*) فى الطبقة الرابعة من نفس الموقع غير ان الرومان الذين كانت سياستهم التوسعية تتدرج فى مراحل من الشاطىء الى قلب البلاد — ما لبثوا أن أسسوا (كما أسس قبلهم الفينيقيون عاصمة قرطاج Carthage عام 814 قبل الميلاد) مدينة Oppidum Novum وهي القصر الكبير التي يمكن أن تعتبر أول حاضرة فى المغرب ما زالت قائمة

ومن المدن الاثرية الهامة ليكسوس الواقعة على مسافة أربعة كلم . شمالي العرائش وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وهي فينيقية الاصل احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس او تشمس التي يقال بأن حدائق هسبيريدس Hespérides ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها فى الجزر الخالدات وهي الجزر « السعيدة » السبع التي احتلها الاسبان فى القرن الخامس عشر، ويرى علماء الآثار أن هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك أولى المسؤولون من الاثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة وقد عثر على البناء الفينيقي فى الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي أوان من الفخار تطور صنعها فدهنت أيام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل منوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمري وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة أحياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين فى مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

وقد سبق لنا ان نظمنا قصيدة أشرنا فيها الى هذه المدن الرومانية بعنوان « نوفوم » أو القصر الكبير ، جاء فيها :

« نوفوم » (1) ثانية الحواضر ارفلي   فى العزبين توائم الاقمار

اختارك الرومان حاضرة الهنا   نزاحة عن لكسس وقفار

مهد الحضارة جنة الدنيا التي   عرفت بـ « هسبريد » فى الامصار

جرت ذيول الفخر فى خيلائها   فغدت « وليلي » ــ طمرة الأغمار

بذت عواصم «تنجس» و « تمودة »   وتموسيدا انعم بها من دار

ما ان بدا قصر العوارف فى الدجـى   الا بدا فيـض مـن الانـوار
او اينعت وضح النهـار كرائـم   الا سما ومض مـن الاسـرار
يا بلدة أكـرم بهـا مـن بلـدة   يا موطن الاطهـار والاخيـار
اليمن نبـع فيضـه واليسـر ثـر   ت عينه والسيل خيـر نضـار
الخير أنت شعـاره والنبـل انـ   ـت دثاره والبيت خيـر مـزار
العقد أنت نظامه والفضـل انـ   ـت جماعه والجود خير منـار
فيك الأجنة راضعات للتقـى   فيك الجنـان لواقـح الازهـار

وقد كانت مدينة القصر الكبير مهبط رجالات العلم والفكر والتصوف فى افريقيا الشمالية فى مختلف العصور ومن مظاهر رفعتها تعدد الاسماء التي اطلقت عليها ومنها قصر كتامة وسوق كتامة وقصر دنهاجة (2) وقصر عبد الكريم (3) أو ابن عبد الكريم أو القصر ، ويرجع اطلاق قصر كتامة الى مجدد بناء المدينة عبد الكريم الكتامي (4) وقد أشار البكري (ص 110) الى ان كتامة كانت حاضرة ادريس بن القاسم بن ابراهيم على نهر اولكس ، ولعل من مجالي هذا الصيت انصباب اسم « قصر كتامة » على مدينـة بالجزيرة الخضراء (حسب ياقوت) والقصر الكبير احدى دوائر اقليم تطوان تضم جماعات بوجديان والعوامرة وقصر أبجير والقلة والطلبة وتاطفت وريسانة ويظهر أن معالم المدينة قد توالى تجديدها حتى قيل بأن المنصور الموحدي هو بانيها (5) ولا نطيل بسرد الاحداث الحضارية التي كان القصر الكبير مسرحا لها فى شتى المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ويكفي دليلا على غزارة مادة هذا الموضوع كثرة من تناوله بالبحث والتمحيص فى مختلف العصور (6) ويرى بعض المؤرخين القدامى مثل بلـين Pline ان ناحية القصر الكبير هي مركز الحدائق العدنية المشهورة فى التاريخ باسم Hespérides المحتوية على تفاح الخلود حسب الاساطير وبعضهم جعلها فى جزر ساحل الاطلنطيك كالجزر الخالدات وقد أطنب هؤلاء المؤرخـون فى التنويه بخصب هذا الاقليم الذي كان ينتج نسبـة عالية مـن المحاصيـل

ببذور قليلة ويرجع ذلك الى توافر الأسمدة الكيماوية الطبيعية التي خلفها البحر عند انحساره بعد أن غمر هذه الاقاليم الى ممر تازة .

ومن جملة من أبرز اهمية القصر كمركز اقتصادي صاحب مـرآة المحاسن (ص 142) وقد كانت تشكل فى سوس الأدنى (7) فى القـرن الثالث الهجري ممر القوافل التجارية (8) التي كانت تصل الاندلس وبصرة المغرب وبصرة العراق عن طريق افريقية أو سجلماسة (9) وكان نهر لكوس ميدانا لأعظم معركة عرفها المغرب هي معركة وادي المخازن التي فقـد البرتغال اثرها استقلاله طوال نيف وستين سنة وقد سمي هذا النهـر بأسمير (10) وهو اسم أطلق على وادي أبي رقراق (11) كما يطلق الآن على نهر فى منتصف الطريق بين تطوان وسبتة وقد انتشرت حول القصر الكبير مدن وقرى مثل العرائش (12) وفروجة (13) والبصرة على نفس المسافة (ما بين 30 ميلا و 30 كيلو مترا) (14) وهو ما سمي بالمرحلةوكانت البصرة أهم مركز لصنع الكتان فى المغرب (15) تسمى أيضا بالحمراء لحمرة ترابها (16) وببصرة الذبان لوفرة البانها وامتازت الى جانـب ثرائهـا الاقتصادي بجمال نسائها (الذي فاق جمال نساء المغرب) وروعة عمرانها وتكاثف الاندلسيين والبرابرة فى رحابها وقد أسست فى نفس الوقت الذي تم فيه تجديد بناء « أصيلا » (17) وهدمها أبو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368هـ (18) ولعل مما يثير الانتباه فى تاريخ العمران بالمغرب تماس الحواضر فى مسافات لا تزيد على مرحلة وقد لاحظ ابن حوقل ان بين البصرة ومدينة الاقلام (19) أقل من مرحلة كما لاحظ ابن عذاري ان بينهاوبين القصر مرحلة وكذلك مدينة جنيارة (20) وماسينة أو ما سنة وهي مدينـة عيسى بن حسن الحجام (21) وقد أشير الى مدينة أخرى بأعلى الجبـل تسمى «كرت» تبعد عن البصرة بمرحلة وكانتخربة أيام البكري(22) ومدينة الخجر جنوبي البصرة قرب ماسنة أسسها الأدارسة ، ولذلك اختـار الادارسة البصرة عاصمة لهم ومرسى لنشاطهم الاقتصادي (23) كما كانت امتدادا لمركز قديم اختير فى عهد الرومان بفضل موقعه المثالي وهو امـا Valentia أو Banassa (24) وقبل أن نستعرض بعض رجالات هذه المنطقة نشير الى مدينة القصر الصغير (25) التي تعددت أسماؤها كذلك وهي قصر مصمودة (26) وقصر المجاز حيث كان المجاهدون يمرون الى

الاندلس (27) وقد نزل بها المنصور الموحدي عام 586 م (28) وبناها قبل ذلك مكان قصر مصمودة (29) واستولى عليها البرتغال عام 862 هـ (أو 863م (30) حيث أقاموا برج سينار (31) ثم أخلوها عام1551 م(958هـ) (32) ويتجلى من فسيفساء العلماء الذين كان القصر مسقط رؤوسهم أو مهبطا لهم ان رواد الفكر من المغرب العربي والاندلس خاصة ومن الشرق عامة انتجعوا رحابه فى مختلف العصور وهاكم نماذج لهذه النخبة :

— ابراهيم بن أحمد بن محمد بن علي الزواري التونسي الذي استوطن القصر واتخذه مركزا للبحث والتدريس وتردد عليه الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وقد توفي بفاس عام961 هـ/1553 م بعد أن عمر مائة وستا وثلاثين سنة (33) .

— ابراهيم بن علي بن عبد الرحمن المعروف بالصياد القصري السريفي (1008 هـ / 1600 م) (34) .

— ابن الخباز عبد الرحمن بن محمد القصري له « بذل العلم والود فى شرح تفصيل العقد » (خم 5942 / 887) (أي الخزانة الملكية بالرباط)

— ابن رشيق عبد الوهاب بن يوسف بن محمد بن خلف ولد عام 587 هـ بقصر عبد الكريم وتوفي عام 650هـ/1252م بسفح جبل المقطم أخذعن بلديه عبد الجليل صاحب « شعب الايمان » وكان متصدرا بالجامع العتيق بمصر (35) .

— ابن عسكر محمد بن عبد الله بن عمر (986 هـ / 1578 م) (36) صاحب « دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير مشائخ القرن العاشر » (خق = خزانة القرويين) 1300 خع أي الخزانة العامة بالرباط 386) طبعة فاس 1309 هـ/1891 م .

— ابن عطية يونس الونشريسي قاض قصر كتامة وشيخ ابن الخطيب وهو من رجالات القرن الثامن الهجري (37) .

— ابن غازي العثماني المكناسي محمد بن احمد الهبطـــي (919 هـ / 1513 هـ) أصله من بني عثمان من كتامة قرب القصر الكبير .

— ابن مخلوف عبد الله بن أبي مدين شعيب أصله أيضا من بني عثمان كان من خاصة يوسف بن يعقوب المريني وأبي ثابت مكلفا بوضع العلامة على الرسائل وحساب الخراج والضرب على أيدي العمـــال وتنفيـــذ الأوامر قتل بدسيسة بني وقاص .

— ابو بكر بن عثمان بن صالح المسراتي (38) المراكشي قاضي انفـــا بتامسنا وقصر كتامة وازمور وحصن القاهرة بالأطلس ولد فى حدود 710 هـ / 1310 م .

— أحمد بن ابراهيم الجرفطي مفتي القصر الكبير (39) وتوجد مخطوطة فى خم 5483 فيها « تقاييد فى الأوفاق » منسوبة الى أحمد القصري .

— احمد بن محمد الطرون بن عبد الرحمن الفاسي القصري (40) (961هـ 1553 م)

— أحمد بن محمد بن هابيل العبدري القصري المعروف بالأشقر (41)

— الجيلاني بن عبد السلام الغرابلي القصري (1074 هـ / 1663 م .

— حسونة القصري الرباطي كانٌ تاجرا بتونـــس (42) (1199 هـ) / 1784 م .

— سالم القصري له « الروض الناشر على نظم الامام ابن عاشـــر » (مكتبة تطوان 120) .

— سليمان بن علي بن سعيد القصري الغماري أبو الربيع قرأ بفـــاس وأقام بالاسكندرية ثم المدينة المنورة حيث توفي عام (714 هـ / 1314 م) .

— عبد الجليل بنموسى القصري شيخ ابن رشيق المذكور الذي توفي عام 650 هـ له « شعـــب الايمـــان » خم = 4066 وخع 2325 د (146 ورقة مبتورة الاول)

— عبد الرحمن بن محمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي (43) ولد عام 972 هـ بالقصر وتوفي عام 1036 هـ / 1626 م .

— عبد الرحمن التنهلي القصري المعروف بالفرمي له شرح على كتاب « الضبط فى القراءات » لمحمد الخراز خم 2248 د (مجموع 201 — 219) وقد اشار صاحب «شجرة النور» (ص 299) الى عبد الرحمن ابن محمد القصري كما اشار الأستاذ محمد داود فى تاريخ تطوان (ج 2 ص 286) الى عبد الرحمن بن عبد السلام القصري .

— عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري (44) .

— عبد الرحمن بن محمد القصري له « بذل العلم والود فى شرح تفصيل العقد » (والتفصيل لابن غازي العثماني القصري (ملحق كشف الظنون م 1 ص 174) / المكتبة الوطنية بتونس (3622 م) .

— عبد الكريم بن عمران القصري قاضي مراكش (45)

— عبد الله بن عبد الحق الأنصاري تربى بقصر عبد الكريم (46)

— عبد الله بن علي القصري عامل سلا (47)

— عبد الله بن عبد الواحد الورياجلي عالم قصر كتامة (48)

— عبد الله بن محمد الحضرمي القصري (49)

— عبد الواحد بن طلحة العروسي من أمراء بني عبد الحميد أصحاب قصر كتامة الذين انقرضوا حوالي 950 هـ (مرآت المحاسن) وهو صاحب الشيخ أبي الروائن (50)

— العربي بن رحمون القصري (تاريخ تطوان ج 2 ص 305)

— على بن أحمد بن أبي قوة بن ابراهيم بن سلمة الأزدي الداني (51)

قاضي قصر كتامة كان محدثا مكثرا ضابطا ثقة له رد على ابن غرسية فى رسالته الشعوبية توفى بمراكش 608 هـ / 1211 م وقد كتب فى تفضيل العجم على العرب ابن غرسية هذا كما كتب ابن عرس وابو عامر بن عبد الله السبكي (52) .

— علي بن خلف المشهور ببو غالب الانصاري السلمي دفين القصر (53) توفى عام 568 هـ (أو 573 م / 1177 م)

— علي بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالمراكشي الأقاوي من بني صالح بسوس قاضي القصر الكبير فى عهد السلطان مولاي رشيد توفي بمكناسة عام 1090 هـ / 1675 م

— علي بن يوسف أبي المحاسن الفاسي (54) توفي بالقصر عام 1030هـ 1621 م

— عيسى بن الحسن المصباحي ابو مهدي دفين الدعادع على وادي مضامن ناحية القصر استشهد خلال وقعة الرملة بأبي غاص (فحص طنجة قرب قنطرة عصماء عام 982 هـ /1574 م .

— عيسى بن مريم المتنبي القصري (55)

— فتح بن موسى بن حماد نجم الدين الأموي الجزيري القصري الشافعي ولد بالجزيرة الخضراء ودخل بغداد ودمشق ومصر ووليقضاء أسيوط ودرس بالنظامية (56) (663 هـ / 1265 م)

مصنفاتـــــــه :

1) نظم المفصل للزمخشري

2) الوصول الى السول (المجلد الأول فى نظم سيرة ابن هشام 8183 بيتا) يوجد مجلده الخامس فى خم 1668 .

3) نظم اشارات ابن سينـــــا .

4) منظومة فى العــــروض

— محمد بن ابراهيم القصري الشدادي (57)

— محمد بن ابراهيم بن يوسف القصري السبتي (58)

— محمد بن ابي بكر بن رشيد البغدادي الشافعي أصله من قصــــر كتامة (59) له شيوخ ببغداد ودمشق والأندلس ومصر وهو صاحب الوتريات فى المدح النبوي ورد على مراكش صدر 655 ﻫ وأقام بها بعد ذلك توفي بتونس عام 663 ﻫ / 1264 م وقد خمــس وترياتــه محمد الفاطمي الصقلي (طبعت بفاس)

— محمد القصري الوصي المريني على فاس (60)

— محمد بن عبد الرحمن القصري (61)

— محمد بن عبد الله القنيطري القصري (62) (1062 ﻫ / 1652 م) له تكميل « زهر الرياض فى رد ما شنعه القاضي عياض » (لمحمد بــن محمد بن عبد الله الخيضري) خم 28 (ضمن مجموع)

— محمد بن عبد المجيد اقصبي (1364 ﻫ / 1945 م) عارف بالقراءات أتمها فى القصر الكبير (63) له عدة مصنفات فى التوقيت والقــراءات والحساب وتاريخ المغرب والنحو والفرائض والتصوف والعروض .

— محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن الشيخ التاودي بنسودة (64) قاضي قصر كتامة (1299 ﻫ / 1881 م .

— محمد بن علي الخطيب القصري (65) (955 ﻫ / 1549 م) راجــع محمد بن علي القصري فى عنوان الدراية ض 108 .

— يونس بن طربية القصري (66) من قصر كتامة تولى قضاء طرابلس الغرب والتدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام 641 هـ/1243م.
ومن البصريين الذين عاشو فى البصرة أو تناسلوا من أهلها :

— ابراهيم بن احمد البصري السبتي (67) (513 هـ / 1119 م)

— احمد بن حذافة البصري (68)

— ابن رشونة أبو هارون عمران بن عبد الله العمري البصـــري (69) (313 هـ / 924 — 925 م)

— سعيد بن خلف الله بن ادريس بن سلمان البصري (70).

— عثمان بن سعيد بن حمادة البصري (71)

— القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل والي البصرة (72).

— يحيى بن خلف الصدفي السبتي أصله من بصرة المغرب رحل الـــى المشرق وحدثكثيرا ودخل الاندلس مجاهدا وتاجرا وتوفيبسبتة(73) وهنالك عائلات فىالمغرب تحمل هذه الصفة كعائلة بصريبمكناس(74) تلك عجالة نستشف من خلالها مدى ضخامة الدور الذي قامتبه مدينة القصر الكبير كأول مدينة فى المغرب .

(+) راجع افريقيا الشمالية للادريسي (ص108) — الاستقصا ج 2 ص 15 — المغرب للبكري ص 112 (سماها تشومس وهي مدينة ميمون بن القاسم الادريسي .

(1) Tissot - Géographie... p. 162 et 343

الذي لاحظ (ص 5) ان مدينـــة القصـــر الكبير مبنية فى معظمها بادوات أزلية العهـــد وتوجد على احدى قواعـــد منارة الجامـــع الكبير كتابة كشفت منذ عام 1871 م وهي تشهد بوجود ضريح فى ذلك المكان .

Moulieras, Le Maroc inconnu T. 2 - p. 537

(2) خلافا للبكري ووفاقا لابن خلدون فى العبر ج 1 ص 291 من الترجمة .

(3) وصف افريقيا للادريسي ص 51 وقد التبس الامر على ياقوت الحموي فى معجم البلدان (ج 7 ص 106) حيثذكر أن قصر عبد الكريم يقع قرب سبتة ولعله يقصد القصر الصغير .

(4) دوكاستر (ج 1 ص 175) نقلا عن البكري والافراني .

(5) راجع جغرافية الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي Léon l'Africain (خلافا لصاحب الاستقصا ج 1 ص 187) وقد حدد الادريسي (افريقيا الشمالية ص 52) موقع مدينة بين تاورة وبني زياد على مسافة ربع ميل من مكناسة تسمى القصر ولعله يعني مدينة اخرى كانت تحمل نفس الاسم لا سيما وأنه اشار ص 53 الي قصر عبد الكريم على نهر اولكس.

(6) راجع تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جو ليان (ص 474 و 736) والوثائق المغربية .

Archives marocaines T. 2 - p. 1 (n° 2)

وهسبريس Hesperis 1937 - p. 321 (n° 4)

والوثائق الغميسة Sources inédites de l'histoire du Maroc

Saadiens - 1ère Série

T. 1 p. 37 - 668

T. 2 p. 277 - 467

T. 3 (Introduction et p. 580).

وقد ذم القصر لاسباب شخصية الشريف محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي دفين المدينة المنورة (1311 هـ) .

(7) سوس الادنى يمتد من ملوية الى أم الربيع والاقصى من درن الى وادى نول (الجذوة ص 8) ، وربما شمل سهول الاطلنطيك من الاطلس الى جبال الريف بالبحر المتوسط (روبير مونطاني ـ البربر والمخزن ص 27) .

(8) لاحظ ابن خردادبة فى جغرافيته فى القرن الثالث الهجري ان التجار الصقالبة كانوا يجولون خلال العالم مارين بسوس الادنى عن طريق طنجة ومن هناك يتجهون الى افريقية ومصر .

(9) اطلق هذا الاسم على نهر باقصى جنوب المغرب (راجع ما ورد عن عرب الخلط فى لكوس فى Archives marocaines T. 4 et T. 5

(10) راجع نزهة المشتاق للادريسي (وصف افريقيا ص 47) والمغرب فى بلاد افريقية والمغرب (ص 106) وهو جزء من المسالك طبع بالجزائر عام 1911 بتحقيق دوسلان .

(11) راجع كتاب الجغرافية لمحمد بن أبي بكر الزهرى (ص 192) طبعة دمشق 1968 .

(12) تحدثت مصادر كثيرة عن العرائش من أهمها الذخيرة السنية (ص 97) التي ذكرت انها أسست عام 657 هـ على يد يوسف بن علي ، والسلوة (ج 1 ص 266) ونشر المثاني (ج 2 ص 137) والاستقصا ج 3 ص 105) (الذي أشار الى استيلاء الاسبان عليها باعانة الشيخ المامون عام 1019 هـ)و (ج 2 ص 15 و ج 4 ص 34) حيث أرخ تحريرها ب 1100 هـ والاتفاقات الدولية للاستاذ Caille (ص 278) وقد طالبت بها اسبانيا أيام المنصور السعدي (دوكا ستر ج 2 ص 82 ـ قسم فرنسا)حيث تدخل الترك لحمل المغرب على عدم تسليمها (ص 98 و 114) .

(13 قرية أشار اليها الزياني في الترجمانة الكبرى (ص 476) .

(14) ذكر الادريسي في افريقيا الشمالية (ص 109) ان ما بين البصرة وتشمش اقل من مرحلة وقد أشار البكري (ص 114) الى اصادة التي تبعد عن يجاجين بستة أميال فقط في قبيلة بني مسارة .

(15) البيان المغرب لابن عذارى (ج 1 ص 133 و 330 الذي لاحظ انها على وادي سبو) تاريخ ابن خلدون (ج 6 ص 156) وصف افريقيا للادريسي (ص 109) معجم البلدان لياقوت (ج 4 ص 440) .

(16) الغرب للبكري (ص 110) .

(17) أوازيلا (راجع وصف افريقيا الشمالية للادريسي ص 109) أوزايلي (معجم البلدان) (ج 1 ص 217) .

(18) البيان المعرب (ج 1 ص 330) .

(19) وصاحبها هو أحمد بن عيسى جنون الذي نقل عام 364 الى الاندلس مع حسن بن جنون واليها ينتمي محمد بن سلطان الاقلامي (راجع ابن عذارى ج 2 ص 369) ومعجم البلدان (ج 1 ص 316) ووصف افريقيا الشمالية للادريسي ص 105 .

(20) الذخيرة السنيةومنها أبو عمران الجنياري المتوفى عام 649 هـ أو 642 م (ص 67) ومحمد الجنياري (الجذوة ص 147) ودرة الحجال ج 1 ص 287) .

(21) حسبما لاحظه البكري في المغرب ص 111 حيث أكد أيضا (ص 155) ان ماسينة تبعد من فاس بمرحلة ، (افريقيا الشمالية للادريسي ص 109) .

(22) الذي ضبطها بالطاء (كرط) واعتبرها من مراسي نكور (ص 90) وقد أشار اليها الادريسي في وصف افريقيا ص 111 .

(23) Hesperes 2 (fascicule 1 - 2) 1955

(24) Godard - Description p. 77

(26) تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان ص 466 / دوكاستر السعديون ـ السلسلة الاولى (م 1 ص 23 ـ 583 / م 2 ص 286 ـ 308 / م 3 (المقدمة) .

(27) البيان لابن عذارى ج 3 ص 92 ق 178 / المعجب للمراكشي ص 353 / النزهة للادريسي طبع ليدن ص 166 .

(28) دوكاستر فى الوثائق الغميسة ج 1 ص 175 نقلا عن البكري والافراني صاحب الصفوة

(29) البيان لابن عذارى ج 4 ص 134 .

(30) Godard - Description p. 57

(31) الاعلام للمراكشي ج 6 ص 36 (خ) (اي مخطوط) .

(32) دوكاستر السعديون م 4 ص 338 (مع صورة للبرج) .

(33) وثائق دوكاستر ج 1 ص 637 (قسم فرنسا) .

(34) راجع الابتهاج والممتع والمنح الصافية وتحفة اهل الصديقية والسلوة ومرآة المحاسن .

(35) السلوة ج 2 ص 325 / الروض لابن عيشون الشراط / نشر المثاني ج 1 ص 52

(36) تكملة الصلة لابن الابار ج 3 ص 741 .

(37) تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني المتوفى عام 680 هـ / 1281 م طبعة بغداد 1377 هـ/ 1957 م ص 162 .

(38) نزهة الحادي ص 76 / الاستقصا ج 3 ص 38 / تاريخ بروكلمان ج 2 ص 678 .

(39) النفح ج 7 ص 271 .

(40) نفاضة الجراب لابن الخطيب (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 102 خ) .

(41) الاعلام للمراكشي ج 6 ص 473 (خ) .

(42) الدوحة لابن عسكر ص 31 .

(44) درة الحجال ج 1 ص 88 / السلوة ج 3 ص 250

(45) تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني المتوفى عام 680 هـ/1281 م (ص 162 طبعةالمجمع العلمي العراقي 1377 هـ / 1957 م)

(46) الاغتباط لبوجندار ج 2 ص 43

(47) الدرر الكامنة ج 2 ص 254

(48) تكملة الصلة لابن الابار ج 3 ص 653

(49) ملحق بروكلمان ج 2 ص 681

(50) نيل الابتهاج ص 153

(51) تكملـــة التكملـــة ص 161

(52) نيــل الابتهــاج ص 124

(53) التكملــــة ص 529

(54) وثائق دوكاستر ـ السعديون ج 3 السلسلة الاولى ص 94 1 ـ 558

(55) درة الحجال ج 2 ص 341

(56) التكملـــــة ص 529

(57) الاستقصـــــا ج2 ص 176

(58) الذيل والتكملة لابن عبد الملك ق 5 ص 154 / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 149 (خ)

(59) كشــف الظنــــون ج 1 / ص 417

(60) الجذوة ص 297 / التشوف ص 211 / صلة الصلة ص 99 / الاستقصا ج 1 ص 187
تكملة الصلة ج 3 ص 672 / السلوة ج 2 ص 24 / الاعلام للمراكشي ج 1 ص 173

(61) الاعلام للمراكشي ج 7 ص 83 (خ) عن الصفــوة

(62) مرآة المحاسن ص 151 / النشرج 1 ص 139 / شجرة النور ص 297

(63) الدوحة ص 27 ومن جملة المتنبئين من أهالي شمالي المغرب محمد الكتامـــي المعروف بابن أبي الطواجين قاتل المولى عبد السلام بن مشيش وقد ثار بجبـــال غمارة عام 625 هـ

(64) بغيــة الوعـــاة ص 372

(65) طبقـــات القـــراء ص 47

(66) درة الحجال ج 1 ص 279

(67) الاعلام للمراكشي ج 3 ص 152 بعضها نقلا عن الذيل والتكملة / عبد الله كنون ـ مجلة البحث العلمي عدد 7 (العام الثالث)

(68) دوكاستر ـ الوثائق الغميسة ـ السعديون ـ السلسلة الاولى م 1 ص 149

(69) الوثائق المغربية ج 24 ص 175 Archives marocaines

(70) النشر ج 1 ص 205 / بروكلمان ج 2 ص 97

(71) من اعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 173

(72) السلوة ج 1 ص 121 / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 79 (خ)

(73) الجـــذوة ص 151

(74) الذيل والتكملة / تكملة الصلة لابن الابار ج 3 ص 741

(75) فهرســة عيــاض ص 68

(76) من بصرة المغرب (مدارك عياض ص 83)

(77) مــدارك عيــاض ص 83

(78) مــدارك عيــاض 333

(80) الحلة السيراء ج 1 ص 131 طبعة القاهرة 1963

(81) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي طبع مجريط ج 2 ص 61 عام 1891 م / 1309 هـ

(82) امثال العربي بصرى (1148 هـ / 1735 م) (تاريخ الضعيف ص 110 ودوحــة الناشر ص 63 ومحمد بن محمد البصري المكناسي (راجع ابن بصري) .

قصة

وأخرجها من الجنّة

عبد الكريم غلاب

خافته كانت النقرة على الباب .

ومن عادتي الا آمر بالدخول ، فالذين ينقرون باب مكتبي يعرفون أني لا امانع فى دخولهم ، والذين يعرفون أني قد أمانع لا ينقرون الباب . واغلب ما تطرق الباب يد قوية تستطيع ان تستلنى من اوراقي فارفع راسي مستفهما . ولكن النقرة هذه المرة كانت خافتة على استحياء ، لم أهتم لها ، او هي لم تستطع أن تلفت نظري ، فتماديت فى العمل . تخلصت اليد الناعمة من استحيائها فعادت تنقر على الباب بأكثر قوة ، ولكنها مع ذلك ظلت خافتة لم يتردد لها غير صدى ضعيف فى أرجاء المكتب .

رفعت عيني — وبهما شوق الى الاستمرار فى تجاوب كامل مع القلم والورق — نحو الباب تنتظران . ظل الباب فى هدوئه لا يريم . سرعان ما

تخلصت من فضولي فعدت الى أوراقي ، لكن الطرقة الثالثة كانت أقوى . ولم ارفع عيني حتى كان الباب ينفتح على استحياء أطل وجه صبوح لم أتبين منه غير عينين خضراوين او هما زرقاوان ، أو لعلهما فرتا من الخضرة والزرقة واستقرتا فى نصف الطريق .

كان صوتها هو الآخر خافتا مستعطفا :

— أتأذن لي بالدخول ... ؟

وهل يسعنى الا أن أقول :

— تفضلـــي . . .

كانت خطواتها بين الباب والمكتب لا تتفق فى شيء مع نقراتها المحيية وراء الباب المغلق . ملابسها الصيفية مختارة بدقة . ألوان كنارية تجلل القميص والسروال ، وفى عينيها وشعرها وبشرتها بعض من هذه الألوان .

— اعتذر . جئت على غير موعد . . .

توقفت عن الكلام وهي تمد يدها محيية . مددت يدي وعلى ملامحي كثير من علامات الاستفهام . أخذت عيناها تبحثان — لعلهما — عن كرسي امام المكتب . وكان علي أن أشير اليها بالجلوس ، فقد كان هناك كرسي ينتظر كل زائر . وطالما هممت برفع هذا الكرسي كما فعل زميل لي حتى لا أغرى الزائرين بالراحة . فغالبا ما تكون راحتهم هذه على حساب عملي ولا أقول راحتي . العمل ينتظر ، وسأعود اليه بعد أن ينهوا زيارتهم ، والكرسي وثير يغري بطول الزيارة ، ولذلك فهي معادلة غير سليمة . . .

لم تمهلني لابادر بالسؤال ، ولا هي أضاعت الوقت فيما يضيعه الغرباء أو الاصدقاء كلما التقوا ، ولكنها اتجهت الي كما لو كانت تملي من حفظ .

— لعلك لا تعرفني . . .

ولم تتوقف ، فقد كان من الطبيعي ان اجيب بأن الشرف لم يحصل من قبل ، وانما استمرت :

— . . . اسمي سليمى من عائلة المليلي ، لعلك تعرف العائلة . . . ؟ عمي الحاج التهامي ، وابي كان اسمه عبد الله . . . أنت لا تعرفه ، مات وانـــا صغيرة ، اخوالي من عائلة الناظوري الحاج عبد الرحمن . .

وبدات أضيق ذرعا بهذا التعريف الطويل . لست ضابط الحالة المدنية .. حتى اتطلب كل هذه المعلومات . . . ولم اكن اسجل وانما انظر اليها نظرة حياد ، لا أطلب المزيد ، ولا أستطيع أن اصدمها فاتحول بها الى الهدف من زيارة على غير موعد .

كان بودي أن أواجهها بهذا الذي أفكر فيه . ولكنها اكتفت بذلك لتقول على الفور :

— جئت اليك لان عندي قصة لم أجد غير صحفي اختصه بها . . .

وكصحفي كنت ما أزال ضيق الصدر بهذه الحكايات ، فلست من نوع الصحفيين الذين يجرون وراء قصص الحياة والناس . ولكن شخصية الكاتب انتفضت في لتدافع عن حقها ، فوجدتني أرهف السمع ، ولو اني ما زلت ضائقا بقصة قد يطول بي سماعها . ولعلها لاحظت ارتياحا مازج ملامحي ، فـــأضافـــت .

— كان من الممكن ان احكيها لآخرين ، ولكن هذه مهمة الصحافة ، ومن يستمع الى وانا الضحية ... ؟

وتطلعت الى وجه الضحية ابحث عن اثر الجريمة .

كان وجها ينبض بالحياة والعافية ، جميلا على قدر ما يكون وجه شابة لم تتجاوز الثلاثين الا بقليل . جميلة . خصلات من شعر ندت عن المحابـــس والثقاف كسنابل قمح فى ربيع حياته ، ذهبية بنية شقراء ، لكنها تظلـــل الوجه القمحي بهالة من فتنة .

لم أجد ظلا لبؤس ولا اثرا للجريمة . بدأت اهتم بحديثها . فكلمة الضحية كانت سبيلها الى ان تجتذب اهتمامي . ولعل نظرة الحياد التي تجلت على وجهي منذ قابلتها اختفت لتحل محلها نظرة اهتمام بهذا الحدث الذي سعى الي يطرق مكتبي على غير موعد ، وبيد من كانت الضحية .

— أنا طالبة فى الجامعة . . .

وبدأت الكلمات الفرنسية تأخذ طريقها الى المعجم الذي تتحدث به .

— أعذرني اذا تحدثت بالفرنسية ، فهناك أفكار ومواقف تخونني الكلمة العربية فيها . . . هكذا علمونا ....

— لا بأس تكلمي بأية لغة تشائين .

قلتها لأجنبها الحرج والشعور بالنقص — فيما بدا لي — فأنا لا أحب أن نجتمع على كلمة غير سواء . أشعر بحاجز يفصلني عن مخاطبي كلما استعمل لغة أجنبية عنا معا ، ولكني اضعف امام شاب أو شابة تسبقها لغة أجنبية الى لسانها وهى تعتذر : هكذا علمونا ...

حاولت مع ذلك أن لا تستعمل الكلمة الفرنسية الا عندما تعجزها الكلمة العربية وانطلقت :

— فى الجامعة اكمل ثقافتي . مسؤولية الحياة لا ترحم . والمرأة اليوم كالرجل تشعر بالمسؤولية وتقدرها . قد يكون ذلك على غير ارادة منها ، ولكنها الحياة تدفع بها لتتحمل مسؤوليتها . ولن تستطيع ذلك بغير تعليم جامعي ...

وبدأت مرة أخرى أضيق بهذا الدرس الاجتماعي ، فلعلني فى غير حاجة لأن اتلقاه من سيدة طرقت باب مكتبي لتقص قصتها .

— أنا اذن فى غير حاجة ... اعمل وأدرس فى نفس الوقت وسيمكنني بعد

حين ان اعيش كما يعيش الذين يحملون شهادة جامعية فى استقلال كامل عن أي كان يرغب فى اعالتي او يستغل حريتي لأنني فى حاجة الى ماله .

ما تزال تلقى الدروس الاجتماعية ، ولكن لا حيلة لي فى أن اوجـــه الحديث وجهة أخرى ، فقد قبلت منذ البداية أن أستمع الـــى قصتهـــا ، واستغلت هذا الحق فى ان تتحدث كما تشاء . وكانت كلمة « الضحية » هي التي عقلت لساني عن أن يتدخل ليختصر المقابلة او يوجه الحديث .

ـــ . . . ثم انني أم لطفلين أعمل جاهدة على ان أسعدهما . . .

طالبة . . أم لطفلين . . تتحمل مسؤولية الحياة بشجاعة . . ضحية . . مجموعة خطوط رسمت أمام ناظري لوحة تشكيلية « سوريالية » على وجه ينبض بالشباب والحيوية والجمال ، ربما كانت سن صاحبته لا تتفق مع كل هذه المسؤوليات. أقف أمام كثير من اللوحات لأحاول ان افهمها عقليا، ولكني اعجب بها مهما تكن غير واضحة ، لان الطبيعة نفسها غير واضحة ، وقد لا تكون مفهومة . وبدأ بالفعل الغموض يرتسم على اللوحة الجميلة ، وبدات أجد صعوبة فى ان اكتشف أسرار ما وراء الاصباغ والالوان . وكما يحدث عندما أقف امام لوحة من الفن الجديد يستعصي علي ادراك اسرارها أتهم ذوقي ، ان تواضعت فلم اتهم فهمي ، ومع ذلك أجاري الذين يقفون معجبين فأطيل النظر ، وقد يكونون هم أيضا غير فاهمين ولا متذوقين ولكنهم أمام ظاهرة الحداثة لا يستطيعون أن يعلنوا أنهم لم يتذوقوا ولم يفهموا فيجارون الآخرين . ومع السيدة سليمى لم أكن افهم لشدة الغموض ، ولكن الحياة الآن اشد غموضا من قصتها وذلك نوع من الاغراء دفع بي الى الصبر وطول الاناة وأنا استمع :

ـــ . . كنت متزوجة من قبل . . لم نكن على اتفاق . . انجبنا طفلـــين . . افترقنا بهدوء . . أخذ كل منا طريقه . . تلك قصة اخرى غير مهمة . .

وكنت أحسب أنها بدأت قصتها وان لغز الضحية اتضح ، فهي سيدة شابة تزوجت زواجا فاشلا اثمر طفلين . . تلك قصة حقيقية . . مأساة لا تكاد تخلو منها كثير من البيوت . ولكنها غير مهمة فى نظرها ، لانها قصة عادية . .

وكان على ان انتظر قصة أخرى انا الذي تزعجني قصص هذا الزواج المثمر غير الناجح . وأنا الذي تنتظرني على المكتب كثير من المشاكل كل منها قصة تتطلب الحل . وما يزال هذا المكتب يحتمل ، فأمامه سيدة شجاعة فى تحمل المسؤوليات تحكي قصتها :

— أعيش لهذين الطفلين ، واستطيع ان اعولهما بعملي وبما ترك لي والدي ، الى ان يستقر وضعي بعد الحصول على شهادتى الجامعية .

قدرت شجاعتها . ولم يبد على محياي أنني مندهش لشجاعتها . فما أزال اقف محايدا رغم هذه البراعة التي اظهرتها فى حكاية قصة كان — فيما ألفت من قصص الآخرين — يمكن ان تحكى فى لحظات .

— . . انا لا أخشى الحياة . أنت تعرف الشابة الجامعية التي مر تبمراحل الدراسة ولم تتوقف عن المدرسة رغم ما يحيط بها من اغراء . شابة و . . . جميلة ، ولا أكتمك انـي ذكيـة . . .

وابتسمت ابتسامة بريئة فلعله قد بدا لها أنها بالغت فى اطراء نفسها حيث لم يطلب منها احد ذلك ، حتى ولا ظروف المنافسة أو الافتخار واستدركت :

— لا اقول هذا! لأفاخر ، ولكن لأؤكد لك ان مثل هذه الشروط تغري الرجل بالمراة ، وتغري الزوجة بأن تلتهي بنفسها اعتمادا على رصيدها ، ولكني احببت ان اتعلم . فعصرنا عصر المساواة ، والمراة التي لا تجد فى عضدها ثقافتها لن يحترمها زوجها لان شباب اليوم — أنت تعرف ذلك — لم تعد المراة عندهم لعبة أو دمية ، مهما تكن جميلة ، يقضون معها أوقات فراغهم و . . .

ترددت قليلا وخفضت عينيها لحظة وهي تضيف :

— . . . ومتعتهـم .

ولعلها كانت تنتظر مني تعليقا ، أو على الاقل شهادة ، لله ، بما أطرت به نفسها من جمال وذكاء . ولكني ظللت محايدا رغم ان ما كان بي من ضيق قد زايلني . فقد أخذت أتتبع حديثها بشيء من الفضول ، ولو ان عنصـــر القصة اختفى منه أو كاد . فقد اصبح حديثها يكتسي طابع الجدال والمناقشة.

ــــ . . . المراة اليوم كالرجل تحرز استقلالها الفكري والانساني والمادي ثم يمكنها ان تتزوج لتتعايش مع الرجل تعايشا سلميا .

قالتها بالفرنسية فكلمتا التعايش السلمي فيما يظهر لا تلفظان بغيـــر الفرنسية .

ووجدتني اضطر الى الخروج عن حيادي السلبي . واذا كان لابد من حياد فليكن على الاقل ايجابيا . قلت فى شبه اعتراض :

ــــ لعل ما بين الرجل والمرأة ـــ اقصد الزوج والزوجة ـــ أكثر مـــــن التعايش السلمي . هناك الجانب العاطفي واكثر من العاطفي ، فالله خلق لنا من انفسنا أزواجا لنسكن اليها وجعل بيننا مودة ورحمة . .

فتحت عينيها على أبعادهما ، وكأنها لم تسمع بالفكرة قط . كانت تترجم العلاقة بينهما بالتعايش السلمي . ولها من التجارب ما أعطاها مثالا عـــن فقدان السلمية ثم فقدان التعايش . وكان الجدل من طبيعتها فاعترضت :

ــــ . . . كل يتحدث عن تجاربه . والتجربة هي منطلقي الفكري ، ولعلي لم أجرب كلمة السكن هذه : أسكن اليه أو يسكن الي ؟

وأتت حركة تضافرت كل ملامحها : عيناها ، حاجباها ، فمها ، كتفاها لتجيب بالنفـــــي

وتحركت فيها غريزة الدفاع :

ــــ لا تظن أني مادية ، ولكني واقعية . لم يسكن الي ، ولم أسكن اليه . وانما كنا فى وضعية تعايش سلمي . فلما انتهى ما بيننا من تعايش انتهى أيضا

سلميا . وبذلك حققت معنى الاستقلال الذي كنت انشده ، كما كنت أحققه ونحن متعايشـــان .

كان منطقها سليما اكثر منه جريئا . ولكن سلامة المنطق ، الذي كان صوريا اكثر منه واقعيا لم تمنعنى عن أن اضرب على وتر حسبت له نغمة ذات وقع فى نفسها يمكن أن تغير معه رايها ، وانا ممن يؤمنون ان المراة تستطيع أن تغير رايها فى لحظة ، قلت :

— ولكن التعايش السلمي كان مثمرا . . .

انطلقت بذكاء لتجيب على الفور :

— طفلان . . ؟ اليس كذلك ؟ يعيشان معي فى سعادة ، لا أتركهما يشعران بأن التعايش السلمي انتهى أجله . . . يتعلمان فى المدرسة ، ويجدان مـــن رعايتي ما لم يكونا يجدان من رعايته . . .

وسكتت قليلا وهي متحفزة بحركاتها ، وعيناها تائهتان فى الشعاع الذي ينبعث من لون الزربية الحمراء ، وأردفت وكأنما تتحدث بحركـــات كتفيهـــا وعضلات وجهها :

— لم أكن أومن بأن حنان المراة هو الحنان ، لاني كنت انفر من الأنانية ، ولكن التجربة علمتني ان الرجل . . .

ساد صمت كأنما شيء أوقف كلماتها المنفجرة . وحملقت فى وجهـــي لتستشف ما قد يكون ارتسم على محياي من غضب . ولكني ، فيما بدا لي ، لم أكترث ، فبنفس التسامح والحياد الذي قابلتها به لأول مرة كانت ملامحي ما تزال تعبر . واحببت ان أقطع حبل الصمت ، ولكني فى الواقع كنت اهدف الى تشجيعها على ان تعبر . فما أحب ان يتردد رأي أو يحجم فكر عن ان يعبر عن نفسه لاعتبارات غير فكرية .

قلت وكأني اكمل جملتها :

— . . . هو الأنانـــي ؟

— بكل صراحة : نعم . بكل بساطة ترك طفليه لحناني .
قلت معاكسا :

— لأن المرأة مستبدة . سلبته موضع الحنان لترضي أنانيتها فى طفليها من حيث تحسب أنها تمتاز عنه بالتضحية .

كان يشق عليها أن تجادل بالمنطق . نظرتها الى الحياة واقعية ، ولا تكتم ذلك . شجعتها هذه المناقشة على ان تطرد عنها كل تردد ، شعـــرت بالاطمئنان وهي تتحدث كما لو كنا نتعارف منذ زمن طويل . أجابت وهـــي تحاول أن تثري حجتها :

— افرض — يا أستاذ — أننى كنت من سيدات العصر الماضي ، أكـــان يمكنني أن أرعى ابني ؟ أكان يمكنه أن يتخلى عنهما بعد ان انتهى عهــد التعايش . . .

أضافت وهي تؤكد على كلماتها :

— . . . الذي ما احسب انه سيكون سلميا . . . ؟

وكان علي أن أوضح حقيقة ، فقد أصبح ما بيننا جدلا عن حقائق حتى انها كانت تشعر — فيما بدا منها — بأنها تقوم بتمرين فى المحاماة ، ولو انها لم تنه بعد دراستها القانونية .

— الأنانية ليست مميزات جنس . وأنت تعرفين ياسيدتي ان كثيرا مـــن الرجال أنانيون وان كثيرا من النساء . . .

لم تحتمل . بادرت بالمقاطعة :

— لست على رايك . . .

كأنها وجدت الفرصة لتؤكد رأيها فأضافت على الفور :

ـــ . . . وقصتي ستعطيك الدليل . . . القاطـــــع . .

ـــ قصتهـــــا . . ؟

تساءلت مع نفسي . فقد خيل الي اني استمعت الى قصتها ، وناقشت معها معطياتها ولم يبق الا أن تقول بلغتها المختلطة : « أورفوار » . . . ولكنها ـــ فيما يبدو ـــ لم تكن قد بدأت بعد الحديث عن قصتها التي دفعت بها الى مكتبي على غير سابق معرفة ، وعلى غير موعد . خيل الي ، وانا انظر الى كثرة الاوراق والرسائل وانزعج لرنين الهاتف من حين لآخر فيقطع حبـــل تفكيري وينتزعني من حديثي معها الى حين ، أني سأقضي صباحـــي ذاك استمع الى قصصها ، فهي راوية قصص وتجارب حياتية لا تخلو من اهمية. وهي مجادلة تحسب نفسها قوية الحجة .

ـــ اليس من انانية الرجل ان فى حياتي قصصا تروى ، وانا بعد فى مقتبل العمـــر . لســـت جـــدة ولا عجوزا تطفح راسها بما جربت وما سمعـــت وما رأت . . . لو لم يكن انانيا لما كنت أحس بأن فى حياتي قصة تروى ؟

قلت محاولا ان أجردها من حماس بدأ يأخذ طريقه الى لهجتهـــــا فى الحديـــــث :

ـــ تجاربنا تبدأ منذ أن نفتح عيوننا على نور الحياة . تبدأ قصة الانسان وهو يحاول جاهدا ان ينطلق من سجنه ـــ كجنين ـــ الى الافق الاوســـع . واعترف ان الانسان يكتسب الموهبة القصصية حينما يعرف كيف يختـــزن ويحكـــــي ... ألا تمارسين كتابة القصـــة ؟

اجابت وقد ارتسمت على محياها مسحة اعجاب :

ـــ لا يا أستاذ . لقد اخترت كلية الحقوق لاني لا أحب أن اكون مدرسة ولا اديبـــــــة . . .

— اخترت اذن أن تكوني قاضية أو محامية .

فوجئت وعيناها تطفحان بالغضب . امتقع لون وجهها ، اختفت سمرتها الممزوجة بشقرة. كادت تصرخ، لكنها استطاعتان تمسك بأعصابها امام الحيرة التي انتابتني . قالت :

— لا تذكر القضاء والقضاة يا أستاذ . . .

حاولت ان اهدىء من روعها وانا اغير مجرى الحديث . عدت الى قصة التعايش السلمي . قلت :

— لقد كان تعايشا سلميا انتهى بانتهاء قصتكما . انت الآن سعيدة فيما يبدو ، فلا تذكري الماضي . . .

بدا من ملامحها اني لم افهمها بعد . ولعلها اقتنعت باني استمع اليها بنصف اذن ، أو افكر فى مشكلتها بنصف فكر . اعتدلت فى جلستها ، واجهتني وهي تفتح عينيها على ابعادهما فى وجهي كانما حسبت انهما صلة التفاهم مع هذا الذي يقف من مشاكلها موقف المحايد .. ودت — فيما خيل الي — ان تقول لي : افهمني يا اخي . . . لم أبدأ بعد قصتي :

قالت :

— كنت سعيدة حقا . . . اعيش فى الجنة . . . الرجل — بكل صراحة — تجربة انتهت من حياتي . . . كان تعايشا سلميا وفراقا سلميا . اجتزت فيه التجربة بسلام . . . ونجحت . عرفت ما هنالك ، وانتهت المرحلة لأعود الى الحرية : الى الجنة التي نخرج منها عادة بالزغاريد والصلاة على النبى . . .

بدت لها لمحة من الاستغراب على وجهى فأضافت :

— . . . لا تستغرب ان ينتهي الرجل من حياة شابة جميلة ومقبلة على الحياة ... ولكن التجربة اقنعتني بأن أشياء كثيرة يمكن أن يتخلى عنها الانسان

بشيء من الشجاعة . كثير من الناس يدخنون ، ولكنهم ينفضون أيديهم من الدخائن بسهولة ، وكثير من الناس يشربون حتى لتمتزج دماؤهم بالكحول ولكنهم يهجرون الكأس .. والى الابد .. الرجل دخينة قد تتمكن من المراة .. كأس خمر ، قد تخرجها من انطوائها ، من بؤسها ، من تفكيرها فى الجنس الآخر. ولكن الدخينة تحترق بين أصابعك وتذرو الرياح دخانها فى الفضاء. . . والكأس تغدو كأسا يمج شرابها حتى المدمن نفسه ــ يستغني الكثيرون عن الدخينة والكأس ولا شيء يتغير فى الحياة . . . ولا اكتمك اني شجاعة ذات عزيمـــة قوية ... استغنى بسهولة عن الدخينة ، عن الكأس . واعيش مع ذلـــك سيدة . . . لا تظن بي نقصا فى الانوثة ، ولكني قادرة على أن أعوض بالفكر، بالكتاب ، بحب طفلين جميلين، بحب الحياة التي افتح لها صدري بكل سعته، بحب الطبيعة . الرجل ليس كل شيء بالنسبة للمراة ... وقد استطعت أن اتخلص منه ، ويمكن ان تتخلص منه الكثيرات ، لو تخلصن من تحكم العادة، من تقاليد المجتمع الذي تبدأ فيه العائلة تعد البنت الصغيرة لتكون لعبة فى يد الرجل ، وتملأ أحلامها الصغيرة بالفارس الذي سيمتلك روحها وجسدها مـــعـــا . . .

خيل الي اني أمام ثائرة لا يوحى مظهرها واناقتها بالثورة ، ليســت ثائرة شارعية تقود المظاهرة او تخطب فى اجتماع الطلبة ، ولكنها ثائرة فكريا تتحدث بالافكار الثورية وتطبقها فى الحياة وبدات انسى الأوراق ومقاطعة الهاتف والعمل الذي يتطلع الي فى شوق . استمع اليها باهتمام ، ولكن طبيعة التحدي دفعتني الى القول :

ـــ تعاندين الطبيعة بحماسك فى وقت انفعال . نحن اثنان . لم نكن قط واحدا . آدم لن يكون لو لم تكن معه حواء ...

ـــ قبل ملايين السنين كان ذلك . . . الا تؤمن بالتغيير . . ؟

ـــ بلى . . . ولكن طبيعة الانسان . . .

قاطعت دون أن تعير اهتماما الى أنها تستعمل بعض العنف :

ـــ وحتى طبيعة الانسان . وماذا يفعل التهذيب والاخلاق والتجربة

وقوة الارادة . نحن ضحايا الاستمرارية . ولو وقفت حواء ، اية حواء ، فى اي عصر كان لتثبت وجودها لأمكنها الاستغناء عن المسيرة مع رفيق طريق .

قلت متحديا :

— ولو وقف آدم . . . أي آدم . . .

قاطعت وكأنها تكمل جملتي :

— لاختصر المسيرة مع رفيقة طريق قبل ان يختار الطريق والرفيقة .

ساد بيننا صمت عميق لم يقطعه غير هدير السيارات فى الشارع يهز احيانا زجاج النافذة . ولكنها كانت مستغرقة فى تفكير . يخيل الى اني كنت أنا الآخر مستغرقا فى مثل ما تفكر فيه . ولكن فكري اتجه بسرعة الى هذه القصة التي لا أدري أتخففت من عبئها أم ما تزال تختزنها .

رفعت اليها عينين مستفهمتين . ولعلها احست بأني اتجه اليها بأذني اكثر مما اتجه بعيني فاستجابت :

— الحياة ما تزال تقنعني بصدق نظريتي . . .

— هي فلسفة . . .

واكتست لهجتي طابع السخرية وانا اضيف :

— ربما كانت فلسفة عدمية . . .

ثم ازدادت لهجتي سخرية وانا اقول بشيء من الحماس بعد أن صوبت عينين نافذتين الى وجهها :

— . . قولي لي . . الست عضوة فى الجمعية العالمية للتخطيـــــط العائلـــــي ؟

ادركت بذكائها مدى السخرية . ولكنها لم تحاول ان تدافع ، بل أجابت بسخرية مماثلـــة :

— . . . بل عضوة فى الجمعية الفلسفية لتصحيح اوضاع الحياة . . .

وابتسمت كمحاولة لاطراء بديهتها الحاضرة . وابتسمت هي الاخرى اعجابا بقدرتها على الرد والمواجهة . ثم قالت :

— ستقتنع اذا انا قصصت عليك قصتي . .

قلت فى مفاجأة :

— أوما تزال هناك قصة غير ما سمعت ؟

ظهر على وجهها الاسى المزوج بالغضب . شيء ما يتحرك فى داخلها. تعيش قصتها — فيما يظهر — فى كل لحظة . منذ الممارسة كانت ، ربما ، بطلتها ، أو احد أبطالها . مارست المأساة ، ولكنها ما تزال تعيش فى أعماق المأساة . كلما وقفت موقف الراوي اصبحت تعاني مخاض الميلاد . ميـــلاد جديد ملامح وجهها وعيناها تنبئان بذلك . بدا لي انها ستمارس التجربة مرة اخرى لمجرد انها تروي ما مضى . لا أكتم اني أشفقت عليها . وكان بودي أن اعفيها من أن تروي ما حدث لو كنت أنا الذي سعيت اليها لتقص علي قصتها، ولكني لا أملك ان اعفيها مما قصدت اليه . كان من الممكن منذ البدايـــة ان اتخلص من تبعات سماع القصة لو اعتذرت لها بأني على موعد . ولكنـــي اصبحت أحس بأني مدين لها ان أستمع الى بقية الحديث . قصدتني ، وفى ذهنها عني مجموعة أفكار :

— طبيب لوضعية نفسية تعانيها ؟

جـــائـــز

ـــ صحفي فى امكاني أن أذيع ما يتآمر المجتمع على كتمانه ؟

جـائـــز

ـــ مساعد للخروج من مأزق وضعتها فيه ظروف صعبة ؟

جـائـــز

اكتسى موقفي طابع الاشفاق ، ولو انها فيما بدا من طبيعتها لا تقبل أن تكون موضع اشفـــاق .

قلت وأنا أحاول أن أزيح عنها كابوس الاسى والغضب ، احاول ان اساعدها على اجتياز مرحلة المخاض دون ان تحس بأني أقصد ذلك :

ـــ لا تبتئسي . الحياة كلها قصة . اذا سمعت منك اليوم فصلا منها يمس حياتك فقد احكي لآخرين فصلا يمس حياتي .

احسست بأن كلماتي شجعتها ، ربما أزاحت ما تبقى من حجب بينها وبين رجل غريب تحاول أن تأتمنه على سر ، ولكنها مع ذلك ترددت قليلا وكأنها تبحث عن البداية ، عن الكلمات ، عن الصياغة . عيناها تترددان بين النافذة والزربية ، ثم تتلفتان فى عصبية الى يديها ، أصابعها ، أظافرهـــا الوردية المصبوغة فى حذق . . .

رن جرس الهاتف فانصرفت اليه لحظات شاكرا له ان انقذني من تتبع لحظة الحيرة والاضطراب . عدت اليها ، أو عادت اليها أذناي ، فعادت الى بعينيها وكأنها جاءت من بعيد :

ـــ اين وصلنا . . ؟ كنا فى الجنة ؟ اليس كذلك ؟

ولم أبد حراكا . لم أتساءل ولم أعترض فقد عادت الى طبيعة المحايد، فهو عالمها تصفه كما تشاء . وأضافت :

— واخرجني منها على حين غرة .

رغم اني كنت محايدا كنت حريصا على أن افهم ، فقلت :

— بعد ان انتهى التعايش السلمي ؟

قالــت :

— صبرك ، فلعلي مضطربة لا ابين ، ولي العذر فى أن اكــون مضطربة ، ولكنك ستفهم عني .

— قريب مني بعيد عني ، عائليا ، يعرفني من بعيد واسمع عنه من بعيد . فوجئت وهو يتقرب الي ، الى العائلة فيزورنا من حين لآخر . وانــا لا ارى فيه الا الجانب البعيد ، ولكنه — فيما يبدو — لم يكن يستغــل الا الجانب القريب . كاشف مرة أخي بنيته .

عادت الى صمتها كأنها تترك لي المجال لكي أدرك الهدف . ولم يكن يخفي علي ان سيدة فى مثل مركزها الاجتماعي والعائلي والثقافي ستجد من يتقرب الى العائلة ليكشف أخيرا نيته الى الشخص الكبير فى العائلة .

ثم خرجت من صمتها :

— كدت أجــن . فأنا فى جنة دخلتها عن عمــد وسبــق اصــرار ، مستريحة اليها . دخلتها بعد تجربة لم تكن كلها نارا ، ولكنها مع ذلك اقنعتني بأن الجنة هي مأواي الحقيقي ... معي فيها ملكان . أرى فيهما كل سعادتي، ويريان فى كل شيء فى حياتهما . لم يكن الخروج منها موضوع تفكير حتى أخذ يطرق بابي الهادئة .

قلت محاولا ان اختصر :

— فكانت الاستجابة ...

نظرت الي نظرة عتاب ، واكتفت بالنظرة العاتبة عن الكلام وهــي تضيف :

— عبرت عن رفضي التام بكل وسائل التعبير . فكنت فى نظرهم عاصية شاذة ... وبدأ الهجوم على الضحية من كل جانب .

تعاطفت نظريا مع الهاجمين فقلت فى تلقائية :

— طبعا كلهم يحبون ان تخرجي من عزلتك . . .

— يريدونني ان اخرج من جنتي . . .

— حواء لم تجد صعوبة فى الاقتناع بالخروج منها .

— كانت ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . خرجت تبحث عن التجربة التي لم تعرفها من قبل . وكان الشيطان مخرجها ... أليس كذلك ..؟

— أما انت ؟

— عدت الى الجنة بعد أن اجتزت مرحلة التجربة . ولكن ..

صعدت آهة مريرة وهي تستدرك :

— يظهر اننا فى شديد الحاجة الى المزيد من التجارب . . .

وعاد الصمت يطبع ما بيننا من مسافة قصيرة ، وكأنها تستعيد واقعا او فكرة . واهتدت أخيرا فتحركت فى عصبية واتجهت نحوي بكليتها وكأنها تجادل :

— ما نزال نحن الضحايا ، أقصد المرأة . الرجل دائما يتخذها لعبة ، لا يفكر فيها الا تحت ضغط العبث واللعب كما تفكر الطفلات فى العرائس .

قلت فى غير حدة :

— بعض الرجال . . .

بعد تـــردد أضفت :

ـــ . . . مع بعض النسـاء . . .

ـــ يظهر انك مثلي قليل التجربة . لا تعرف الناس على حقيقتهم. لانكم بحكم المهنة تلتقطون المظاهر والاشكال ، لا تقتحمون النفوس ولا تعـــرون الاشخاص من ملابسـهم الرسمية ، ولا تحكمون على الاحداث الا من خلال ما تسـمعون .

ـــ حلمك يا سيدتي . المهنة لا تطبع أصحابها بطابع واحـــد ، لا تظلمينـــــا . . .

احببت أن أختصر ، اعود بها الى حديث حواء التي خرجت راغبة من الجنة . قلت وكأني أعود بها الى موضوع تحاول أن تهرب منه :

ـــ كانت ـــ غفر الله لها ـــ سـاذجة قليلة التجربة ، فلم اقتديت بها وانــــت . . .

توقفت الكلمات فى فمي ، وانقذت الموقف بكلمة :

ـــ . . . وأنا بنتها : سـاذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . . . ؟

ونظرت فى وجهي بعينين مفتوحتين على ابعادهما ، وهي تضيف :

ـــ . . . لا تستغرب . لو لم أكن سـاذجة لما تغلب الذين هاجموني من كل جانـــب .

ـــ لابد ان حججهم كانت قوية . . . ؟

وضحكت فى سخرية :

ـــ أنت تعرف حجج الشيوخ ، ولو كانوا شبابا . . .

اكتسى صوتها لهجة التمثيل . كان يتغير فى كل فترة وكأنها تمثل حوارا اشترك فيه رجال ونساء من كل عمر :

— لا يجوز ان تبقى فريدة . . . الشباب غير دائم . . . الرجل فى البيت خباء يستر العائلة ويحميها . . . ماذا يقول الناس عنك وانت بنت العائلة والمجد ؟ ... جمالك وشبابك يغريان بك المتقولين ... مقامه كرئيس يعطيك اسما جديدا . . . سيغرقك فى النعيم . . . لا قيمة للمال عنده . . فكري فى المستقبل . . الحاضر سيصبح ماضيا . . اقبلي .. لا تكوني عاصية . .

صمتت قليلا ، ثم عاد صوتها الى طبيعته واستأسدت وهي تكاد تصرخ فى وجهي كأني انا الذي كنت أحاور :

— اعلنت لهم بصراحة انه يكبرني سنا . ربما كنت فى سن ابنته ولا اريد أن اربط حياتي بنصف حياة . . .

ترددت قليلا وهي تضيف :

— انا بصراحة صغيرة السن ، على قدر من الجمال ، لا اطري نفسي ولكنه الواقع .

سكتت قليلا وكأنها تستعيد فصول مأساة ، ثم ارتعش صوتها وهي تضيف :

— صرخت فى وجوههم : انه متزوج وله أولاد . . . وانا لا احب ان اكون احدى بناته . . .

طفرت دمعتان حارتان من عينيها رغم الشجاعة التي تحلت بها منذ طرقت باب المكتب ، واضافت :

— . . . وكان هناك قلب متحجر ، رغم ما يكن لي من حب ، فواجهني : وانت ايضا كنت متزوجة ، ولك طفلان . . .

شعرت بنوع من الندم فاستردت شجاعتها ، تبخر الدمع من عينيهـــا تاركا سحابة حمراء تختلط بالخضرة الزرقة ، وقالت وكأنها تدفع الهزيمة عن نفسهـــــا :

— ومع ذلك رفضت . . .

تنفست الصعداء فقد احسست بأن نهاية القصة كانت سعيـــدة وان السيدة سليمى ستريح أعصابي من توتر لم أتوقعه وهي تدخل مكتبي علـــى غير مـــوعـــد .

وعاد ما بيننا من مسافة يغرق فى صمت هادىء ، حتى رفعت وجهها متحدية مرة اخـــرى :

— لم يكن لينهزم ، فقد اعتاد ان يصدر الأحكام ، ولم يصدر ضده حكم . كان رفضى بمثابة حكم اعتبره قاسيا .

اتجهت الى مخاطبة :

— انت لا تعرفه . . ؟

لم تنتظر ان أجيب ، ولكنها اضافت :

— . . عنود . . أناني . . ملحاح . .

عدت الى حيادي المطلق . وهي تستأنف حديثها السابق .

— كان ، طبعا ككل الرجال (رمقتني بنظرة اعتذار) .. قادرا على أن يغرق كل حججي بحيثيات الاقناع التي يتقنها .

اخذ صوتها مرة أخرة يكتسي طابع التمثيل ، وتتغير لهجتها عند كـــل فقـــرة :

— الرجل لا يكبر ... حياته مع الأخرى ستبقى شكلية .. أولاده كبروا وسيشقون طريقهم فى الحياة . . . لن تكون لك صلة بهذا الماضي..

عاد الصمت يطبق على المكتب . عادت عيناها تبحثان عن شيء بين الخيوط الحمراء فى الزربية التي لمعت حمرتها فى الغرفة ، والشمس تجلل جانبا منها بضيائها الباهر . اكتسى المكتب طابع مسرح تفنن المخرج فى توزيع الاضواء على خشبته ، فى اعداد الجو النفسي عن طريق الاضواء الملتهبة ليساعد الممثلة الوحيدة على التلبس بدورها .

عادت من جولتها الفكرية الطويلة وكأنني كنت اقدر أبعادها ، واكتسى صوتها طابع الأسى الحزين ، انخفض حتى لكأنني كنت أجد صعوبة فى تبين مقولتـه :

— وأخيرا قبلت . . . تزوجته . . .

انزاح عن كتفي عبء ثقيل . فقد كنت كطفل يريد ان يعرف نتيجة قصة سينمائية تقوم على صراع حاد بين البطل والبطلة . البطل دائما ينتصر ، ولكن الاطفال عادة يريدون ان يعرفوا السبيل الى انتصاره . وقد كان البطل هنا حرنا قويا عنيفا ملحاحا كما أدركت البطلة ، وكانت هي عنيدة معتزة بجمالها وشخصيتها . ولكنها طبيعة القصص السينمائية التي تؤلف لتعبر عن رغبة المشاهدين لا لتصور حقيقة أو واقعا أو ما كان يجب ان يكون حقيقـة .

وانتظرت ان تقول :

— هذه قصتي فافعل بها ما تريد .. أورفوار . .

وضعت سليمى يدها على حقيبتها الانيقة ، كانت تضعها على جانب من المكتب ، وبدأت أتحرك فى جلستي وأستعد لامد يدي مودعا . فقد كنت مخلصا لطبيعة الحياد التي سادت علاقتي بالقصة منذ البداية . كان علي أن أقول لهـا :

— مبروك . . . حياة سعيدة . . .

ولكني لا ادري كيف أحجمت حتى عن هذه التهنئة العادية . لم تنهض كما كنت اتوقع ، ولكنها فتحت حقيبتها ولعبت الاصابع الطويلة الرشيقة فى عب الحقيبة ، وكأنها تبحث عن شيء غير ضائع . علبة دخائن امتدت بها يمناها الى يسراها ، وانجرت سلسلة خرجت من بينها ولاعة ذهبيـــة . انشغلت سليمى عني كأنها وحدها فى المكتب ، وأخرجت دخينة وضعتها على الجانب الايمن من شفتيها ، وبحركة تلقائية انقدحت الولاعة وهي تقترب من الدخينة فتنير وجهها بلهب ارجواني . شدت بعمق نفسا قويا ، انفتحـــت شفتاها عن غمامة هفهافة من دخان ناعم لم تنفثه شفتاها الى بعيد ، وانما جلل وجهها بضبابية ، كما لو كانت سحابة خفيفة تحاول ان تستر ضيـــاء القمر فى لألائه . ضبابية لم تغلف ملامح الوجه الجميل فربما زادته اشراقا ، ولكنها ضببت ما تفكر فيه ، ما تريد ان تقول ، ضببت كلماتها الاخيرة :

— واخيرا قبلت . . تزوجته . .

وكأنما تريد أن تضيف

— عدت الى الدخينة ...

كانت عيناها متجهتين الى النافذة ، وكأنهما لا تريان . عادت فسحبت نفسا عميقا من دخينتها ، نفثته هذه المرة فى عنف وعصبية . اتجهت نحوي — فى ابتسامة مصطنعة — وكأنها تذكرت شيئا مهما نسيته :

— استأذن . . . الا يضايقك ان أدخن . . . ؟

لم تكن تنتظر مني جوابا . ولم أكن أدري كيف اجيب ، ولذلك ابتسمت فى عفوية وأنا أفكر فى ان الجلسة ما تزال طويلة ، وكان علي أن اقول شيئا:

— لا ادخن ، ولذلك تجدينني بخيلا بتقديم الدخائن .

ابتسمت وأصابعها تدلفان الى شفتيها بالدخينة .

عادت فجأة لتقول :

— كان حريصا على أن يتم كل شيء فى اسرع وقت . . . كتبنا العقد، وكان مبلغ المهر سخيا فى الورقة الرسمية ، واصبحنا زوجين منذ ساعة اتخاذ القرار . أختصر ، فقد انتقلنا الى مدينة صغيرة جميلة لقضاء أيام العسل . اغدق على كثيرا من الهدايا . كان مثال النبل ولطف المعاشرة . لم ار منه غير الوجه البشوش . أخذت أحس بالسعادة . انزاح عني كابوس الوحدة . عادت الي كل معنوياتي فى أني امراة . اكتشفت انوثتي من جديد . . . سمعت كلمات الحب والغزل . . . احسست اني كنت فى حاجة الى أن اسمعها. المرآة وحدها لم تكن كافية ، كنت أخشى الا تكون صادقة . . . اختفت كل مخاوفي : كبير السن ، متزوج ، له أولاد . . . عاد أمامي طفلا مدللا يتلذذ بالاستعطاف والتحبب وهو يحقق رغباته . اختصر : لا استطيع ان أصف لك السعادة التي عشت فيها كزوجة لزوج ما كنت لاتمنى غيره ...

قلت وكأني اكتشفت تناقضا غريبا فى هذا النموذج الذي اقتحم على وحدتي مع العمل :

— سعادة غيرت نظرتك الى الجنة . . . ؟

ونظرت الي كما تنظر الى شخص لم يفهمك :

— لكنها اقنعتني بأني كنت فى الجنة .

لم افهم . ولكني الفت اسلوبها فى الحديث فما تزال للقصة بقية :

— تستعجل اذن النهاية : أسبوعان من شهر العسل ، خيل الي انهما سنتان ، كنت أعب فيهما من متع الحياة ...

وساد الصمت من جديد . وعادت دخينة جديدة تقتعد شفتيها ، وعادت الشعلة الارجوانية تنشر ظلالها على الوجه الذي جللته مسحة من الاسى ، من الالم . وشدت نفسها العميق لتنفثه هذه المرة فى عمق .

قالت ونفثات الدخان تخالط كلماتها :

— وكان صباح ، لم يختلف عن كل الاصباح التي عرفتها حياتنا طوال أسبوعين .

ارتدى ثيابه وأنا فى شغل بزينتي . اقترب مني من وراء وهو ينظر فى المرآة بلهف . وضع على كتفي يدين قويتين . انحنى . . .

توقفت قليلا وهي تعتذر :

— اعذرني اذا قصصت عليك هذه التفاصيل . ربما كانت تافهة ، ولكنها ذات دلالة . . .

ثم استأنفت :

— قبلني فى عنقي وهو يتشمم رائحة عطر كان قد أهداه الي . . . قال فى صوت خافت :

— أظن انك ستأذنين . . ؟

رفعت اليه راسي ، وكأنني اطلب المزيد . . . ابتسمت فى وجهه . قلت فى تلقائية :

— وهل أنت فى حاجة الى ان تستأذن ؟

اجاب بابتسامة عذبة :

— هذه المرة انا فى حاجة الى ان استأذن . . .

نظرت اليه من خلال المرآة مستفهمة ، فاستمر كأنه يجيب :

— سأتغيب عنك يوما أو يومين . لي شغل سيصرفني عنك بالرغم عني .

قمت من مكاني مبتسمة . واجهته فى عطف ، وضعت كفي على كتفيه ، قلت فى صوت هامس :

— ذلك واجبك . . . وواجبي أنا أيضا . فلا احب ان يحرم عملك منك. ارتسمت مسحة من السعادة على وجهه ، وهو يقول :

— لا أعرف كيف اشكرك . ولكني أخشى أن تشعري بالوحدة ...

— سأعود الى منزل العائلة فى انتظارك .

وضحكت من أعماق قلبي وأنا أضيف :

— . . . كأنهم نسوني . . . لم يسألوا عني قط منذ تزوجنا . .

— لم يسألون وهم على يقين بأنك فى سعادة . . . ؟

أضاف وكأنه تذكر شيئا :

— سأسافر وانا مطمئن حينما أعرف أنك مع العائلة ، مع الطفلين .

كان صوتها وهي تروي هذا الجزء من القصة يطفح بالانوثة والرقة . كان كصوت ممثلة تعيش دورها بكل عواطفها وانفعالاتها . حتى صوت البطل وهي تروي عنه كان هادئا ناعما يكاد يتخلص من رجولته . وفجأة تهدج صوتها وهي تضيف :

— وافترقنا . . .

قالتها وانحبس الصوت فى نعومته وتهدجه . وعاد الصمت ليخيم على جو المكتب ، وتسمرت عيناي على وجهها فى فضول ، وانا أحاول ان أكتشف ما وراء الملامح التي تجمدت . بدا عليها انها تغالب شيئا ما فى عينيها كشفت عنه حمرة خفيفة شابت صفاءهما . استمرت كأنما لتروي حدثا عاديا وهي تكتم أنفاس عقب دخينة ما يزال ينبض بحياة بين أصبعيها :

— . . . وصباح الغد فتحت عيني على برقية تخبرني ان ورقـــة طلاقي موجودة عند العدل السيد الحسن .

مدت يدها الى البرقية وهي تضيف :

— كان مكتوبا فى الورقة : طلاق قبل الدخول ..

الربــاط   عبد الكريم غــلاب

الموحدون:
ثورة سياسية ومذهبية

د. عباس الجراري

لكل ثورة ارهاصات تمهد السبيل لظهورها ، ومقدمات تهيء النفوس لتقبل مبادئها وأهدافها . وارهاصات الثورة الموحدية ومقدماتها كامنة فى الانحلال الذي أصاب دولة المرابطين فى عنفوان شبابها ، والذي يبدو من حقائق التاريخ انه يرجع الى الأسباب الآتية :

اولا : ضعف شخصية علي بن يوسف بن تاشفين (1) الذي كان — على الرغم من صلاحه وزهده — عاجزا عن تدبير قيادة الدولة وتسيير شؤونها ، وما نتج عن هذا العجز من فوضى جعلت ولاة القبائل يستبدون بالأقاليم ويستقلون بها ، وما نتج عنه كذلك من انتشار الفساد وظهور المرأة فى ميدان السياسة تلعب بعقول الحكام ، تحوك المؤامرات وتدس المكايد . فقد

« اختلت حال أمير المسلمين وظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء اكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا فى ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين واحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الاحوال واسندت اليهن الأمور وصارت كل امرأة من اكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . وامير المسلمين فى ذلك يزيد تغفله ويقوى ضعفه وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل وأهمل امور الرعية غاية الاهمال » (2) .

ثانيا : الانهاك الذي أصاب الدولة ، وخاصة فى عهد علي بن يوسف ، بسبب الحروب الكثيرة التي واجهها فى فتح بلاد الأندلس وما كانت تلاقيه جيوشه غير ما مرة من هزائم كانت تضطر القواد الى أن يطلبوا من العدو وقف القتال ورفع الحصار . فمنذ سنة ثلاث وخمسمائة ، وهي السنة التي جاز فيها ابن يوسف الى الأندلس للجهاد ، حتى سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهي السنة التي بدأت فيها حرب المرابطين للمهدي ، جهزت الدولة ما ينيف على عشرة جيوش لفتح هذه البلاد ، لا شك انها أرهقت اقتصاد البلاد وانهكت معنوية الشعب والحكام (3) .

وقد زاد الوضع سوءا ما عانت الدولة فى صراعها مع الموحدين حيث انه « فى اثناء هذه الحركة الطويلة الأعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل اللثام وغلت الأسعار بمراكش حتى وصل فيها الربع من الدقيق بمثقال حشمي ذهبي . وتوالى هذا الجدب حتى جفت فى الارض مذانبها واغبرت جوانبها وقلت المجابي بهذه الفتن وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين والح العدو النصراني بالضربات على جميع جهات الاندلس خين علموا عجز الامارة بالمغرب واشتغالها بحرب الثائرين المهيجين للفتن ... واستولى الروم فى هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون » (4) .

ثالثا : عجز فقهاء الدولة فى عهد علي بن يوسف عن تطوير المذهب المالكي الذي كان محور حركة المرابطين الاصلاحية ، حتى يساير الوضعية التي اصبحت عليها دولتهم بعد أن اتسعت رقعتها وتضخم نفوذها ، وبالتالي عجزهم عن توجيه الراي العام فى اطار المذهب ، مما جعلهم يتهيبون كل انفتاح ويتقوقعون فى نطاق طبقة لا تسعى الى غير حماية مكاسبها ومصالحها وما حققت من امتيازات . وترتب عن ذلك ظهور قيود فكرية بدا أن الدولة فرضتها تعصبا للفقه المالكي وشكليات الدين . وقد استغل هذه الظاهرة مؤرخ كالمراكشي موال للموحدين فضخم حقيقتها وزاد فى أبعادها حيث ذهب الى انه لم « يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده الا من علم علم الفروع اعني فروع مذهب مالك فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شيء من علوم الكلام ... ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي (5) رحمه الله المغرب أمر امير المسلمين باحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها » (6) . ومثل هذه القضية تؤكد لاشك سيطرة الفقهاء وخضوع الأمير لما يفتون به من آراء . فهم يرون كتاب الاحياء مخالفا للشريعة والعقيدة ويحكمون باحراقه على الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت بين مؤلفه وأمراء الدولة وخاصة يوسف بن تاشفين (7) الذي كان الغزالي يوالي دولته ويدعو له مقدرا شجاعته وجهاده فى نشر الاسلام وتثبيت دعائمه . ومع ذلك فمن الانصاف أن نسجل ان الذين ثاروا ضد الاحياء هم فقهاء الأندلس، وعلى راسهم ابن حمدين قاضي قرطبة، وان نسجل كذلك ان بعض فقهاء المغرب — كأبي الفضل بن النحوي — كان لهم موقف مخالف حيث انتصروا للغزالي وافتوا بعكس ما أفتى به الأندلسيون.

رابعا : المنافسة التي كانت بين قبيلة صنهاجة المرابطية وقبيلة المصامدة الجبلية على زعامة البلاد واستغلال المهدي لهذه المنافسة ولجوؤه الى القبيلة المصمودية التي آمنت به وناصرته ، يدعو لمذهبه وينشر فكرته فى كثير من الأمن والاطمئنان (8) .

—●—

كان لابد لهذه الأسباب — وما نتج عنها من ضعف وانحلال ظهرت بوادرهما فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والحياة الفكرية والاجتماعية أن تجعل الناس يضيقون بالوضع ويصرفون النظر عن هذه الدولة ويتوقون الى من يخلصهم من براثن طغيانها وفسادها ، وبالتالي ينضمون للمهدي ويصغون لدعوته التي كانت تنتشر بسرعة أقلقت السلطات ، واضطرت الامير ابن يوسف — بعد استدعائه وفشل الفقهاء فى مناظرته (9) — الى ارسال حملة تأديبية فشلت فى القضاء على حركته التي أخذ يتسع نطاقها . وتوالت الجيوش والحملات ، ودخل المهدي فى حرب منظمة كان قد هيأ لها العدة والرجال ، سواء فى المجال العسكري أو الفكري ، حيث كان العلماء الميالون الى الحكمة والفلسفة أسبق من غيرهم الى الالتفاف حول المهدي لفتحه بابا كان مغلقا بسيطرة الفقه المالكي ، حتى من كان منهم لا يؤمن بكل ما جاء به مذهب ابن تومرت . ولكن المنية عاجلت المهدي فتوفى قبل أن يتم له الانتصار(10) وخلفه صديقه عبد المومن(11) فواصل محاربة المرابطين(12) الى أن تمت له الغلبة والنصر فاتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين . ولم يقنع بذلك ، فصرف عزمه الى توسيع حدود دولته ، وخرج سنة أربع وثلاثين وخمسمائة فى حملة دامت سبع سنوات لم يرجع منها الا بعد أن تم له فتح المغرب الأقصى والأوسط . وتاقت نفسه لتوحيد المغرب العربي الكبير، خاصة وقد ضعف أمر دولة بني زيري (13) التي كان قد استقر لها الحكم فى المغرب الأوسط ، فوجه حملة برية وبحرية سنة أربع وخمسين وخمسمائة مكنته من فتح تونس وليبيا حيث وصلت فتوحاته الى حدود

مصر (14) . ففي المعجب انه « تم لعبد المومن رحمه الله ملك افريقية كلها منتظما الى مملكة المغرب فملك فى حياته من طرابلس المغرب الى سوس الأقصى من بلاد المصامدة واكثر جزيرة الأندلس ، وهذه مملكة لم اعلمها انتظمت لاحد قبله منذ اختلت دولة بني أمية الى وقته » (15) . وفى الحلل انه « قد كمل له بملك افريقية مسيرة أربعة اشهر من المشرق الى المغرب ومن طرابلس الى اقصى السوس ومن الجنوب الى الشمال فى أعرض المواضع من قرطبة الى سجلماسة خمسة وعشرين يوما » (16) . وكان لابد لعبد المومن أن يولي اهتماما كبيرا لأمور الاندلس — وكان الاعداء قد اغتنموا ظروف الانقلاب الموحدي واغاروا منها على بلاد كثيرة — فأرسل اليها جيشا قضى على هذه الأطماع ، وجاز اليها سنة ست وخمسين وخمسمائة ليشرف بنفسه على أحوالها وعاد وقد تم له اخضاع غرب هذه البلاد (17) . وقصد الأندلس مرة أخرى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة لاستكمال فتوحاته فيها ولكن المرض فاجأه فتوفى وهو فى طريقه للجهاد ، فخلفه ابنه يوسف (18) الذي استطاع أن يحافظ على هيبة الدولة ويحفظ مكانها فى العدوتين ، بل انه جاز الى الأندلس مرتين وغزا بنفسه وأحرز انتصارات كثيرة . وتاقت الى الثورة نفوس بعض الولاة فى افريقية ، لاسيما بعد وفاة يوسف سنة ثمانين وخمسمائة ، ولكن ابنه يعقوب المنصور (19) استطاع أن يخمدها . واغتنم النصارى هذه الفرصة فعاودتهم الأطماع واستولوا على عدة مدن ، فما كان من المنصور الا أن جهز جيشا جاز به الى الاندلس حيث كانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، معركة الأرك المشهورة التي وطدت لدولة الاسلام فى هذه البلاد . ولكن الهزيمة لم تفت فى عضد الاعداء . فبرزوا مرة أخرى بعد وفاة المنصور عام خمسة وتسعين وخمسمائة ، فجهز لهم الناصر (20) جيشا لم يستطع رغم عظمته أن يفوز بالنصر ، فقد كانت تنقصه القيادة والتدبير فهزم فى وقعة العقاب (21) التي كان لها اكبر الأثر فى التعجيل بسقوط الاندلس وبالتالي سقوط دولة الموحدين . فالخليفة الجديد يوسف(22) كان من الضعف بحيث لميستطع مواجهة الأعباء، وجاء بعده عبد الواحد(23)

وعبد الله (24) والمامون (25) والرشيد (26) والسعيد (27) والمرتضى(28) وادريس (29) ، وكلهم اخوة أو أولاد عم ، شغلوا بأنفسهم ومحاربة بعضهم فضاعت مصالح الدولة وتفككت أوصالها (30) .

—●—

واذا كان بعض الباحثين يرون أن الحركة الموحدية بدات دينية لا تطمع فى شيء وان المهدي « كان مخلصا فى دعوته اشد الاخلاص وانه لم يكن يهمه ملك ولا دنيا الا بلوغ قصده فى محاربة الفساد وتجديد الدين .. وانه كان صاحب فكرة اصلاحية عمل لتنفيذها بالوسائل المالوفة قبل ان يكون طالب ملك يرتكب كل محظور للحصول عليه » (31) فاننا نرى انها بدأت اشبه ما تكون بالحزب السياسي او التنظيم الثوري الذي يدفعه الطمع فى السيطرة والحكم الى النقمة على الأوضاع والتخطيط لمحاربتها وتقويضها . حقا ان المتتبع لحياة المهدي وما صاحبها من حوادث وأحداث لا يرى من خلال تسلسلها غير عالم مصلح حفزته أهداف دعوته الدينية الى خوض غمار السياسة ، ولكن قليلا من التعمق فى حياة الرجل ومحاولة الربط بين مقومات دعوته والتنظيم الدقيق لأتباعه والاستعداد الكامل لمحاربة جيش الدولة ، كل هذه أشياء تجعلنا لا نشك فى أن المهدي بدا حركته وقد وضع مخططا ثوريا لنسف حكم المرابطين واقامة حكم جديد على انقاضه . فمن تنظيماته أنه صنف اتباعه طبقات ، فالعشرة الذين بايعوه أول الأمر وخرجوا معه من مراكش يسميهم الأصحاب والجماعة ، ويتبعهم فى الرتبة أهل الخمسين ، وهم خمسون رجلا يؤلفون مجلسا يمثلون كافة القبائل . وهكذا تستمر السلسلة على حد ما نقرأ فى الحلل من انه حين «اخذ اشياعه يتاهبون للحرب جعل على كل عشرة منهم نقيبا وصنفهم اصنافا فالصنف الاولأصحاب العشرة والصنف الثاني أهل الخمسين والصنف الثالث أهل السبعين والصنف الرابع الطلبة والصنف الخامس الحفاظ وهم صغار الطلبة والصنف السادس أهل الدار والصنف السابع أهل هرغة والصنف الثامن أهل تينمال

والصنف التاسع جدميوة والصنف العاشر أهل جنفيسة والصنف الحادي عشر أهل هنتاتة والصنف الثاني عشر الجند والصنف الثالث عشر الغزاة والرماة . ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا فى سفر ولا فى حضر لا ينزل كل صنف الا فى موضعه لا يتعداه فانضبط مراده وأقاموا على ذلك مدة حياته » (32) .

ومن تحليل هذه السلسلة يبدو أن التنظيم الموحدي فى الميدانين الاداري والعسكري كان قويا ومتماسكا ، وانه سار فى اتجاهين : أحدهما فكري نخبوي للعمل المذهبي والثاني جماهيري للعمل المسلح .

وكان لابد للمهدي أن يلجأ الى الدين والى أصول الشرع ليهاجم حكم المرابطين ويقوض دعائمه الفقهية القائمة على علم الفروع . وكان لابد كذلك ان يتصل مباشرة بجماهير الشعب يعبئها ضد المرابطين (33) ويكون منها قاعدة لحركته يساعده فى ذلك اتقانه للعربية والبربرية معا ومخاطبته للناس بما يفهمون حيث « كان أفصح الناس فى اللسان العربي واللسان البربري ينقل به اليهم المواعظ والأمثال ويضرب لهم المقاصد فجذب نفوسهمواستجلب قلوبهم وسهل عليهم التعليم بنفسه وبأعيان أصحابه » (34) .

ويتضح لنا الحاح الجانب السياسي على المهدي فى أمرين :

أولهما لجوءه الى البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير ، مما نشأت عنه ظاهرة الازدواج اللغوي .

والثاني اعتماده — للاقناع بشرعيته والتثبيت لها — على مبادىء الشيعة المتصلة بالمهدوية والعصمة . وقد استغلالمهدي — حين أدار مذهبه فى الجانب السياسي على هذه المبادىء — حب المغاربة القوي وارتباطهم القديم بآل البيت ، كما استغل عدم جدة الأفكار الشيعية عليهم .

على أن المهدى لم يكن يتردد ــ عند عجز منطق دعوته ــ فى اللجوء الى حيل الشعوذة والتدجيل ، على حد ما فعل حين امر صاحبه عبد الله الونشريسي بكتم علمه وفصاحته وفضله واظهار الجهل واللكن والتعري عن الفضائل « لنتخذ الخروج عن ذلك ــ كما يقول المهدي ــ واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة ليقوم ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا اليه فنصدق فيما نقول » (35) . كما انه لم يكن يتردد فى اللجوء الى اتباع أساليب القسوة والعنف . فقد ذكر ابن الاثير (36) أن أصحاب المهدي كانوا يقدمون له لوائح سوداء بأسماء الأشرار المناوئين يختار منها ومن لائحة يضعها بنفسه من يعدمون يوم التمييز . وعند البيدق انه امر بالميز فى آخر أيام غزوه « فكان البشير (37) يخرج المخالفين والمنافقين . والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا وازداد الذين آمنوا ايمانا وذاق الظالمون النار فظنوا انهم مواقعوها وما لهم عنها من محيص وكان تمييز البشير للخلق من يوم الخمس الى يوم الجمعة بعد أربعين يوما » (38).

والمتتبع فى عمق لحياة المهدي لا يلبث أن يلاحظ أن هذه الحياة تدرجت فى خمس مراحل :

أولا : بدأ آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر يتلمس طريقه ويحاول الاحتكاك بالجماهير .

ثانيا : برز فقيها يفرض وجوده بمجادلة فقهاء المرابطين بمراكش .

ثالثا : اصبح أستاذا فى أغمات يلتف حوله الطلاب الذين منهم كان يختار الاتباع .

رابعا : اخذ يكون من تلاميذه ومريديه خلايا كانت نواة حزب سياسي.

خامسا : أعلن عن زعامته .

واذن فلم تكن دعوة المهدي مجرد دعوة دينية ، وانما كانت حركة ثورية سياسية منظمة عملت بمختلف الوسائل على قلب الحكم المرابطي ، ولم يكن انتصارها مجرد انتصار مذهب ديني على مذهب آخر بل كان انتصار نظام حكم على نظام مقوض قامت على انقاضه دولة بلغت ذروة مجدها على عهد عبد المومن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور الذين استطاعوا بحنكتهم وقوة شخصيتهم أن يوسعوا رقعة الثورة الموحدية وأن يبنوا هذه الثورة ويثبتوا دعائمها بما يقوي مركز الدولة . فعبد المومن يعنى بالجيش وينشيء صناعة الاسلحة ويأمر بأن تنشأ فى جميع سواحل البلاد اساطيل حربية بلغ عددها اربعمائة قطعة (39) . اما يوسف فقد عرفت الدولة على عهده ازدهارا ماليا كبيرا تمثل فى الدينار اليوسفي حيث « استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال » (40) . وأما المنصور فقد قوى انشاء الاساطيل فى ايامه وكثرت مصانعها ومدارس التدريب عليها لدرجة أن صلاح الدين الايوبي استغاثه واستنجد بأساطيله فى محاربة الصليبيين بالشام (41) وقد نشطت على عهد المنصور جميع فروع الصناعة الى حد كان فى مدينة فاس وحدها اثنا عشر مصنعا لسبك النحاس وثلاثة آلاف مصنع نسيج وسبعة واربعون مصنع صابون وأحد عشر مصنعا للزجاج واربعمائة مصنع للكاغد وعشرات غيرها من المصانع المختلفة التي تكشف عما بلغته الدولة من تفوق حضاري كان يسير جنبا الى جنب مع تقدم الانشاءات الحربية التي تجلت فى استعمال البارود وصناعة المجانيق والدبابات (42) .

وبهذا يتضح لنا أن عهد الموحدين — وخاصة فى ظل الخلفاء الثلاثة — شهد ازدهارا اقتصاديا (43) تجلى فى هذه المظاهر الاربعة :

أولا : كثرة المصانع سواء فى المغرب او الاندلس .

ثانيا : التبادل التجاري مع مختلف اقاليم حوض المتوسط حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية « فنادق » فى بعض مدن فرنسا وايطاليا ، اهمها مرسيليا وجنوة والبندقية .

ثالثا : عملة قوية (44) .

رابعا : أسطول تجاري بحري تعززه صناعة السفن .

ولكن بوادر الانهيار لم تلبث ان ظهرت على دولة الموحدين وهي بعد فى اول الطريق ، ومن أسبابه هذه المظاهر :

اولا : استبداد الأشياخ والولاة بالحكام .

ثانيا : الحروب فى الأندلس وانهزام الموحدين فى وقعة العقاب وما نتج عنه من تقلص ظلهم فى الاندلس الى حد استنجاد الخلفاء (45) بالأمراء الاسبان ضد منافسيهم فى الحكموقبولهم لشروط هؤلاء الامراء ومساوماتهم (46) واستعانتهم بجنود من المرتزقة المسيحيينفى جيوشهم لمواجهة الفتن والثورات التي كانت تقوم ضدهم وخاصة فى افريقية .

ثالثا : ضعف الجانب الاقتصادي نتيجة تقلص الطرق التجارية وحركة المراكز والموانىء .

رابعا : الأزمة المالية المتمثلة فى انهيار العملة .

خامسا : فتور الروابط بالشعب نتيجة سياسة القمع المتجلية فى الأحكام التي كان يصدرها الخلفاء باعدام مناوئيهم ومخالفيهم دون تردد.

سادسا : انهيار الايديولوجية الموحدية التي كانت العمود الفقري للدولة ، فى وقت كان الفقهاء المالكيون يقومون بتحركات سواء فى المغرب أو الاندلس . فحركة المنصور ثم المامون — كما سنرى بعد — لا يمكن أن تفسر الا بأنها عملية رد النفس للدولة ، وكان يمكن لها أن تنجح لو توفرت لها الأطر مثلما توفرت لدعوة المهدي .

كل هذه أسباب جعلت أوصال الامبراطورية الموحدية تتفكك وتنحل لترثها ثلاث دويلات هي :

أولا : المرينية فى المغرب الأقصى (47)

ثانيا : الزناتية فى الجزائر أو المغرب الأوسط (48)

ثالثا : الحفصية فى تونس أو افريقية (49)

—●—

نعود الى التيار المذهبي الذي سلك المهدي فى ثورته ضد المرابطين فنرى ان الحديث عنه يقتضي منا ان نلقي نظرة على الحركات الدينية السابقة وما كانت تدعو له من أفكار — وفدت من المشرق فى أغلبها — عسى أن نكشف من خلالها مدى تجاوب المغاربة مع أحداث الشرق الدينية ومدى تقبلهم للتيارات المذهبية التي كانت تصاحب هذه الأحداث .

والاسلام حين دخل الى المغرب(50) أول الأمر على يد عقبة بن نافع(51) كان بسيطا خاليا من كل خلاف أو تعقيد ، مما جعل البربر يتأثرون بمبادئه ويقبلون عليه . وكذلك كان حين استقر بعد ذلك فى عهد موسى بن نصير واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، وبدأ يتغلغل فى نفوسهم لما رأووا من يسر مبادئه وسموها ، ومن عدل القائمين على شؤونه وكانوا قبل ذلك — على حد قول ابن أبي زيد القيرواني — قد « ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز موسى بن نصير الى الاندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد فاستقروا هنالك من لدن الفتح فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب واذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » (52) .

وكان نتيجة لهذا الاستقرار أن اطمأن المغاربة للدين الجديد ، وزال مؤقتا ما كان فى قلوبهم ضد العرب من نفور ، وزاد الاتصال بالمشرق الذي اخذت أصداء أحداثه تتردد فى المغرب ، وبدأت فئات الخوارج المنهزمة فى المشرق ، وخاصة منها الاباضية والصفرية (53) تفد عليه من العراق تحاول الترويج لمذهبها الذي وافق مزاج البربر وناسب وضعهم السياسي والاجتماعي ، حيث كانوا يعارضون به كل من يحاول أن يفرض عليهم سيادة عنصرية او مذهبية .

ولعل الدور الذي لعبه الخوارج فى بقية بلاد الشمال الافريقي كان أكثر قوة وفعالية من دورهم فى المغرب ، لاسيما فى ليبيا وتونس (طرابلس وافريقية) حيث كاد صراع الاباضية مع العرب السنيين أن يزعزع كيان الخلافة ويحث على الاستقلال .

وكان بالفعل أن تأسست دولة فى تاهرت بالجزائر (المغرب الاوسط) تحت لواء الأسرة الرستمية التي استطاعت ان تحفظ لهذه الدولة كيانها طوال قرن ونصف الى أن هزمها الفاطميون بقيادة أبي عبيد الله الشيعي فتشتت الاباضيون فى مناطق مختلفة من تونس والجزائر ما زالوا يعيشون بها حتى اليوم .

وربما كان عدم تسرب المذهب الخارجي الى المغرب بمثل هذا المد العنيف يرجع فيما نعتقد الى الدولة الادريسية التي عاصرت الدولة الرستمية والتي كان لها من القوة ما مكنها ليس فقط من بسط نفوذها فى المغرب ، وانما كذلك من مزاحمة جيرانها بني يفرن لدرجة أنها استطاعت ان تنزع منهم مدينة تلمسان .

كذلك بدأ المذهب الشيعي يتسرب الى قلوب البربر ويجد بعض الاقبال، ولكنه اقبال غير ناتج عن اقتناع فكري بالمذهب ، وانما هو ناتج عن عطف على العلويين واشفاق عليهم مما انزل بهم الامويون والعباسيون من نكبات

كانت تتردد أصداءها فى المغرب فتجد لها مكانا رحبا فى نفوس البربـــر ، لاسيما وهم ما يزالون حديثي عهد بالاسلام . وليس هذا بغريب فالمغاربـة كانوا دائما يحبون آل البيت ويجلون عليا وابنيه ، وربما فضلوه على مـن سبقه من الخلفاء .

وتتجلى مظاهر حب المغاربة لآل البيت واضحة فى الترحيب الذي لقيه المولى ادريس اثر فراره من وقعة فخ سنة 169 هـ على عهد الهـادي العباسي وتنازل عبد الحميد بن اسحق الاوربي عن امارته لـه فى وليلـي ودعوته للقبائل ان يبايعوه . وليس مستبعدا أن يكون المولى ادريس — وهو علوي مناضل — قد حمل بعض مبادىء الشيعة الى المغرب مما قد يدل على اتصال الحركة الشيعية بالمغرب قبل ظهور الداعية الاسماعيلي أبي عبيد الله المهدي مؤسس دولة العبيديين فى الشمال الافريقي ، وليس مستبعدا كذلك أن يكون قد وجد القبيلة الاوربية تتمذهب بالاعتزال الذي يبدو انه تسرب للمغرب فى هذا الوقت ، مما قد يستنتج منه انتشار المذهب الاعتزالي قبل حركة المهدي بن تومرت ، ان كانت تعتبر هذه الحركة اعتزالية كما سنبين بعد ، ولكن الذي لاشك فيه ان الادارسة لم يكونوا من المعتزلة ولا مـن الامامية أو الاسماعيلية ، ولم يكن لهم مذهب معين فى الشيعة وانهم لذلك لجأوا الى السنة والى المالكية خاصة .

والواقع انه قبل انتشار مذهب مالك وفى الوقت الذي كانت تتسرب مبادىء الشيعة والخوارج الى المغرب والشمال الافريقي ، كان الاتجـاه غالبا لفقه أبي حنيفة . فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة المعز بن باديس ان مذهب أبي حنيفة كان اظهر المذاهب فى المغرب الى أن جاء المعز « فحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك بن أنس رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف فى المذهب » (54) . وفى مقدمة كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ان « افريقية كان الغالب على أهلها السنن الى أن قدم اليها عبد الله ابن فروخ أبو محمد الفارس فنقل اليها مذهب أبي حنيفـة » (55) . وفى

ترتيب المدارك يقول القاضي عياض : « واما افريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها فى القديم مذهب الكوفيين الى أن دخل علي بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشو الى أن جاء سحنون فغلب فى أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده فى أصحابه فشاع فى تلك الاقطار » (56) .

ومهما يكن فقد تعرض المغرب فى هذه الفترة ، ومع بداية تأسيس الدولة الادريسية ، لصراع بين الشيعية والخارجية والسنية وصراع آخربين الحنفية والمالكية انتهى بانتصار المذهب المالكي فى جزء كبير من المغرب وانتصار الامامية فى بقية بلاد الشمال الافريقي . ومن المؤكد انه حين أخذ ينتشر فى المغرب على هذا العهد ، كان وافدا اليه من الاندلس حيث ظهر أول الامر وحيث كان مذهب الاوزاعي سائدا . فعند القاضي عياض ان أهل الاندلس كانوا منذ الفتح « على رأي الاوزاعي الى أن رحل الى مالك زياد ابن عبد الرحمن وقرعوس بن العباس والغاز بن قيس ومن بعدهم فجاءوا بعلمه وابانوا للناس فضله واقتداء الامة به فعرف حقه ودرس مذهبه » (57) ويرجع انتشار المذهب المالكي فى المغرب والاندلس لاسباب نستطيع ان نذكر منها :

أولا : ما ذكره ابن خلدون من ان رحلة المغاربة والاندلسيين « كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق فى طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ... فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وتلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته » (58) .

ثانيا : ما ذكره ابن خلدون كذلك من ان البداوة « كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق

فكانوا الى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبهـا كمـا وقع فى غيره من المذاهب » (59) .

ثالثا : ما ورد فى النفح لدى ترجمة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي من ان ابن حزم قال: «مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان. مذهب ابي حنيفة فانه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية فكان لا يولي الا اصحابه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالاندلس ، فان يحيى ابن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول فى القضـاء ، وكان لا يلي قاض فى اقطار الاندلس الا بمشورته ، واختيـاره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه » ((60) .

رابعا : طبيعة المذهب نفسه، فهو من جهة لا يعتمد على المنطق والقياس، بقدر ما يعتمد على النص والنقل ، مما يجعله يتفق ومزاج المغاربة، الذي ينفر من الفلسفة ، والتفريع ويتمسك بالاثر والرواية ، وهو من جهة أخرى يدعو الى العزوف عن السلطة — وأعني السلطة الاجنبية ، واما الوطنية فانه يتعاون معها ، الى أقصى حد ، كما يثبت عهد المرابطين — وهو فى هذا يوافق الطبيعة المغربية التي تميل الى الاستقلال ، وعدم الخضوع لاية سيطرة خارجية . وقد يكون فى هذا الجانب كذلك بعض التبرير ، لانتصار المالكية علـى الحنفية التي كانت على عكس المالكية والى جانب قولها بالـرأي تتقرب للحكم ، وتقبل تولي مناصب الفتيا والقضاء (61) .

واذا كان المذهب المالكي قد انتقل الى المغرب فى عهد الأدارسة فان انتشاره قد عم فى عهد المرابطين وعلى يد داعيتهم عبد الله بن ياسين الذي اوفده أبو عمران الفاسي بطلب من أحد زعماء صنهاجة هو يحيى بن ابراهيم

الجدالي ، ليهدي الناس ويرشدهم الى أمور الدين . وربما يكـون ابـن ياسين قد اتصل فقط بالفقيه المالكي المغربي « وجاج بن زلو » الذي يبدو ان شيخه أبا عمران قد انتدبه لتفقيه داعية المرابطين فى المذهب . وزاد فى انتشار المذهب وتعصب المرابطين له كراهيتهم للشيعة وخاصة يوسف بن تاشفين الذي كان لا يعترف بدولة الفاطميين فى مصر والشام فى الوقت الذي يمد يده لأعدائهم العباسيين (السنيين) .

وحتى هذا العهد ، كان ما يزال للروافض بعض المراكز والأتباع ، فقد « كان بتارودانت قوم من الروافض يقال لهم البجلية منسوبين الى عبد الله البجلي الرافضي الذي كان قدم الى السوس حين قدم عبد الله الشيعـي لافريقية فأشاع هنالك مذهبه فورثوه بعده جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لا يرون الحق الا ما فى أيديهم فقاتلهم عبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة وقتل بها من الروافض خلق كثير فرجع من بقي منهم الى السنة » (62) . ومعروف أن الروافض من شيعة الكوفة الغالين ونستطيع أن نضعهم مع الامامية ، وكانوا قد رفضوا بيعة زيد بن علي بن الحسين ولم يرضـوا أن يخرجوا معه سنة 121 هـ بعد أن تبين لهم أنه ينهى عن الطعن فى الصحابة وانه لا يبرأ من الشيخين .

ولعل الحركة البجلية هذه كانت آخر آثار المذهب الشيعي فى المغرب حيث يبدو أن اختفاءه منه يرجع لعدم استعداد المغاربة الفكري للاقتناع ببدعه وغيبياته ولعقليتهم الثورية التي كانت لا ترضى عن وسائل العنف التي كان يسلكها الفاطميون فى نشر مذهبهم . واذا كان المذهب قد اختفى مـن المغرب فهو قد انتقل الى الأندلس وظل فى الخفاء الى أن نهض على عهـد الحموديين فى قرطبة. ولكن الحموديين — كالأدارسة ويرجع نسبهم اليهم — لم يكونوا يحاولون نشره بالمعنى المعروف عند المشارقة ولم يكن لهم مذهب معين فى الشيعة .

—●—

ظل المغرب طوال عهد المرابطين يحمل لواء المذهب المالكي الى ان ظهر ابن تومرت (63) يدعو لمذهب جديد . وابن تومرت — وأصله من قبيلة هرغة المصمودية — يسمى محمد بن عبد الله ويستمر البيدق فى ذكر سلسلة نسبه فيقول أنه « ابن وكيلد بن يا مصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » (64) . بدأ دراسته فى المغرب ثم رحل (65) طالبا للعلم فى الأندلس والمشرق « حيث انتهى الى بغداد ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين » (66) واجتمع « بالكيا الهراسي والطرطوشي» (67) وغيرهم من العلماء والأئمة(68) الذين جالسهم وأفادهما كانت تزخر به حلقاتهم من جدل عقلي ودراسات فلسفية لم يكن له عهد بها من قبل ، وعاد الى وطنه وقد صمم العزم على الثورة والاصلاح ومناهضة كتب الفروع والفقهاء ، يدعو لمذهب هو مزيج من الأشعرية ومبادىء الشيعة الامامية . فهو يعتقد فى العصمة والامامة وينتصر للعقائد السلفية والدفاع عنها بالحجج العقلية ويحلل فكرة تنزيه الله وابعاد أية شبهة عن ذاته توحي بالتشبيه (69) ويدعو الى تأويل المتشابه من الآيات (70) والاحاديث (71) حتى لا يقع فى التجسيم الذي يرمي به المرابطين ، يقصد تشبيه الذات الالهية بالحادثات مما يضفي صفة الوجود المادي على هذه الذات باعتبارها واقعا ماديا مجسما ملموسا له حيز فى المكان . ومن هنا سمى أتباعه بالموحدين ، قصده من التسمية أنهم ينزهون الله تعالى عن مشابهته لخلقه فى الذات والصفات . يقول ابن خلدون متحدثا عن المهدي : « وكان قد لقي بالمشرق أئمة الاشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الواقعة فى صدر أهل البدعة وذهب الى رأيهم فى تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم فى التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف فى ترك التاويل واقرار المتشابهات كما جاءت ففطن أهل

المغرب فى ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الاشعرية فى كافة العقائد وأعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم وكان من رايه القول بعصمة الامام على راي الامامية من الشيعة والف فى ذلك كتابه فى الامامية الذي افتتحه بقوله أعز ما يطلب ، وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك » (72) .

وعلى الرغم من أشعرية المهدي فانه قد اتخذ موقفا سلفيا من قضية الصفات حيث أعطاها بعدا بسيطا جعله يربطها بأسماء الله الحسنى لا يجيز فيها أي قياس أو اشتقاق أو اصطلاح . فعنده أن « اسماء الباري سبحانه موقوفة على اذنه لا يسمى الا بما يسمى به نفسه فى كتابه أو على لسان نبيه لا يجوز القياس والاشتقاق والاصطلاح فى اسمائه يسمى المخلوق فقيها سخيا لعلمه وكرمه ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمي المخلوق راميا قاتلا لرميه وقتله ولا يقاس عليه الخالق سبحانه ويسمى المخلوق زيدا وعمرا يولد ليس له اسم فيصطلح عليه اسمه وليس للمخلوق أن يتحكم على خالقه فيسميه بما لم يسم به نفسه فى كتابه ما نفاه عن نفسه فى كتابه نفاه عنه وما أثبته لنفسه أثبته له من غير تبديل ولا تشبيه ولا تكييف يسميه بأسمائه الحسنى ويدعوهبها » (73) . وهذا على عكس الأشاعرة الذين يعتبرون أن صفات الله قديمة وموقوفة على الذات الالهية وقائمة عليها .

وربما كانت الدعوة الموحدية فى بعض مبادئها ، وخاصة فى تنزيهها الذات الالهية وابعادها عن كل شبهة تدنيها من التشبيه والتجسيم ، قد تاثرت بآراء الاعتزال ، فعند المراكشي أن المهدي « كان على مذهب أبي الحسن الأشعري فى أكثر المسائل الا فى اثبات الصفات فانه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها » (74) . ومع ذلك فقد يقال بأن الاشعرية شيء والاعتزال شيء آخر وبأن القول بالتاويل والتنزيه من صميم آراء الاشعرية وان المهدي ما دام اشعريا لا يمكن أن يكون معتزليا وانه متأثر فى دعوته بثلاث تيارات : هي الاشعرية والامامية وآراء الغزالي .

وسواء أكان المهدي متأثرا بالاعتزال أم غير متأثر ، وسواء أكان هذا المذهب واردا على المغرب مع الموحدين أو سابقا عليهم ، فان الذي يبدو غير مشكوك فيه أن فرقة من المعتزلة هي الواصلية ، منسوبة لواصل بن عطاء ، كان لها بالمغرب اتباع ، على حد ما يثبتنص وارد عند الشهر ستاني — وهو معاصر للموحدين حيث توفي سنة 548 — لدى حديثه عن هـذه الفرقة : « ... وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة فى بلد ادريس بن عبد اللـه الحسني الذي خرج بالمغرب فى أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية، واعتزالهم يدور على أربع قواعد : القاعدة الأولى القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة .. القاعدة الثانية القول بالقدر .. القاعدة الثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين ... القاعدة الرابعة قولـه فى الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين أن أحدهما مخطىء لا بعينه وكذلك قوله فى عثمان وخاذليه ان حد الفريقين فاسق لا محالة كما أن أحد المتلاعنين فاسق لا بعينه ... » (75) .

والحديث عن المهدي مقترن دائما بذكر مقابلته للغزالي على اختلاف المؤرخين فى قبول هذا القول أو رفضه . فعند ابن الأثير : « ... وقيل انه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بالمغرب من التملك فقال له الغزالي ان هذا لا يتمشى فى هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا كما قال بعض مؤرخي المغرب والصحيح أنه لم يجتمع به » (76) وفى وفيات الاعيان أنه « اجتمع بأبي حامد الغزالي » (77) وعند المراكشي « انه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده » (78) . وعند ابن أبي دينار أنه « لازم أبا حامد الغزالي ثلاث سنين وحصل عليه علما عظيما . وكان أبو حامد اذا رأى ابن تومرت يقول لابـد لهذا البربري من دولة » (79) . ويقول صاحب الحلل بعد الحديث عن قدوم وفد اشبيلية لتقديم البيعة لعبد المومن وكان فيه القاضي ابو بكر العربي المعافري « ثم أن الخليفة عبد المومن سأل ابن العربي عن المهدي هل رآه أو لقيه فى مجلس أبي حامد الغزالي ببغداد فقال له لم القه وانما سمعت به وان

الشيخ كان يقول لابد من ظهوره » (80) . أما ابن خلدون فعنده أن المهدي « لقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي (81) .

وعلى الرغم من هذا الخلاف فان الذي لا شك فيه أن المهدي تأثر بالغزالي وبآرائه فى مناهضة كتب الفروع والفقهاء ، وهي الآراء التي بسطها فى باب العلم من كتابه احياء علوم الدين (82) . ويبدو أن كتب الغزالي كانت سبيل كل مصلح أو مناهض للأوضاع فى هذا العصر وفى أعقاب دولة المرابطين ، فأبو العباس بن قسي زعيم طائفة المريدين الثائرة كان يزاول تدريس كتب أبي حامد الغزالي باشبيلية واتخذ من تلاميذه ورواده هيئة جعلها أركان حزبه وتسمى بالامام (83) .

والحقيقة أن المهدي باعتماده على مبدئي العصمة والامامة يختلف مع الغزالي والأشاعرة وسائر أهل السنة حيث يرفضون جميعا هذا المبدأ ، دون أن ننسى أن الغزالي تلميذ للأشعري كما هو معروف . ويكاد يكون مؤكدا أن قضية العصمة والامامة تدخل عند المهدي فى اتجاهه السياسي وليس فى اتجاهه المذهبي لأنه كان سنيا سلفيا واذا كان ابن تومرت يدخل بهذه القضية فى صميم الآراء الشيعية فان الذي لا شك فيه أنه يخالف جل هذه الآراء وخاصة منها الاعتراف بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وهو اعتراف لا يراه من الشيعة الا الزيدية .

كذلك يبدو المهدي فى أخذه بالعصمة والامامة جبريا معارضا للمعتزلة الذين نفوا القدر ورفضوا الجبر — واثبتوا حرية الانسان وارادته فى اختيار افعاله واشترطوها اساسا للتكليف بالواجبات .

ومهما يكن فمذهب المهدي دعوة للاجتهاد بالرجوع الى الكتاب والسنة واجماع الصحابة ، والاعتماد على علمي الكلام والأصول ، وهما من العلوم التي شجع على طلبها . وكان من نتائج انتشار هذين العلمين أن وفق — الى حد — بين آراء الفقهاء والمتكلمين ، وكان بالتالي أن تخلى فقهاء المالكية

عن كثير من التعصب الذي عرفوا به فى عهد المرابطين ونظروا فى العلــوم الجديدة وحاولوا تطويعها لخدمة المذهب الذي زاد تفرعا وانتشارا لدرجة دفعت المنصور الى محاربته واحراق كتبه كما سنبين بعد .

ثم ان الدولة الموحدية فى لجوئها الى العلم المتفلسف وسيلة للوصول الى أهدافها ، تعتبر منذ نشأتها منافسة للفاطميين ، وكانت لهم عناية كبيرة بالفلسفة ومذاهب القدماء ، فكان لابد أن تدرس أحوالهم وتعنى بأمورهــم السياسية والعلمية وتتعرف على دعوتهم . وكانت النتيجة ان قابلتهم بالمثل، فالمهدي يسير على نهج الفاطميين فى الانتساب لآل البيت واتخاذ لقب المهدي والاعتناء بعلوم الجفر والتنجيم . فالجفر جلد ماعز كان يستعمل فى الكتابة ويزعم الروافض أن جعفرا الصادق كتب لهم فيه ما سيكون من حوادث الى يوم القيامة . وفى وفيات الاعيان لدى ترجمة المهدي أنه كان قد أطلــع فى المشرق على كتاب يسمى « الجفر » من علوم أهل البيت وأنه رأى فيــه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ويكون مقامه ومدفنه بموضع مـــن المغرب هجاء اسمه ت يـ نـ مـ ل ل ورأى فيه أيضا استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع بـ د مـ ـو مـ ـن ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة فأوقع الله سبحانه وتعالى فى نفسه أنه القائم بأول الأمر وأن أوانه قد أزف .

—●—

عاد المهدي الى المغرب ونزل فى فاس وكان نشر دعوته (84) يقتضي منه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (85) ، يعلم الناس ويلقنهم مبــادىء مذهبه ، مما أثار ضجة فى الاوساط العلمية والشعبية دعت الوالي الــى استدعائه لحضور مجلس الفقهاء « فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لأنه وجد جوا خاليا والفى قوما صياما عن جميع العلوم النظريــة خلا علم الفروع . فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلدة باخراجه لئلا يفسد عقول العوام » (86) . فخرج متوجها الى مراكش وكان الامير علي

ابن يوسف قد سمع بخبره فأمر باحضاره لمناظرة الفقهاء ولكنه لم يلبث أن هزمهم بعلمه وجد له فأشاروا على الأمير بقتله غير انه ارتأى ابعاده عن مراكش حتى لا يثير فيها الشغب والفتنة . وخرج المهدي الى قبيلتـــه فى جماعة من أصحابه (87) فبايعوه سنة 515 فى قرية تنملل (88) التي اتخذها مقرا لنشاطه ونشر دعوته . وفى تنملل أخذ يدرس العام لأصحابه ويدعوهم لمذهبه ويؤلف فيه بالعربية والبربرية كتبا اهمها « أعز ما يطلب » (89) جمع فيه خلاصة آرائه وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور وقال : «من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد لاتجوز امامته ولا تؤكل ذبيحته» (90) وعند صاحب الحلل أن أول ما دبر لهم انه ألف لهم كتابا سماه بالتوحيـــد بلسان البربرية وهو سبعة احزاب عدد ايام الجمعة وامرهم بقراءة حزب واحد منه اثر صلاة الصبح بعد الفراغ من حزب القرآن . وهو يحتوي على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايمان بما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواخى بينهم فيه وألف لهم كتابا سماه بالقواعد وآخر سماه بالأمانة هما موجودان بأيدي الناس الى هذا العهد ودونهـــما بالعربي والبربري » (91) .

« فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشربـــت قلوبهـــم محبته واجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولا على صورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي ويشوق اليه وجمع الاحاديث التي فيه من المصنفات ، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدي ونعته ادعى ذلك لنفسه . وقال : أنا محمد بن عبد الله ... ورفـــع نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وانه المهدي المعصوم وروى فى ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم انــــه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك » (92) .

واستمر المهدي فى دعوته لمذهبه واقامته الحدود بنفسه « يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل ... » (93) وينكر عليهم

ما يراه مخالفا لأصول الدين ومبادئه لدرجة انكر مرة على ابنة يوسف ابن تاشفين ان تسير سافرة — وكانت عادة المرابطين ان يسفر النساء وجوههن ويتلثم الرجال — فأمرها وجواريها ان يسترن وجوههن وضرب هو واصحابه دوابهن حتى سقطت دابة أخت أمير المسلمين (94) .

وعلى نهج المهدي سار خليفته عبد المومن فى « تغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة الحديث » (95) يدعو الولاة فى رسائله الى اخذ الناس بعلم التوحيد وحضهم على قراءته وحفظه سواء باللسان العربي أو البربري ويأمرهم بالتشديد فى اقامة الحدود ضد بائعي الخمر وشاربيها واصحاب بيوت الفساد والضلال واللاهين بالآلات والقاعدين عن العمل والجهاد وما اليهم من اهل النفاق والتدليس وكان يبعث للولاة نسخا من تآليف المهدي وخاصة كتابه « أعز ما يطلب » يامرهم باتباعه والتقيد به ، ففيه « الملاذ والمعاذ وعليه الاعتماد والاستناد واليه المرجع والمفزع ... فمن عانده أو خالفه أو ضاده أو كابره أو عصاه او ناواه او جهله واهمل امره فقد حاق به الردى ، فالانقياد لما يقضي به واجب والاستمساك بامره حتم والرجوع اليه فى أمر الدين والدنيا فرض لأن قضاءه وأمره هو قضاء ربه وارادته وحكمه » (96) .

ولكنا لا نصل الى يعقوب المنصور حتى نرى الايمان بالمذهب يتزعزع فهو اذا كان يتشدد فى الامر باحراق كتب الفروع ، تثبيتا لطريقة المهدي كما يبدو ، فانه يمنع الناس من الخوض فى علم الاصول والكلام ويؤلف للامة كتابا يلغي به كتاب المهدي يجمع فيه من الكتب الصحاح ما يتعلق بأمور الدين ويشجع الناس على حفظه بالمنح والأموال . ففي المعجب انه « أمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين والترمذي والموطا وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار وسنن ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي) فى الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن

تومرت فى الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعـــــه » (97) . والقصد من ذلك عند المنصور « محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » (98) . وأكاد أضيف محو مذهب المهدي وازالته ، فقد كان يسأل الطلاب والعلماء عما يقراونه من العلم ويغضب ممن يجده يقرأ تآليف المهدي ويقول له : « ما هكذا يقول الطالب انما حكمك ان تقول قرات كتاب الله وقرات شيئا من السنة » (99). ولا غرابة فهو لم يكن يومن بعصمة المهدي وكان يستخف بعقول المومنين بها . فقد قال مرة لأحمد بن مطرف المري ـــ وكان شيخا صالحا : « يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة » وقال له يوما « وقد استأذنه فى فعل شيء يفتقر الى وجود الامام : يا أبا العباس أيـــن الامام .. أين الامام » (100) بل انا نجد ابنه المامون يقول فى خطبته المشهورة التي نبذ فيها المهدوية : « وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي رفعنا فلم يساعده لذلك أملـــه ولا أجله لزواله الا اجله فقدم على ربه بنية صدق خالص الطوية » (101) .

ولم يلبث هذا الانكار أن تطور فى عهد المامون الى ذم المهدي ونبـــذ مذهبه عامة ، فهو « الذي أمر بزوال اسم المهدي من السكك(102) وغيرها ومن الخطبة وازال اسم جميع الموحدين مما كان العمل به فى سائر دولـــة الموحدين » (103) . ومن خطبته فى ذلك : « ولتعلموا أننا نبذنا الباطـــل واظهرنا الحق وأن لا مهدي الا عيسى... فتلك بدعة قد انزلناها... وقد اسقطنا اسمه ولم نثبت له عصمة فلذلك أزلنا عنه رسمه فيمحى ويسقط ولا يثبت... وان كانت العصمة لم تثبت للصحابة فما الظن بمن لم يدر بأي يد ياخذ كتابه بل هم ضلوا وأضلوا وتلفوا فى ذلك وزلو ما تكون لهم الحجة على تلك الحاجة اللهم اشهد اننا تبرانا منهم براءة أهل الجنة من أهل النار ونعوذ بك مـــن امرهم الرتيب وفعلهم الخبيث لأنهم فى المعتقد من أهل النار وانا نقول فيهم ما قال نبينا عليه افضل الصلاة والسلام رب لا تدر على الارض من الكافرين ديارا » (104) . وفى هذه الخطبة : « أيها الناس لا تدعوه بالمهدي المعصوم

وادعوه بالغوي المذموم فانه لا معصوم الا الأنبياء ولا مهدي الا عيسى وانا قد نبذنا أمره النحيس » (105) . وكذلك كان موقف الرشيد ولد المامون لولا انه اضطر الى الرجوع حيث كانت للموحدين « شروط قبل دخولهم وهي اعادة ذكر اسم الامام المهدي فى الخطبة واسمه فى المخاطبات ونقشه فى السكة من الذهب والفضة واعادة الدعاء بعد الصلاة والنداء عليها بتاصليت الاسلام وهي اقامة الصلوات وما أشبه هذا ... فأسعفوا فيه وسمعت موجبات وصولهم وانتظامهم » (106) .

—●—

نعود بعد هذا لمذهب الموحدين فنرى أننا — مع بعض التحفظ — نستطيع ان نستنتج من دعوتهم للكتاب والسنة والاعراض عن الرأي والقياس ميلهم الى المذهب الظاهري واتصالهم به منذ البداية وتطبيقهم لمبادئه ليس فى أمور الدين فحسب ، بل حتى فى مختلف فروع المعارف والعلوم . ولا تخفى حملة ابن مضاء (107) على النحاة المشارقة فى كتاب « الرد على النحاة » الذي دعا فيه الى الأخذ بظاهر النصوص والابتعاد عن جدل المناطقة والفلاسفة (108) .

وقد يبدو غريبا أن نتحفظ فى القول بميل الموحدين الى المذهب الظاهري منذ بداية دعوتهم ، على الرغم من اعراض هذه الدعوة عن الراي والقياس وأخذها بظاهر الكتاب والسنة فى وضوح صريح لا يترك مجالا لاي ظن . وهو استغراب لا سبيل لدفعه لو لم يكن لهذا التحفظ ما يبرره ، اذ لا يخفى ان ابن حزم لا يقول بالعصمة التي يدعيها الموحدون ، ويرى على العكس من ذلك « انه يقع من الانبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم ايضا قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى الا انه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين اصلا بل ينبههم على ذلك ولا يداثر وقوعه منهم ويظهر عز وجل ذلك لعباده ويبين لهم » (109) لذلك لا نرى المنصور يعلن ظاهريته الا بعد ان أعلن انكاره لعصمة المهدى وامامته ، وغدا جهارا يستخف بعقول المومنين بدعوته .

واذا كنا ــ مع وضوح هذه الحقيقة ــ نذهب الى امكان دخول الدعوة الموحدية فى نطاق مذهب ابن حزم ، فما ذاك الا لانا لا ننسى ان المهدي تعرف على آراء ابن حزم فى قرطبة قبل سفره الى الشرق ثم اننا لا نرى مانعا من أن يقتبس منه الموحدون جوانب جوهرية ، وان يختلفوا معه فى نفس الوقت حول جانب فرعي ، وان اعتبر هذا الجانب فى دعوتهم اساسيا . ولا بدع ، فان كثيرا من الباحثين يؤكدون أخذ الموحدين بالنزعة الظاهرية منذ بداية دعوة المهدي ، على حد ما يرى المستشرق الاسباني انخل بالنثيا اذ يقول : « وقد مال محمد بن تومرت مهدي الموحدين الى مذهب ابن حزم اذ وجد فيه ما يؤيد دعوته ووصل نفر من فقهاء الحزمية الى كبار المناصب » (110) كذلك يرى جولد تسيهر (111) تأثر المهدي بابن حزم من خلال شبه كبير يتصل بموقفهما من المذهب المالكي ومن صفات الله واعتمادهما على الظاهر فى مسائل كثيرة . والحق أنه اذا كان ابن تومرت يشبه ابن حزم ويبدو متأثرا به فى تناول المسائل الفقهية ، وهو ما عبر عنه بالشرع وكان فيها لا يعمل العقل (112) وكأنه يقصد الى تحطيم فقهية المرابطين وما اعطوها من حرمة وقداسة ، فانه فى مجال العقيدة كان أشعريا يعتمد العقل اكثر مما يعتمد حرفية النصوص . فعنده أن « بضرورة العقل يعلم وجود الباري سبحانه والضرورة ما لا يتطرق اليه الشك ولا يمكن العاقل دفعه » (113) وهو يطعن فى رأي من « ذهبوا .. ان الشريعة لا حكمة فيها وانها ليست على سنن العقل جارية » (114) علما بأنه حاول ان يقرب بين العقل والشرع أو بين الحكمة والشريعة حين قرب بين القياس العقلي والقياس الشرعي (115) .

والذي يدعو فعلا الى الاستغراب هو ما ذهب اليه المستشرق الفرنسي هنري لاوست فى حديث عابر عن المنصور الموحدي أورده فى كتاب له عن فرق الاسلام ، حيث قال : « ... فبعد ان كان مالكيا ، انتقل الى الظاهرية ثم اعتنق المذهب الشافعي واختار كثيرا من القضاة من بين المنتمين لهذا المذهب » (116) . فاذا كنا نقبل القول بمالكية المنصور على

اعتبار ان الموحدين لم يخرجوا عن نطاق المذهب المالكي فى الفقـــه وان حادوا عنه توحيدا وعقيدة ، وانهم لم يلجأوا الى محاربة فقهاء الدولـــة المرابطية وكتبها الا وسيلة لنسف حكمها وتقويض دعائمه الفقهية القائمة على علم الفروع ، فاننا لا نستطيع أن نقبل القول بشافعيته رايا مجردا من كل دليـــل .

والذي نعلم هو ان المذهب الشافعي لم يصل قط الى المغرب . حقا ان المهدي لقي فى المشرق كثيرا من الشافعية ، وخاصة ابا بكر الشاشي الذي يعد من كبار فقهائهم ، وحقا كذلك ان المذهب الشافعي دخل الى الاندلس فى منتصف القرن الثالث على يد قاسم بن سيار القرطبي (ت سنة 276 هـ) حيث سعى بعض العلماء الى نشره أمثال بقي بن مخلد (ت سنة 272 هـ) واسلم بن عبد العزيز بن خالد (ت سنة 319 هـ) . كما ان رحلة الفقهـــاء الشافعيين الى الاندلس اثرت الى حد لا يستهان به على انتشار المذهب ، لا سيما على عهد الحكم المستنصر الذي كان يشجع هؤلاء الوافدين امثال ابي الطيب محمد بن ابي بردة (ت 271 هـ) وعبيد الله بن عمر بن أحمد بن جعفر (ت 360 هـ) . ولكن سيادة المذهب المالكي فى الاندلس من جهة ومحاربة بعض الفقهاء المالكيين لهؤلاء الوافدين من جهد اخرى ، جعلـــت ظل المذهب الشافعي يتقلص الى حد كبير فى الاندلس . ومن يدري فقد يكون بعض شافعية المشرق وصلوا الى المغرب عائدين من الاندلس ، لا سيما أولئك الذين حوربوا واضطروا الى مغادرتها ، أو قاصدين اليها كابن أبي بردة المذكور ، وكان قد سئل فى الاندلس عن كتبه فقال : « انها ذهبت له مع مال جسيم فى المغرب » (117)

والذي يلفت النظر فى رأي المستشرق الفرنسي انه اتبع كلامه عن مذهب المنصور بالحديث عن النجدة التي طلبها منه صلاح الدين الايوبي ، وكأنه اراد ان يربط بينها وبين شافعية المنصور ، قاصدا من هذا الربط الى جعل اتفاقهما فى المذهب عنصرا مشجعا على طلب النجدة . ومعروف ان

المذهب الشافعي كان سائدا فى مصر على عهد الايوبيين وان صلاح الدين بنى لفقهائه مدرستين هما الناصرية والصلاحية .

كذلك لا ينبغي ان يعزب عن بالنا ـ ونحن نحاول البحث عن خيط نمسك به راي المسيو لاوست ان ابن حزم نفسه كان شافعيا فى بداية حياته ، مما لا يبعد تأثر المنصور به فى هذه الفترة ، لاسيما وانه كان معجبا بشخصيته ويعتبره علما بارزا من أعلام الاسلام . وكم كنا نتمنى لو ان الباحث اشار الى مصدر هذا الراي او عززه بالحجج المدعمة ان لم يكن مسبوقا اليه ، واغلب الظن انه كذلك .

—●—

وما علينا ، فقد سقطت دولة الموحدين ، وكان طبيعيا ، والمرينيون يقضون عليها ، ان ينبذوا دعوتها ويعودوا الى المذهب المالكي الذي تقوى بسبب مناصرتهم له وبسبب انشاء المدارس العلمية فى مختلف المراكز ، الى جانب الزوايا والرباطات التي تضاعف عددها فى هذا العهد والعهود التالية والتي كانت مهدا لترعرع النزعات الصوفية . ويبدو أن الفقه المالكي أتيح له بالاحتكاك المذهبي فى عهد الموحدين أن يخرج قليلا عن تزمته والتزامه المثالي الجامد وأن يطرح نفسه وقضاياه من خلال مقاييس جديدة تحاول التوفيق بين النظرية الشرعية او الحكم الشرعي من جهة وبين الواقع وتطوره من جهة ثانية فى محاولة سلوك منهج جديد يعتمد التصرف ان لم نقل الاجتهاد ويسعى الى التوفيق بين المصلحتين الشرعية والاجتماعية . وكما استقرت المالكية فى هذا العصر مذهب المغاربة الفقهي بصفة نهائية، فكذلك استمرت الأشعرية مذهبهم العقدي ، لا يرون غيره فى التوحيد ولا يحيدون به عن راي اهل السنة والجماعة . وكان نتيجة للضغط الذي فرضه الموحدون على علوم الفروع أن قامت لها فى هذا العصر نهضة تمثلت فى اقبال العلماء والطلبة على دراستها وفى كثرة التآليف والابحاث التفريعية التي تناولت مختلف جوانب هذه العلوم . واذا كان الموحدون قد شجعوا دراسة أصول الفقه ، فان فقهاء هذا العصر لم يهملوا بحثه ودراسته ،

ولكن فى اطار المذهب على ان سيادة المالكية لم تكن لتحول دون حرية اتباع مذهب ما فى بعض المسائل وخاصة مذهب أهل الحديث الذي كان يميـل اليه كثير من الفقهاء كالحافظ الرحالة محمد بن رشيد السبتي (657 — 721 هـ) .

ويبدو ان فكرة المهدوية (118) التي قامت عليها دعوة الموحديـن خلفت آثارا ظلت تراود بعض النفوس لدرجة جعلت المستشرق الفرنسـي جورج مرسيه يذهب — مبالغا — الى اعتبار « الاعتقاد فى المهدي والامل فى عودة ظهوره من تقاليد البلاد . فمن بين جميع اقاليم الاسلام ، يبـدو ان المغرب كان هو الاقليم الذي سيطرت فيه على الاذهان فكرة انتظار المهدي. ولاسباب غامضة كانت منطقة سوس المكان الذي تبلورت حوله الامـال الملحة . وحتى نهاية القرن الرابع عشر (الميلادي) كان ما زال ينتظـر هنـاك » (119) .

وربما كان الهادي الماسي أول من راودته الفكرة حيث قام على عبد المومن ببلاد السوس « وهو محمد بن عبد الله بن هود الماسـي وتسمـى بالهادي وادعى الهداية اقتداء بالمهدي محمد بن عبد الله ابن تومرت وكان تصارا ببحر سلا فأقبل الناس عليه من كل مكان واجتمعوا عليه اجتماعـا طار به الذكر فى الآفاق وقامت بدعوته أمم لا تحصى واتصلت دعوتـه فى جميع اقطار العدوة حتى لم يبق منها الا مراكش وفاس وخلفت عليه سائر البلاد ورفضوا دعوة الموحدين » (120) . وكان له مع عبد المومن جـولات عسكرية انتصر عليه فيها الخليفة الموحدي .

وفى زمن الناصر ظهر العالم الأندلسي عبد الرحيم بن عبد الرحمـن الفرس الذي « انتحل الامامة وادعى انه القحطاني المراد فى قوله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلا كما ملئت جورا ... فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه وقتـل وسيق راسه الى مراكش فنصب بها » (121) .

وذكر ابن خلدون رواية عن شيخه محمد بن ابراهيم الابلــي انــــه « خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف يعرف بالتويزري ... وادعى انه الفاطمي المنتظـر واتبعه الكثير من اهل السوس ... وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة على امرهم فدس عليه الكسوى من قتله بياتا وانحل أمره . وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره » (122) .

وذكر ابن خلدون كذلك ما أخبره به شيخهالمذكور من « انه صحب فى حجه فى رباط العباد — وهو مدفن الشيخ ابى مدين فى جبل تلمسان المطل عليها — رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثيـــر التلميذ والخادم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات فى أكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا فى ذلك الطريق فانكشف لي امرهم وانهم انمـــا جاءوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قـــال لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا . ويدل هـــذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر فى ان الامر لا يتم الا بالعصبيـــة المكافئة لاهل الوقت . فلما علم انه غريب فى ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب ، أستكـــان ورجع الى الحق واقصر عن مطامعه وبقي عليه ان يستقين أن عصبيـــة الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لا سيما فى المغرب » (123) .

ولعله من الواضح فى الخبر السالف أن المغرب لهذا العهد والعهـــود التالية (124) لم يعد مجالا لترويج البضاعات المزيفة الوافدة عليه ، حتـــى ولو تسترت وراء شعارات من شأنها أن تغري العامة وتؤثر على ايمانهـــم البسيط ، وانه بالتالي قد استقر نهائيا على فقه الامام مالك مذهبا يهتـــدى به فى مختلف نواحي الحياة تشريعا وقضاء وتدريسا وتأليفا .

(1) بويع سنة خمسمائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وتوفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (1106 ـ 1143 م) . انظر اخباره في الحلل الموشية ص 68 ـ 84 ، واعمال الاعلام ص 253 ـ 256 ، والقرطاس ص 109 ـ 115 ، والاستقصا ج 2 ص 55 ـ 62 .

(2) المعجب ص : 177 .

(3) انظر تفاصيل هذه الحروب في الاستقصا ج 2 ابتداء من ص 59

(4) البيان المغرب ، ج 3 ص : 12 ـ 13 .

(5) يعني كتاب احياء علوم الدين .

(6) المعجب ص 172 ـ 173 ، وانظر كذلك في احراق الاحياء نظم الجمان ص 14 ، والاستقصا ج 2 ص 67 .

(7) بويع سنة 453 وتوفي سنة 500 وعمره تسعون عاما ، وهو اول من تلقب بامير المسلمين . انظر اخباره في الحلل ص: 13 ـ 68 واعمال الاعلام ص 233 ـ 252 والقرطاس ص 93 109 والاستقصا ج 2 ص : 21 ـ 55 .

(8) انظر التفاصيل في القرطاس ص 124 والاستقصا ج 2 ص 68.

(9) انظر ما دار بين المهدي والفقهاء المرابطين في اخبار المهدي للبيدق ص 67 واعز ما يطلب ص 4 والمعجب ص 184 ـ 185 والكامل لابن الاثير ج 8 ص 295ـ296 ووفيات الاعيان لدى ترجمة المهدي في الجزء الثاني والقرطاس ص 121 ـ 122 وتاريخ ابن خلدون ج6 ص 227 والاستقصا ج2 ص 75 ـ 76 والاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 360 ودائرة المعارف الاسلامية م 2 ص 451ـ453 ومراكش لدوفردان DEVERDUN ج 1 ص 151 وتاريخ افريقيا الشمالية (من الفتح الى 1830) لجوليان ص 92 A. JULIEN

(10) توفي المهدي سنة 524 وكانت الحرب قد بدات سنة 515 . انظر اخبارها في تاريخ البيدق ص 74 ـ 77 والحلل ابتداء من ص 90 .

(11) هو عبد المومن بن علي الكومي بويع سنة 524 وتوفي سنة 558 . انظر خبر اتصاله بالمهدي في تاريخ البيدق ص 55 ـ 57 والدعوة الموحدية ص 88ـ96 . وانظر اخباره عند البيدق حتى ص 121 وفي الحلل ص 117 ـ 131 ومغرب ابن عذاري ج 3 ص : 12 ـ 58 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 229 ـ 238 وتاريخ افريقيا الشمالية لجوليان ص 193 وكتاب مراكش لدوفردان ج 1 ص 157 .

(12) انظر تفاصيل حروب المهدي وعبد المومن مع المرابطين في المعجب ص 192 ـ 194 والقرطاس ص 123 ـ 125 والاستقصا ج 2 ص 78 ـ 84 .

(13) اسم اسرتين بربريتين حاكمتين احداهما بالمغرب ـ وهي المعنية ـ والثانية

بالاندلس ، وهي فرع من الاولى ، وكـانت لها امارة مستقلة عاصمتها غرناطة ، وذلك بعد تفكك أوصال الخلافة الاموية في قرطبـــة .

(14) انظر انتشار كلمة الدعوة الموحدية وترقب الناس لها في مصر عند ابن جبير في رحلته ص 22 - 23 - 49 - 50 .

(15) ص : 230 .

(16) ص : 130 .

(17) وهو الذي يضم الجزيرة الخضراء ومالقة وغرناطة ورندة وقرطبة واشبيلية .

(18) بويع سنة 558 وتوفى سنة 580 انظر اخباره في الحلل 131 - 132 والبيان المغرب ج 3 ص 58 - 140 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 238 - 246 ومراكش لدوفردان ج 1 ص : 199 .

(19) بويع سنة 580 وتوفى سنة 595.انظره في الحلل 132 - 134 ومغرب ابن عذارى ج 3 ص 140 - 211 وتاريخ شمال افريقيا لجوليان ص 112 ومراكش لدوفردان ج 1 ص 208 وكتاب عصر المنصور لمحمد الرشيد مليـــن .

(20) هو أبو عبد الله الملقب بالناصر بويع سنة 595 وتوفى سنة 610 ، انظر فيه مغرب ابن عذارى ج 3 ص 211 - 243 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 246 - 250 وتاريـــخ شمال افريقيا لجوليان ص 116 .

(21) كانـــت هـــذه الواقعـــة سنـــة 609 .

(22) هو أبو يعقوب يوسف بن محمد الملقب بالمستنصر بويع سنة 610 وتوفى سنة 620 انظر اخباره في مغرب ابن عذارى ج 3 ص 243 - 247 وانظر اخبار الموحدين النـــاء ولاينه فما بعد في تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 250 - 262 .

(23) هو ابو محمد عبد الواحد بن يوسف بويع سنة 620 ولم يستقر له الامر غير شهرين ثم خلع وقتل وهو أول مخلوع ومقتول في الموحدين وكان مقتله سنة 621 انظر اخباره في ابن عذارى ج 3 ص 247 .

(24) هو ابو محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل بويع سنة 621 وطلب منه منافســوه التنازل فرفض وقال لهم : ((اصنعوا ما بدا لكم فو الله لا أموت الا أمير المومنين)) فوضعوا راسه في فسقية ماء حتى مات مخنوقا وذلك سنة 624 .

(25) هو ابو العلاء ادريس بن المنصور الملقب بالمامون بويع سنة 624 وتوفى سنة 629 ، انظره في الحلل 136 - 139 .

(26) هو عبد الواحد الرشيد بن المامون بويع سنة 630 ومات غريقـا في أحـد صهاريـج بستانه بمراكش سنة 640 .

(27) هو ابو الحسن علي المدعو السعيد والمتلقب بالمعتضد بويع سنة 640 ومات مطعونا سنـــة 646 .

(28) هو ابو حفص عمر المرتضى بويع سنة 646 وقتل سنة 656 .

(29) هو ابو العلاء ادريس ولقبه ابو دبوس الواثق بالله المعتمد على الله بويع سنة 665 وقتل سنة 674 وبقتله انقرضت دولة الموحديـــن .

(30) انظر اخبار نزاعات الموحدين فى مغرب ابن عذارى ج 3 ابتداء من ص 248 .

(31) النبـــوغ ج 1 ص 100 .

(32) ص 89 وانظر اتباع المهدي واصنافهم مفصلة قبائلهم وبعض أسمائهـم فى المقتبس 32 ـ 48 واخبار المهدي 73 والمعجب 188 واعمال الاعلام 268 ـ 269 وتاريـخ ابـن خلدون ج 6 ص 470 والدعوة الموحدية 178 ـ 179 .

(33) انظر ما كتبه المهدي فى ((أعز ما يطلب)) تحت عنوان : (باب فى بيان طوائف المبطلين والملثمين والمجسمين وعلاماتهم) ص 258 .

(34) الحلـــل 90 .

(35) وفيات الاعيان ج 2 ص 38 وانظر فى القرطاس 128 بعض حيله الاجرامية .

(36) فى حـــوادث سنـــة 514 .

(37) صاحــــب المهـــدي .

(38) تاريخ البيدق ص 78 وانظر كذلك الحديث عن عملية التمييز فى الدعوة الموحديـة ص 221 .

(39) القـــرطـــــاس 141 .

(40) المعجـــــب 238 .

(41) انظر مقدمة ابن خلدون ص 222 والاستقصا ج 2 ص 162 .

(42) انظر تفاصيل هذه النهضة الصناعية بالقرطاس ص 28 وتقدم العرب ص 147 ـ 166 ـ 250 .

(43) انظر فى الحالة الاقتصادية لمراكش على عهد الموحدين كتاب دوفردان ج 1 ص 278 ـ 287 .

(44) انظر بحثا حول الدراهم الموحدية فى مجلة هسبيرس 2 ـ 1
Hesperis 1 - 3 Trim 1933 - Fas 1 - 2

(45) يعتبر المامون اول من فعل ذلـك .

(46) انظـــر القـرطـــاس ص 178 ـ 179 .

(47) 674 ـ 869 هـ (1275 ـ 1464 م) .

(48) 633 – 737 هـ (1236 – 1337 م) .

(49) 626 – 981 هـ (1228 – 1574 م)

(50) انظر اخبار الفاتحين والولاة الاول فى الاستقصا ج 1 ص 78 – 136 .

(51) قاد الجيوش العربية الى افريقيا فى خلافة معاوية من سنة 50 الى 55 ثم فى خلافة ابنه يزيد من 60 الى 64 .

(52) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 110 .

(53) الاباضية أتباع عبد الله بن اباض ، وهم اكثر فرق الخوارج اعتدالا ؛ والصفرية أتباع زياد بن الاصفر .

(54) وفيات الاعيان ج 1 ص 137 .

(55) ص 27 .

(56) ج 1 ص 25 – 26 ، ط المغرب .

(57) المصدر السابق

(58) المقدمة ص 375 .

(59) نفس المصدر .

(60) النفح ج 1 ص 328 .

(61) مما قد يدخل فى نطاق الاسباب ما ذكر المقدسي فى أحسن التقاسيم من أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوما أمام السلطان ، فقال لهم : من أين كان ابو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، فقال : وما لك ؟ قالوا : من المدينة . قال : عالم أهل المدينة يكفينا وأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة ، وقال : لا احب أن يكون فى عملي مذهبان .

(62) القرطاس 88 .

(63) فى الحلل انه ((كان يقال لوالده تومرت وامغار واسافو ومعناه بلسان البربرية الضياء لاقاده الضياء فى المسجد)) ص 85 .

(64) المقتبس ص 21 وانظر نسب المهدي فى نظم الجمان 34 ، واذا كان البيدق وكذلك المراكشي يقبلان نسبه فان ابن ابي زرع وابن خلدون يشكان فيه ، انظر اخبار المهدي فى الكتب التي تحدثت عن الموحدين وانظر ترجمته خاصة فى كتاب البيدق وجزء من نظم الجمان والقسم الثالث من أعمال الاعلام ص 266 – 271 ووفيات الاعيان ج 2 وازهار البساتين ص 77 – 134 والدعوة الموحدية ، ويعتبر تاريخ البيدق من أوثق مصادرنا عن المهدي ولكن ما وصلنا منه لا يتحدث فيه عنه الا

ابتداء من وصوله الى تونس فى طريق العودة ، وهذا ما يجعل كثيرا من الغموض يتصل بحياته ابتداء من تاريخ ميلاده الذي لم تشر اليه كثير من المصادر المهمة مثل المعجب والقرطاس . واذا كان ابن خلكان يؤرخ لولادته فى سنة 485 فان ابن الاثير يراها بين عامي 469 و 473 على أساس انه حين توفي سنة 524 كان عمره ما بين 51 و 55 عامـا .

(65) انظر رحلة المهدي الى المشرق فى المصدر السابق ص 3 ولعل خروجه من سوس كان سنة 501 .

(66) المعجب 178 .

(67) وفيات الاعيان ج 2 ص 37 . والهراسي هو ابو الحسن علي بن محمد بن علي الفقيه الشافعي ، كان يدرس بالنظامية فى بغداد ، توفى سنة 504 ، اما الطرطوشي فهو ابو بكر محمد بن الوليد صاحب كتاب ((سراج الملوك)) ولد فى طرطوشة سنة 451 ورحل الى المشرق فى طلب العلم سنة 476 فدرس فى بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وانتهى به المطاف فى الاسكندرية فاقام بها الى ان توفى سنة 520 .

(68) انظر شيوخ المهدي المشارقة فى الحلل 85 وانظر دراسته عامة فى الدعوة الموحدية ص 57 – 80 .

(69) على طريقة المعتزلة .

(70) كقوله تعالى : ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام (الرحمن 27) الرحمن على العرش استوى (طه 5) يدالله فوق أيديهم (الفتح 10) .

(71) على طريقة الاشاعرة .

(72) العبر ج 6 ص 226 .

(73) أعز ما يطلب ص 237 (فصل فى اسماء الله تعالى) .

(74) المعجب 188 .

(75) الملل والنحل ج 1 ص 57 – 61 .

(76) الكامل فى التاريخ ج 8 ص 294 فى حوادث سنة 514 لدى تعرضه للمهدي .

(77) ج 2 ص 37 .

(78) المعجب 178 .

(79) المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص 107 .

(80) ص 122 – 123 .

(81) العبر ج 6 ص 226 .

(82) انظر الجزء الاول من الاحياء .

(83) انظر تاريخ البيدق ص 125 والمعجب ص 212 وابن خلدون ج 6 ص 485 والمن بالامامة ص 31 والمصادر المذكورة .(84) عند ابن خلكان انه قامبدعوته سنة 511 وعند ابن خلدون أنه قام بها سنة 512 . اما المراكشي فجعلها في سنة 514 .

(85) انظر بعض مظاهر تغييره للمنكر في كتاب اخبار المهدي 60 — 67 .

(86) المعجب 184 .

(87) انظر أصحاب المهدي في نظم الجمان ص 27 . ولقد كان له أصحاب في مصر يؤيدونه ويناصرونه ذكر اسماءهم صاحب المقتبس ص 31 — 32 .

(88) تنملل أو تينمال كلمة بربرية معناها ذات السطوح المغروسة . وهي قلعة على بعد مائة كلم من مراكش في اتجاه تارودانت بنى بها عبد المومن مسجدا لا يزال قائما حتى اليوم . وبها دفن المهدي وعبد المومن ويوسف والمنصور . انظر الادريسي ص 64 والاستقصا ج 2 ص 78 والمشاهد والقلاع لتراس وباسي ص 37 واطلال تنملل لفريول بهسبرس سنة 1922 ص 162 — 163 .

(89) طبع النص العربي في الجزائر سنة 1903 بنشر لوشياني ، قدم له المستشرق جولد تسيهر بمقدمة ترجمها من الالمانية الى الفرنسية الاستاذ جود فروادى مومبين ، وطبع بعد ذلك في مصر ضمن ((مجموع رسائل)) نشره الشيخ محى الدين صبري الكردي .

(90) الاستقصا ج 2 ص 83 .

(91) الحلل 89 — 90 .

(92) المعجب 187 وانظر في بيعة المهدي تاريخ البيدق ص 73 . ويعتبر ابن تومرت ثاني مهد منتظر بعد عبيد الله الفاطمي الذي بويع مهديا بسجلماسة سنة 297 ، أي قبل ابن تومرت بنحو مائة وثلاث وتسعين سنة اذ ان مهدي الموحدين بويع سنة 515 .

(93) المصدر السابق 193 .

(94) انظر الاستقصا ج 2 ص 75 .

(95) القرطاس 135 وانظر الكامل ج 2 ص 295 .

(96) من رسالة لعبد المومن بعث بها الى أهل بجاية(انظر مجموع رسائل موحدية ص 135)

(97) ص 278 — 279 .

(98) القرطاس 138 .

(99) المعجـــب 292 .

(100) المصـــدر السابـــق 291 .

(101) الحلـــل 137 ـ 138 .

(102) يبدو من الدراهم الموحدية ـ وهي ذهبية وفضية ونحاسية ومربعة الشكل ولعلها لم تسك الا ابتداء من عهد عبد المومن ـ انها تمثل مرحلتين : الاولى فى ظل عبد المومن ومن جاء بعده من الخلفاء الذين كانوا يعترفون بامامة المهدي فقد كان مكتوبا على وجهبعضالدراهم وانصافها فيهذا العهد الله ربنا ـ محمد رسولنا ـ المهدي امامنا . الثانية بعد رفض امامة المهدي اي ابتداء من عهد المامون وكان مكتوبا عليها : الله ربنا محمد رسولنا القرآن امامنا .

(103) الحلـــل 137 .

(104) الحلل 137 ـ 138 وانظرها فى البيان المغرب ج 3 ص 267 ـ 268 .

(105) القـرطـــاس 179 .

(106) البيـــان المغـــرب ج 3 ص 305 .

(107) المتوفى سنـــة 592 .

(108) انظر بحثا للكاتب عن ((مناهج الاندلسيين فى دراسة النحو)) (مجلة دعوة الحق عدد 5 سنة 5 فبراير 1962 م .

(109) الفصل فى الملل والاهواء والنحل ج 4 ص 2 ـ 3 .

(110) تاريخ الفكر الاندلسي ص 238 .

(111) انظر مقدمـة كتاب اعز ما يطلب .

(112) انظر اعز ما يطلب ص 17 ـ146 .

(113) المصـــدر السابـــق ص 230

(114) المصـــدر السابـــق ص 163 .

(115) انظر فى كتاب اعز ما يطلب فصل (الدليل على ان الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه) ابتداء من ص 163 .

(116) H. LAOUST: LES SCHISMES DANS L'ISLAM - P. 235

(117) تاريـــخ الفكـــر الاندلســي ص 436 .

(118) انظر فيها مقدمة ابن خلدون ص 274 .

(119) 259 – 260 Georges Marçais : la Berberie Musulmane et l'Orientau M. Age p.

(120) الحلل 121 وانظر كذلك البيان المغرب ج 3 ص 26 والقرطاس 133 والاستقصا ج 2 ص 99 .

(121) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 250 .

(122) المقدمة ص 274 – 275 .

(123) المصدر السابق .

(124) نسجل هنا أن احمد الاعرج السعدي كان يلقب بالمهدي (انظر تاريخ الدولة السعدية ص 5) .

الصحراء... في فجرها الموعود

محمد مهدي الجواهري

القى الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري، هذه القصيدة مع قصيدة « تحية » فى السهرة الشعرية التى نظمتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى ليلة 3 رمضان 1394 الموافق 20 شتنبر 1974 ، بمسرح محمد الخامس بالرباط ، وقد نجحت الحفلة نجاحا كبيرا ، ووقع عليها اقبال شديد من جانب المثقفين والادباء ورجال الفكر .

احببنا نشر هذه القصيدة الرائعة – التي كانت تقاطع بالتصفيقات الحادة – لموضوعها الذى يشغل بالنا ، والذي يعتبر موضوع الساعة .

صحراء فجرك موعود بما يلد ... والمغربيون اكفاء بما وعدوا

على جبينك من نضح النجوم ندى ... وفى رمالك من حباته نضد

وانت من وطن يصفيك مهجته ... دم بتآموره تستصلح الكبد

صحراء يا حرة مكمودة عنتا ... مهلا فكم فرحة وافى بها كمد

ستحمدين على العقبى حلاوتها ... كما تقطر بعد العلقم الشهد

لا بد فوقك يوما خافق علم ... يضم شمل بنيه اينما وجدوا

يحمون سارية تعليهموا شرفا ... ورفرفا منه يدنيهم اذا بعدوا

صحراء كم رثة ضمت معالمها ... ما ينفع الناس خيلت انها زبد

حتى اذا بان لمح من معالمهــــا ... مدت اليها من الست الجهات يد
صحراء لا يعدل الدنيا وزخرفها ... الا النقيان منك الروح والجسد

— ◆ —

ساءلت نفسي بما يعيا الجواب به ... وما اريد له عذرا فــلا اجـــــد
ما بال(مدريد)تشكو العسرمعدتها ... وتستزيد بما لا تهضـم المعــد
اتشرب البحر فى علاومها غلـق ... وتقضم الصخر فى لثاتهـا درد
ويسخر الخلق منها اذ يرى عجبا ... صحراء مزروعة بالموت تزدرد
غرت باجنحة شدت بجانحهـــا ... فالتنفرد نحونا ابان ينفـــــرد
لنا غد يتحدى الطامعين بنــــا ... وعندها ما يسر الطامعين غــد
لم يكسنا الزهو ايام بها سلفت ... فهل ستبطرها ايامهـا الجـدد
لنا عليها من «« الحمراء »» شاهقة ... لم يلف اروع منها زينة وتــــد
كانها فى ربى «« غرناطة »» شفق ... مدى الاصائل باق سحره ابـدا
تزيد عن كل ما ابقى تراثهــــم ... وان هم انتقصوا منها ولم يزدوا
يبني الحضرات عجلان يزخرفها ... فتسترد ويبقيهــن متئـــد
عودت شعبك يا مدريد عن نكـد ... لو لم يكن من صنيع الساسة النكد
قد شد ساعدنا المبسوط ساعده ... لو ارتخي عنه حبل مبرم مسـد
وخير من مج طعم الاضطهاد فم ... ما انفك يسقيه كاس الذل مضطهد
من مبلغ السادة العميان ارهقهم ... حرمانهم ، وتعاصت فيهم العقد
عموا ومذ بصروا بالدرب مشرعة ... صموا فما افتقدوا شيئا ولا وجدوا
ان الليالي عجيبات بهـا حــرن ... لمسلسين واسلاس لمن صمدوا

مشى عليهم فهم فى قعره صبب ... ركب من الدهر حث سيره صعد
وما يحول الضحى لونا ولا شية ... ولا السماء ولا الصبح الذي تلد
وانما هي صفو عند ذي بصـــر ... صاف ، ورمداء فى عين بها رمد

— ◆ —

يا حارس الوطن المرهوب جانبه ... عليه مما بنى تاريخه رصـــــد
فاءت اليك بما ضمت وما تلـــد ... كما يفيء لظل الوالد الولـــد
صحراء يوحشها عوى الذئاب بها ... ويستطوى سمعها ان يزار الاسد
غضبان ردت على اليافوخ عفرته ... وارتج غيظ على أكتابه اللبـــد
ينهي لمن كان فى سهل وفى جبل ... أن لا يحوم حوالي غابه أحـــد
واستشفعت بك للسقيا مطامحها ... محلئات عن الحوض الذي تـــرد
واستنجدت بك أن تحمي مصائرها ... بذاك عودها آبـاؤك النجـــد
تمضي على سنن منهم وعن ثقـة ... وملتاى فرقد عن فرقد صـــدد

— ◆ —

شهدت يومك مرنان الصدى عرما ... يحتج من سمعوا عنه بمن شهدوا
غامت كما اسود «كانون» سماوتها ... ولحت فيها كضوء الجمر تتقـــد
شهما تنفض عن برديك غبرتهـــا ... وقد توالت بنات الدهر تحتشد
وكان فصل خطاب فيه ملحمـــة ... من البيان ، وفيه الهدي والرشد
ما كان ابرعه مزجا تصب بـــه ... مر الوعيد على حلو بما تعـــد
شهرت امضي سلاح لا يقوم له ... لا المرعدات ولا المحمية الزرد

ما اعظم الشعب يرمي عن كواهله   عبء الخلاف لدى البلوى ويتحد
زففت بالعودة البشرى لتربتهـا   ومن عليها فكل صادح غـــرد
انعشت منها فؤدا ظل محتسبـا   لدى الدخيل كئيبا فهو يفتـاد
صحراء محزونة ان يستبد بهـا   نوى فتفقد من تهوى وتفتقـد
وان تغادر اوصـالا ممزقـــة   وأن يطن لها عن ساعد عضـد
غمت عليها رؤى كانت تطوف بها   جنلى من الوطن الغالي وتنعقد
تمتد بالعين حتى لا مـرد لهـا   ولا مساف ، ولا بعد ، ولا امـد
وبدلت غبشا اطياف مهجتهـا   كما تبدل بؤسا عيشة رغـــد
كانت تلم عناقيـدا معرشـة   من النجوم بمرج معشب تقـد
وتستريح الى نجوى الرياح بهـا   تخالها صوب ارض حلوة تفـد
واليوم واحاتها قفر ، ونسمتها   صر ، وكل مسيل فوقها جمـد
ولم اجد كسليب الارض حاردة   محمومة بالدم الحـران تبتــرد
تسقى وتسقى وما تنفك عاطشة   وليس ينفك من يسقى ومن يرد
حتى اذا استرجعت عادت بشاشتها   وعاد زهو الحياة العابس الحرد

— ◆ —

مشى اليك يجد البيعة البلـــد   عليك في الخطب بعد الله يعتمد
يلقي باثقل حمليه على كتـــد   من عاتقيك اذا ما خانه كتـــد
واستعصمت بك احزاب وقادتها   يلتف مغترب منهم ومبتعــــد
عيد الاخاء جلا الباغون بهجتـه   لو جاز حمد بغاة مثلهم حمـدوا
عقائد ورسالات تلـم بهـــا   رسالـة يـوم لأواء وممتقـــد

لليوم ما اجتهدت صماء قارعة — وفي غد فلهم فيه وما اجتهدوا

مستأمنون على خير البلاد مشت — للمشرقين على أيديهم برد

أيد تلاقت واضحت في الجهاد يدا — تشتد بالحسن الثاني وتعتضد

لهم وللناس والاوطان ما زرعوا — على البسيطة من خير وما حصدوا

وبورك الامر شورى يستقيم به — على عثار الليالي نهجه الجدد

وما الكمي على جيش يصون به — مثل الكمي غداة الروع ينفرد

— ◆ —

ابا محمد سمحا جرس مالكة — سمحاء لا زيغ فيها ولا اود

من واقف في سبيل الناس مهجته — في حبهم يستطاب الأين والسهد

لم يعرف الدهر لا حقدا ولا حسدا — وان تشفت به الاحقاد والحسد

افرغت جهدك في التبليغ ما اتسعت — له العلى، والنهى، والحلم، والجلد

فحسبك اليوم منه ما ابنت به — للكون شوكة عز ليس تختضد

واعمد لاخرى تنهي بها مناجزة — ليس الخصام بمنهيها ولا اللدد

ان الطغاة اذا لاينتهم بطروا — مثل الصغار اذا دللتهم فسدوا

ومنطق الحق مشلول ، ومصطلح — خزيان مضطهد عات ومضطهد

لا بد من جولة تنجاب غمرتها — عن صامدين على حق بما وعدوا

فخل جندك جند الحق يقحمها — وخل خيلك خيل الله تضطرد

وفي حماك صناديد يضيق بهم — درع الجلاد ويغشاهم اذا اجتلدو

سمر الوجوه شداد من شكيمتهم — ظل على التربة السمراء ينعقد

من كل منفتل الكشحين محترب — ينسل كالسيف عريانا وينجرد

لم تأل خيفة أشبــاح مغاربــة فرائص من بني صهيون ترتعــد
فصد دما مغربيا لا كفاء لـــه بين الدماء زكيات ولا قـــود
دما يسيل على سوح الندى سرفا وانه مثل دمع العين يقتصــد
فصده تنجد به الصحراء في غدها عرقا بأمس على الجولان يفتصــد

— ◆ —

يا ناثرين على البلوى نفوسهــم طوعا ، فهم كسر في سوحها قصد
يهدون للشرق أرواحا اذا عصفت بالموت ريح قــرة صـــرد
وزارعين على بعــد قبورهــم نوم الغريب على الاحجار يتسـد
طيخاء ملغومة بالرعب موحشــة وكل شاهدة نجم بهـا يقـــد
نهجتم الدرب سمحاء شريعتـــه بالتضحيات لمن يسعى ومن يفد

— ◆ —

صحراء فجرك موعود بما يلــد والمغربيون أكفاء بمـا وعـــدوا

طنجـة محمد مهدي الجواهري

من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي

الخطيب ابن مرزوق *

د. محمد ابن شقرون

ان وحدة المغرب العربي التى ننشدها اليوم ونحاول تحقيقها بوسائل مختلفة ، وفى مجالات متعددة، كانت قائمة بالفعل ومتجلية بصفة تلقائية فى كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التى كانت تطبع دول المغرب العربي فى حقبة معينة من تاريخ هذه الدول. فمحاولاتنا الحالية الرسمية وغير الرسمية تستند الى أسس قوية وجذور عميقة تمت الى الماضي بأكثر من صلة . وليس ابن مرزوق الذي ندرسه اليوم الا مظهرا واضحا من هذه المظاهر الثقافية المشتركة بين اقطار المغرب العربي ونموذجا من نماذج فكره .

فهو من الشخصيات اللامعة التى طبعت ادبنا بطابع خاص، وتركت اثرا ملحوظا فى ثقافتنا بعد أخذها الشيء الكثير من بيئتنا ونيلها قسطا

وافرا من الفوائد المادية والمعنوية والثقافية التى كان مغربنا يوفرها لكل من استظل بظل ملوكه وانضم الى مجالس علمه وانخرط فى سلك قضاته او قواده .. سواء أقدم من الجزائر أم من الاندلس أم من غيرها .

ومهما يكن من امر فابن مرزوق هذا معروفة حياته، واضحة آثاره، ذائعة شهرته ، الا ان هذه الحياة وهذه الشهرة لا تتجاوزان المستوى العام وحدود المعرفة المبنية على تناقل الاقوال والاحكام ، حدود المعرفة الخارجية الظاهرة التى تكتفي بما يرد فى الروايات ، وما يستخلص من المنقولات والملخصات ، لذلك نرى من الضروري الرجوع الى الشخص نفسه لنتعرف عليه فى بيئته، وفى تجاوبه مع اصدقائه ورؤسائه ، ومن خلال الظروف والملابسات التى احاطت به ، لندرك هويته النفسية والثقافية كما كانت عليه ، كما يجب ، تكميلا للبحث ، ان نستقصي آثاره ونلم بمحتوياتها للوقوف على ما فيها من عناصر ايجابية واخرى سلبية ونطلع على ما تأثر به وما أثر به ما أخذه وما اعطاه ولنقيم بالتالي الدور الذى قام به فى توحيد الثقافة بين المغرب الاقصى ودول المغرب العربي الاخرى .

والملاحظة التى نقوم بها باديء ذي بدء هي ان ابن مرزوق الذى نتحدث عنه اليوم كثيرا ما يكون موضوع التباس وغموض فى كثير من التراجم والنصوص ، ذلك ان المرازق كثيرون وان اسرتهم وافرة العدد ، ومتشعبة العناصر ، ومتعمقة الجذور والاصول . انجبت من الادباء والفقهاء والعلماء الفطاحل عددا يصعب حصره ويعسر ذكره فى هذا المجال . فهناك على سبيل المثال ابن مرزوق الكفيف وابن مرزوق الحفيد وغيرهما ممن اختلط اسمه بكاتبنا ونسب اليه مما هو بحق لمترجمنا (1) .

فابن مرزوق الذى يعنينا هو ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد ابن محمد بن علي ابي بكر العجيسي تميز عن غيره بالالقاب التى يحملها والتى عرف بها وعرفت به وهي شمس الدين، والخطيب، والجد.

ولد بتلمسان سنة 710 / 1310 (3) او سنة 711 / 1311 وفيها تلقى دراسته الاولى تحت رعاية والده العالم المحقق الذائع الصيت والقوي الذكر الشهير بين اقرانه بفزارة علمه وبصلابة رايه وبورعه ووقاره . وفى سنة 818 / 1319 (4) غادر الابن مسقط راسه متوجها الى المشرق حيث مكث ما يربو على خمس عشرة سنة . وتعتبر هذه الرحلة الاولى مرحلة حاسمة من مراحل حياته اذ فيها استطاع التجول فى عدة مدن من بلدان المشرق (5) والتعرف على حياة اهلها ونظمها والاتصال بعلمائها وفقهائها والتتلمذ لكثير من نبغائها حتى ان عدد شيوخه بها بلغ على حد قوله مائة وخمسين شيخـا (6) ، وهو عدد له ما له من أثر فى تكويـن شاب متعطش للعلم والمعرفة ، حريص على تقوية مداركه وتنويع مناهله وتكثير مصادر تنمية عقله وروحه .

وبعد انقضاء هذه المدة قفل راجعا الى المغرب سنة 733 / 1332 اي بعد استكمال دراسته الاساسية والتأكد من رسوخ قدمه . فاتضح له ولغيره انه اصبح من النبغاء المحدثيـن المفتيـن ، والادباء والمؤرخين ، رغم سنه التى لم تكن تتجاوز ثلاثا وعشرين سنة .

وهنا تبدأ مرحلة اخرى من مراحل تطوره وتتفتـح امامـه آفـاق تنبيء بازدهار مستقبله وتفسح له مجالات يستغل فيها مواهبه ، ويؤكد شخصيته ، ويطلق العنان لنزعاته وانانيته ، كاشفا عن اغراضه واهوائه، وعن حقيقته المتحكمة فى ساوكه ، مستكملا تكوينه ، ومعمقا ابحاثه فى البيئة الجديدة التى فتحت له ابوابها ، ورحبت به بين علمائها ، وتحت رعاية ملوكها .

ذلك ان السلطان المريني ابا الحسن (7) كعـادة ملـوك هـذا الوطن ، ما ان سمع بخبر الشاب المثقف ونبوغه المبكر حتى اوفد اليه من استقدمه واوصله به فعينه خطيبا بجامع العباد فكان عند حسن الظن وبرهن عن المقدرة المتوخاة، وزاد فى تأدية المهمة المنوطة به وكشف عن استعداد خاص جعله اهلا لثقة السلطان الكبير الذى اعجب باستقامته وبورعه ، وبتفتق ذهنه وقوة ذكائه، فقربه منه مرة اخرى حتى اصبح وثيق الصلة به، مستأنسا به، لا يقوى على مفارقتـه فى سرائه وفى ضرائه لما

توسمه فيه من شجاعة واخلاص وطرافة وانبساط وفكاهة (8) ورهافة احساس فادرك لديه منزلة عظمى ومكانة مثلى لا يتطلع اليها الا من سمت مداركه وعلا كعبه وتألق نجمه فى دنيا الثقافة والعلم .

وبالفعل فقد تحقق لابن مرزوق ما كان يصبو اليه ، ويطمع فى بلوغه من المنى والعز والسؤدد ، وقوة النفـوذ . اذ اصبح يلج البلاط كعضو من الحاشية وانتظم فى سللك الجلساء والمؤنسين الخواص الذين يتكون منهم مجلس السلطان فى بيته ، وما زال كذلك يترقى ويتدرج فى سلم الرقي الى ان أصبح خادما له ، ثم خطيبا فى مسجده، ثم كاتبا لسره، واخيرا استاذه الذى أفاده فى حله وترحاله (9) .

فكان طبيعيا ، والحالة هذه ، ان يكلف بهام دبلوماسية وغيرهـا بقسنطينية واسبانيا حيث ابرم باسم مخدومه معاهدة صلح مع ملـك قشتالة الادفونش الحادي عشر .

وهكذا بلغ القمة ، فى اوج عز الدولة المرينية ، لكن طموحه القوي دفع به الى الامام ، فانساق وراء شهواته ، وانزلق فى مهاوي قضت على سمعته ، وحطمت كثيرا من مكاسبه ، وافقدته تلك المكانة المرموقة التى كان ينعم بها قبل وفاة ابي الحسن . ادلى بدلوه فى ميـدان السياسة فلقي من نتائجها ما يلقاه كثير من المغامرين، والمتقلبين، والمذبذبين اذ سجن وعذب بأمر من السلطان أبي ثابت ففر هاربا الى العدوة الاندلسية ناجيا بنفسه ، حيث عين خطيبا لجامع الحمراء بغرناطة (10) .

ومع ذلك فلم يتعظ ويكتف بما حققه من اغراض مادية ومعنويـة فيلتزم السكينة والوقار ، ويترفع عن الدناءة والسفاسف والاستهتار ، ويتعالى عن كل ما يوقعه فى شبكة المحتالين والدساسين وفى قفـص المتهمين غير التائبين ، فكان مصيره مرة اخرى الاعتقال والعقاب عندما أمر امير المؤمنين السلطان ابو عنان بسجنه مدة بلغت ستة اعوام .

فكان المفروض فيه بعد هذه التجربة القاسية ان يرجع الى ربه فيقوم سلوكه ، ويكبح جماحه ويهديء عواطفـه واعصابـه ويجتنـب الافراط

والتقريط ويصلح ما فسد بينه وبين الدولة التى ما فتئت ترعاه وتغدق عليه ـ كما كانت تفعل مع غيره ـ تكريما لعلمه وتعزيزا لنفوذه المعنوي والروحي ، الا انه أعاد الكرة (11) واستأنف نشاطه طمعا فى المزيد من الكسب والمال والجاه ، والظهور بمظهر المنتصر على خصومه فى اقرب الاوقات ، فاتصل بالسلطان ابي سالم ابراهيم (12) فنال فى كنفه ما لم يسبق أن ناله فى يوم من اايامه الزاهرة ، اذ تولى الوزارة ، فأصبح ينعم بالراحة والاطمئنان وهو من اقرب المقربين ، وفى الدولة من رجالها المرموقين . لكن هذه النعمة سرعان ما تحولت نقمة ، وشاءت الاقدار ان ينزل ابن مرزوق عن كرسي الوزارة وينضم الى صفوف المعتقلين نادبا حظه ، ونادما على ما صدر منه ، فرحل الى تونس عله يسترجع معنويته ، ويعوض خسارته فبادر باسماع صوته الى ملك تونس آنذاك السلطان ابي اسحاق ابراهيم الحفصي وابلاغه ما حل به وما يروج بخاطره مستعطفا اياه ، ومؤثرا فيه ببلاغته ، ولباقته ، وكياسته ، وعلمه وحسن تفهمه للمشاكل القائمة بينه وبين خصومه بني مرين ، فاستجاب له ابو اسحاق وشمله بعطفه ورق لحاله ، فعينه خطيبا ثم عضوا فى مجلسه العلمي الخاص .

ومع ذلك لم يستقر له مكان ، ولم يدم له مقام فى هذه الديار ، فقرر الرحيل الى الشرق ، وغادر تونس سنة 773 / 1372 فحط بالقاهرة ورجع الى نفسه يحاسبها ويسائلها عما اقبلت عليه وادبرت ، ولازم التدريس ، وانكب على التأليف ، الى ان وافاه الاجل المحتوم سنة 381 / 1379 .

تلك كانت حياة ابن مرزوق الخطيب اوجزناها متعمدين واكتفينا بابراز معالمها الكبرى ، وايضاح خطوطها العريضة ، لمساعدة القاريء على تفهم الجانب الفكري منها . وهو الذي يهمنا هنا اكثر من غيره وتتبع تطور انتاج مترجمنا ومعرفة دوافعه وعوامله ، والا فالمراجع كثيرة ومتنوعة حاولنا استقصاءها فى هذا الموضوع وتقديمها (13) للباحث الراغب فى المزيد من هذه المعلومات عن حياة المؤلف الذى ندرسه والتعمق فى هذا الجانب الذى لخصناه وجعلناه مطية لغرض آخر سنحققه .

ـ اربعون حديثا (24): مجموعة احاديث نبوية رواها عن اربعين شخصا بالسند الى اربعين صحابيا تتعلق بأربعين موضوعا مختلفا وعنوانها بالضبط : الاحاديث الاربعون النبوية فى مرويات الخلافة العلوية .

ـ تيسير المرام فى شرح عمدة الاحكام (25) : وهو شرح لعمدة الاحكام من كلام خير الانام لابي محمد عبد الغني المعروف بتقي الدين المقدسي الجماعيلـــي

ـ ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب (26) :

ـ شرح الاحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي (27) :

ـ جنى الجنتين فى شرف الليلتين (28) : يتعلق الامر بكتاب جديـر بالتحليل برهن فيه مؤلفه عن ثقافته الواسعة وعن قدرتـه على المناظـرة والغوص فى علمي الاصول والفروع ، ولا غرابة فى ذلك فابن مرزوق كلما قلنا حجة فى هذاالميدان .

وخلاصة ذلك ان المؤلف عقد مقارنة بين ليلة القدر وليـلة المولـد النبوي للمفاضلة بينهما فانطلـق بعيـدا يحلـق فى اجـواء فسيحـة بحثا عن الحجج والادلة لتدعيم موقفه وتعزيز رأيه .

والواقع أن الامر يتعلق ببحث طريق جديد فى منهجه ، اصيل فى بابه ، فريد فى نوعه ، لم يسبق لاحد ، على ما فى علمنـا ، ان عالجـه بمثل هذا الاسلوب، فكان موضوعا من مواضيع الاجتهاد لا من مواضيع النقل يتوفر فيه الباحث على نص يعتمد عليه لتبرير موقفه .

ونظرا لاهمية هذا البحث يجدر بنا ان نتساءل عن الاسلوب الذى اتبعه فيه مؤلفه . لقد استهاله بمقدمة طويلة اقحم فيها نفسه مرة اخرى ليتحدث عن نشأته وحياته وخيبة امله والمحن التى قاساها والمغامرات التى مر بها ، والغربة التى يشعر بها عندما طولب منه الادلاء برايه فى هذه المسألة الشائكة . لقد هجره الاهل والاحباب والاصحاب ، واصبح

قوي ، متخصص فى علم الروايات والآثار ، ومؤرخ مطلع على اخبار الامم وتجاربها وشؤونها الاقتصادية والاجتماعية ونظمها السياسية وغيرها ، ثم هو الى ذلك خطيب بليغ مشهور بخطبه فى المغرب والمشرق (16) .

وفى هذه الآثار كذلك نجد ما لا يوجد فى الخزانات ونعثر على ذكر مصنفات قلما سمعنا بها لان مؤلفها هو الذي كشف لنا عن اسمائها (17) وشيء من محتوياتها فعلى الباحث ان يرجع اليها لا ليتصفحها بل ليقرأها ليقف على ما فى ثناياها من معلومات واضافات ووثائق مغمورة فى حاجة الى النشر وباختصار فان نشاط هذه الشخصية الثقافية اللامعة التي تنتمي الى جميع دول المغرب العربي فى اصلها والتى تتمثل فيها وحدة ثقافتها يتجلى فيما سنفصله فى المواضيع الآتي ذكرها :

التاريخ :

1 ـ المسند الصحيح الحسن فى اخبار مولانا ابي الحسن (او فى اخبار ومآثر مولانا ابي الحسن) :

هذا كتاب خاص بالسلطان المريني ابي الحسن كما يدل عليه عنوانه خصصه له خادمه ابن مرزوق للتعريف به وبنسبه وبخصاله وآثاره ، وبأوجه نشاطه اليومي وسائر اعماله وتصرفاته ومواقفه من الشرفاء والعلماء والمتصوفة والقواد والعمال .. وبالجملة فهو سجل حافل بالاحداث التى عاشها المغرب فى عهد هذا الملك وزاخر بمعلومات ـ قلما نجدها فى مؤلفات اخرى ـ تتعلق بالدولة المرينية ونظمها السياسية والاجتماعية وعادات المغرب من حيث المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك من الطقوس الدينية والاجتماعية التى لا يمكن تفصيلها هنا . نعم ، يتعلق الامر بمؤلف ضخم حوى من الفوائد الجمة والتفاصيل الغزيرة ما لا يمكن ان يفي به الا دراسة مستقلة ، لا يزال مخطوطا الى اليوم رغم الجهود التى قام بها المستشرق ليفي بروفانصال Levi Provençal للتعريف به وذكر محتواه وترجمة فقرات منه (18)

والجدير بالذكر ان النسخة التى اعتمدها فى هذا الموضوع ناقصة يمكن تكميلها بالنسخة التى عثر عليها الاستاذ ابراهيم الكتاني والتى تحمل رقم رقم ك 111 بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط . ومن هاتين الوثيقتين يمكن استخراج النص الكامل لهذا المؤلف (19).

واذا كان من ملاحظة نقوم بها فى هذه العجالة حول مؤلف المسند الصحيح .. فاننا نسجل انه قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وخمسين بابا وخاتمة حوت ، كما أسلفنا ـ من المعلومات السياسية والاجتماعية والثقافية المتعلقة بالمغرب الاقصى ما لا نجده الا نادرا فى الكتب التى الفت فى هذا العهد . فالمؤلف رغم اطنابه واستطراده ومبالغته فى كثير من الاحكام والمواقف قد أفادنا بما لم يكن ينتظر من مثله فهو اذن جدير بكل عناية وتقدير .

وهو كذلك ايضا لانه استغل الفرصة الممنوحة له فأقحم نفسه فى كثير من الفصول المخصصة لمخدومه واطلق العنان للتحدث عن شخصيته وحياته وتجاربه ، ولذلك يكتسي مؤلفه هذا صبغة «الترجمة الشخصية » (20) ويعد فهرسة تضاف الى فهرسته الحقيقية التى سنتحدث عنها فى محلها .

العلوم النقلية :

اما فى العلوم النقلية فلقد الف ابن مرزوق الكتب الآتية :

1) اسانيد البخاري : وهو كتاب غير موجود لكن مؤلفه ذكره فى مسنده (21) .

برح الخفا فى شرح الشفا (22) : وهو شرح لكتاب الشفا فى حقوق المصطفى للقاضي عياض .

ايضاح المراشد : ذكره المؤلف نفسه فى كتابه جنى الجنتين (23) الآتي الذكر . وذكره ايضا فى المسند .

والنتيجة التى نخرج بها من هذه العجالة هي ان ابن مرزوق قضى فى المغرب اكثر من ثلاثين سنة وساخ شطرا كبيرا من عمره فى المغرب الاقصى حيث افنى شبابه فاحتك بأهم سلاطينه ورجالات دولته فخاض غمار السياسة ، وتحمل مسؤوليات خطيرة، عرف فيها انواعا شتى من التقلبات والمحن ، اذ كان رجل عمل وحركة دائبة ونشاط مستمر ، لا يعرف للخمول معنى ، ولا للانزواء سبيلا ، غايته الاولى هي صرف طاقاته الجسمية والعقلية، وممكناته الروحية والوجدانية فى ميادين كثيرة. لكن الظروف لم تساعده على قضاء جميع مآربه ، وتحقيق اغراضه السياسية العليا ، فلم يفلح « كرجل سيف » ، فشل تقريبا فى جميع المحاولات التى بذلها فى هذا المجال .

وفى راينا ان طبعه الحاد ، ومزاجه العصبي ، وانحداره من اسرة عريقة فى المجد ، ووجوده داخل المغرب الاقصى بجانب شخصيات اخرى عاصرته ونافسته وزاحمته على الصعيدين السياسي والثقافي (14)، كل ذلك ادى الى ما عرفه الرجل من خيبة امل وسقوط ، ولقد اعترف هو نفسه بهذا الفشل (15) وندم على ما صدر منه من نزوات وتصرفات، سعيا وراء تحقيق الشهوات والملذات ، لكن ذلك الندم لم يكن له ادنى تأثير على سلوك الرجل ، بقي حبرا على ورق كما يقال ، لان « الزمن بمثله لبخيل » .

على ان لنا فى الرجل جانبا ايجابيا مشرقا حافلا بالاعمال والمواقف الخالدة ، ومعنى ذلك انه اذا كان قد فشل « كرجل سيف » فان انتصاراته « كرجل قلم » لا يمكن ان تنمحي وتندثر لان آثاره فى هذا الميدان لا تزال ماثلة الى العيان تشهد لصاحبها بجهوده الجبارة فى خدمة الثقافة الاسلامية وشؤون الفكر ، ذلك انه رغم التقلبات التى عرفها ، ورغم التنقلات التى قام بها — داخل المغرب وخارجه — والتكاليف الادارية التى تحملها ، والمسؤوليات الجسام التى صرف معظم اوقاته فيها ، رغم ذلك كله فان مؤلفاته الادبية والعلمية تدل على طول باعه ، وسعة اطلاعه ، والمامه بشؤون الثقافة العربية وتاريخ الاسلام ، فهو فقيه ، حجة فى الاصول والفروع ، وعمدة فى الاحكام ومحدث ذو سند

فريدا بئيسا « وتحمل من الهموم الدنيوية اثقالا واي اثقال وكابد نكبات وعثرات من الدهر والطهور بالدنيا » ، ثم ينتقل الى مدح مخدومه السلطان الحفصي ابي اسحاق ابراهيم فينخلع عليه من الالقاب التشريفية والاوصاف التكريمية ما هو واضح فى مؤلفه ، ثم يتدرج ، ليكون المدح اعم واشمل ، الى الدولة الموحدية لابراز محاسنها وتعداد امجادها والتذكير بانتصاراتها ويخص منها بالذكر « الامام المهدي المعلوم محيي سنن الهدى وحامي حرماته » ابن تومرت الموحدي الذى يستحق كل تقدير واحترام فيبجله ويعظمه لانه يرى فيه القدوة الحسنة والمثل الاعلى (29)

وليس بغريب ان تصدر من مترجمنا هذه الاحكام ويفوه بهذه الاقوال فهو متقلب بين عشية وضحاها كما يقال ، ينقض نفسه بنفسه « يذم اليوم ما مدحه بالامس » ويهدم ما بناه فى ظرف وجيز فالصديق الحميم يصبح عدوا لدوذا والعكس بالعكس !

ما دامت المصلحة المادية او المعنوية توحي بذلك .. وحتى المبادىء تتبدل وتتغير تبعا للظروف والملابسات ، والاهواء والنزعات ، فالمذهب الظاهري يعوض المذهب المالكي ، والعقيدة المهدوية تحل محل العقيدة الاشعرية ، او تختلط بالعقيدة الحنبلية !

بعد هذه المقدمة الطويلة ، المفيدة ، نجد ثلاثة ابواب رئيسية تشكل وحدة الموضوع وهي مرتبة كما يلي :

1 ـ الباب الاول : خاص بليلة القدر (ص 1 ـ 32

2 ـ الباب الثاني : خاص بليلة المولد (ص 32 ـ 91)

3 ـ الباب الثالث : يبحث عن حل للمشكل القائم ويضع حدا للجدل والمناقشة ، ويستخلص النتائج الضرورية ، ومع ذلك فالمشكلة لا تزال هي هي ، لان المؤلف لم يستطع الادلاء براي قاطع ، رغم شروحه الطويلة ، وتحليلاته العميقة ، ترك القاريء فى حيرة من امره ، يكلف نفسه عناء البحث عن ما يجب ان يسلكه ازاء هذه القضية الشائكة .

ومهما يكن من امر فابن مرزوق برهن بأسلوبه العلمي عن اطلاع واسع ودقيق فى شؤون الفقه والفتاوي ، فى اصول الدين وفى أصول الفقه وابان عن قدرة عجيبة (30) على استنباط الاحكام والاستدلال بالحجج الموضوعية التى يستند اليها كل مفتي وكل مجتهد تتوفر فيه شروط الفتوى والاجتهاد .

أضف الى ذلك ان هذا البحث يصطبغ بصبغة موسوعية تذكرنا بثقافة الجاحظ وبأدبه ذلك ان « جنى الجنتين » يحوي من الاحاديث والاحكام الفقهية والاخبار والسير والنوادر والطرائق والغرائب وعلم الكلام وايام العرب والعجم وشؤون الخلاف بين المذاهب الفقهية وآراء الصوفية واصول الخلافة والامامة ، يجمع من كل هذه العلوم والفنون ما يجعلك تطمئن الى ثقافة ابن مرزوق الواسعة والمتنوعة وادبه الذى يعني ان يأخذ الاديب من كل فن طرفا هذا بالاضافة الى تعمقه وتبحره فى علوم الفقه والحديث .

خطب دينية (31) :

تتوفر الخزانة الملكية بالرباط على مجموعة من خطب القاها ابن **مرزوق فى اربعين مدينة من مدن الاسلام ورتبها على حروف المعجم** « اختطب بها فى قواعد الامصار ومختلف الاقطار ، كمدينة فاس وطنجة وسلا ومراكش وازمور واسفي واغمات والمنصور والعباد من ظاهر تلمسان وهو اول موضع تقلد فيه هذه الخطة » .

برنامج المرويات (32) : ذكره المؤلف نفسه فى جنى الجنتين رسالة فى الصبر على طريقة اهل التصوف : صرح بذلك فى المسند قائلا : وقد كنت جمعت ما قبل فى الصبر نثرا ونظما جزءا على طريقة اهل التصوف واهل الادب (33) .

فى العروض

ترك لنا المؤلف فى هذا الباب المفاتيح المرزوقية لحل اقفال واستخراج خبايا الخزرجية (34) .

في السياسة :

الف في هذا الموضوع كتابا سماه في مؤلفه جنى الجنتين كتاب الامامة (35) تعرض فيه للخلافة واسسها ومبادئها وقوانينها وفوائدها.

فهرسة :

واخيرا نذكر لابن مرزوق فهرسة تكاد تكون مجهولة الى يومنا هذا فباستثناء ابن فرحون الذى اقتبس منها بعض الفقرات فاننا لا نعرف عنها شيئا كثيرا . ومع حسن الحظ فان الخزانة الملكية بالرباط تتوفر على نسخة منها (36) وقع العثور عليها مؤخرا لكنها نسخة عتيقة ومبتورة ومتلاشية لا تكاد تقرا ولذلك يتحمل القاريء الراغب في الاستفادة منها مشقة كبيرة اذا ما أراد الاطلاع على بعض سطورها .

اما عنوانها بالضبط فهو : عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز من ائمة المغرب والشام والحجاز .

ونظرا للاعتبارات التى اسلفناها فان « عجالة المستوفز ... » تكتسي صنعة هامة وتشكل عنصرا ايجابيا في ترجمة ابن مرزوق .

فما هو محتواها ؟ اهتم فيها صاحبها بذكر اسماء الشخصيات الثقافية التى اخذ عنها مباشرة وتتلمذ لها مدة او التى اتصل بها بقصد الاستفادة من نصائحها . ويتعلق الامر بعلماء وفقهاء جلهم من مصر والمدينة المنورة وفلسطين بالاضافة الي عدد قليل من الاندلسيين والجزائريين والتونسيين . ومما يلفت النظر اننا نجد ضمنهم ست نساء (37) . .

وخلاصة القول ان فهرسة ابن مرزوق ثمينة ، جديرة بالنشر رغم كون صاحبها لم يهتم فيها بذكر سند اشياخه ولم يعن العناية الكافيةبتحديد نوع ومجال ثقافتهم كما انه اغفل تقريبا آثارهم . لقد اكتفى في بعض الاحيان بايراد اسماء كتب حفظها او طالعها وانما الذى كان يهمه بصفة خاصة هو تعداد شيوخه واعطاء بعض المعلومات عن حياتهم .

وهكذا يتضح لنا ان ابن مرزوق الخطيب كان ــ رغم زلاته وهفواته ــ من أعظم الشخصيات المغربية التى ربطت بين دول المغرب العربي ــ بل حتى بالمشرق ــ برباط ثقافي متين ، بتأثيرها فى هذه الدول وبتأثرها بها الى حد تفاوتت درجاته حسب الظروف والملابسات ، كما يتضح لنا من خلال تحليل نفسه وآثاره المستوى الثقافي والعلمي الذى بلغته هذه الاقطار فى عصر من عصورها الزاهرة . فهو نموذج من نماذج الهوية المغربية فى حقبة معينة من تاريخها . اخذ من هذه البيئة واعطاها واتصل بعلمائها وفقهائها فأفادهم واستفاد منهم قبل ان يغادرها بصفة نهائية الى الجناح الآخر من العالم الاسلامي ليفيد هناك ايضا بعلمه وبدروسه ، وبوعظه وبارشاده .

د. محمد ابن شقرون

مصادر البحث :

— ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن فى اخبار مولانا ابي الحسن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 111

— ابن مرزوق، عجالة المستوفز المستجاز فى ذكر من سمع من المشائخ دون من اجاز من ائمة المغرب والشام والحجاز ، خ الخزانة الملكية بالرباط رقم 7579 .

— ابن مرزوق ، جنى الجنتين فى شرف الليلتين ، خ الخزانة العامة بالرباط رقم K 1228

— ابن مرزوق ، الاحاديث الاربعون النبوية خ د 3582

— ابن الخطيب ، الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج 11 ص 223 و 236 (ط. القاهرة 1319) .

— ابن خلدون ، العبر ج 7 ، 312 .

— ابن خلدون ، تاريخ البربر (ترجمة) ج 11 ، 462 ــ 464 .

— ابن خلدون ، المقدمة ، باريس سنة 1863 ، ص 38 .

— يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد ، نشره الفريد بيل بالجزائر 1913 – 1904 ، ج 1 ، ص 50 وترجمة ص 63 — 64 .

— المقـري : نفح الطيب ج 7،309 — 331 ، ج 8 ، 310 .

— ابن حجـر : الدرر الكامنة ، (1920 / 1348) ج 3 ، 360 .

— ابن فرحون ، الديباج ، ص 305 — 309 .

— ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ص 140 — 142 .

— احمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 267 — 270 .

— ابن مريم ، البستان ص 184 .

— الزركشي ، تاريخ الدولتين تونس 1289 ، ص 83 .

— ابن الاحمر ، روضة النسرين ، ترجمة جورج مارسي ، ص 53

— السيوطي ، بغية الوعاة ، ص 18 — 19 .

— السـيوطي ، حسن المحاضرة ج 2 ، ص 104

— ابن عمار : نحلة اللبيب بأخبار الرحلـة الى الحبيـب ، الجـزار 1902 / 1320 ص 110 — 111 .

— محمد ابن شنب :
Etudes sur les personnages mentionnés dans l'Igaza du Cheikh Abd al Kader al Fasi p. 212

— الحفناوي ، التعريف ، ص 163
— الناصـري ، الاستقصاء ، ج 1 ، 50 و ج 2 ، 62 — 63 بروكلمان 2 ، 239 والملحق ج 2 ، 62 — 63

Muhammad Hadj Sadoc, Ibn Marzuq Sams ad-Din dans E.I. (2e), III, pp. 890 - 892.

— ابن ابراهيم ، الاعلام ج 4 ص 26 — 36

— الكتاني ، فهرس الفهارس 1 ، ج 3 ، 349 .

تنبيـه : أثبتنا بعض المراجع التى استغنينا عنها نظرا لاحتوائها بالضبط على ما فى غيرها . فلم نستعن بها مباشرة.

---

(1) اهم مصدر يرجع اليه لمعرفة حياة ابن مرزوق الشخصية ونوع تكوينـه العلمـي والثقافي هو نفسه قبل كل شيء اي آثاره المختلفة المطبوعة والمخطوطة (وان كانت جلها مخطوطة) فى مقدمة هذه المراجع نجد ((المسند الصحيح الحسن)) و ((عجالة المستوفز المستجاز)) أي فهرسته التي تعتبر مفقـودة ، وبالاضافـة الى المصادر المختلفة التي اثبتناها فى آخر هذا البحث راجع محمد ابن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ، ص 123 129 .

(2) انظر مثلا فهرس الخزانة الملكية بالرباط .

(3) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، 140

(4) ابن فرحون ، الديباج 35 — 309 ؛ ابن ابراهيم ، الاعلام 4 ص 26 .

(5) لم ينزل بدمشق خلافا لما اورده الحاج صدوق ، ابن مرزوق شمس الدين ، دائرة المعارف الاسلامية ص 2 ، 891 .

(6) ابن مرزوق ، عجالة المستوفز المستجاز ، مخطوط 7579 .

(7) راجع ترجمته فى روضة النسرين لابن الاحمر ، ط. الملكيـة بالربـاط 1962 ص . 25 — 26 .

(8) راجع احمد بابا ، نيل الابتهاج ص 263(وهو ينقل عن ابن الخطيب فى الاحاطة)

(9) للمزيد من المعلومات حول هذه الحالة راجع ابن مرزوق ، المسند مخطـوط 111 ، صفحـة 157 .

(10) ابن الخطيـب ، الاحاطـة ، 11 ر 223

(11) انظر ابن خلدون ، العبر ج 7 ر 312

(12) انظر ن. م. ج . 11 ر 462 — 464

(13) انظر هذه المراجع فى نهاية هذا البحث

(14) انظر فى هذا الموضوع ابن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ص 112 – 123

(15) انظر ابن مرزوق جنى الجنتين فى شرق الليلتين ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1228 ص 126

(16) انظر خطبه الدينية التي سنتحدث عنها ضمن كتبه

(17) راجع مثلا كتابه جنى الجنتين ، ص 126 والمسند الصحيح الحسن

(18) انظر فى هذا الموضوع :

(19) الذي نقوم بتحقيقه الآن بتعاون مع الإستاذ ابراهيم الكتاني

(20) راجع المسند الصحيح الحسن ... ص 320 – 341

(21) مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 111 ص 156

(22) ذكره فى نفس المصدر ص 156

(23) انظر مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ك 1222 د ورقة 98 ب

(24) مخطوط الخزانة العامة رقم د 3582 54 ورقة ، هذه وثيقة ثمينة اقتنتها الخزانة العامة منذ عهد قريب ، والغالب على الظن انها بخط السلطان المريني ابي عنان ، لقد تحدث عنها ابن مرزوق فى مسنده ق 111 ص 156

(25) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 38 وتوجد منه نسخ اخرى بصوفية 1331 وبالقاهرة تحت رقم 292

(26) بروكلمان د 303

(27) بروكلمان م. د 634

(28) مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 1228

(29) انظر التفاصيل فى جنى الجنتين المقدمة

(30) تراه يردد فى الباب الثالث بصفة خاصة عبارات « وان قالوا قلنا » لانه يجادل ويناقش ويناظر كسائر النظار

(31) مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 4070 نسخة رديئة .

(32) انظر ابن مرزوق جنى الجنتين ، ك 1228 د 1011 .

(33) انظر المسند ص 105

(34) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1349

(35) المرجع نفسه ص 104

(36) تحمل رقم 7579

(37) بدلا من ثلاث كما اكده الحاج صدوق ؛ ابن مرزوق شمس الدين ، دائرة المعارف الاسلامية ط 2 111 ر 891 ؛ وهي : ست العرب بنت اسماعيل الفيتاني ، وزهراء بنت عمر الحسني أم الدنيا بنت موفور البكاري ، فاطمة بنت عبد الوليد الدينوري خديجة بنت الامام برهان الدين العسقلاني ؛ أم محمد بنت زين الدين الدينوري ؛ ام محمود فاطمة .

أسطورة :

المزمار

مصطفى القصري

يحكى انه عندما قضت المشيئة الربانية بتوقيف السيول التي تهاطلت على الارض فى عصرها الاول ، والزوابع التى هبت فوقها ، أقلعت السماء وسكت الرعد وانقشع البرق ، وبلعت الارض ماءها ، ثم امر الله بعد انتهاء هذا الطوفان الذى دام مائة وخمسين ليلة أو مثلها أن يتفجر من أعماق أحد البحار بركان هائل يفغر افواهه لتسيل منها سوائله ، ثم تهدأ نيرانه وتنطفيء أحجاره ، ليصبح بعد مراحل طويلة وليس بطويلة ، وتحولات خطيرة وليست كذلك ، جزيرة واسعة الارجاء ، جعل فيها الباري آدمها وحواها ، بعد ان أرسى جبالها وفجر عيونها ، وانبت فيها النجم والشجر وسخر الرياح لواقح ، موفرا بكل ذلك فى ربوعها أسباب العيش لعباده ممن اختارهم لغاية فى نفسه قدر أن لن يطلعهم عليها حتى تكتمل انسانيتهم المثلى ويتبوؤوا مقعد الصدق عنده .

انجبت حواء هذه الجزيرة التى صفت سماؤها وطاب ثراها ابناء بررة ارضعتهم من ثديها البان المحبة خالصة صافية ، حتى ان قابيلهم لم يكن فى اخلاقه ومن بواعث نفسه الطاهرة ما يدعوه لقتل اخيه ، بل كان يرى فى مرآة هابيل هذه الجزيرة صورته منعكسة وحقيقة مضاعفة على اديمها .

ولو تصورنا أن قابيل هذا اصبح فى خصاصة ، لآثر اخاه على نفسه ، وكيف يمكن ان يصبح فى خصاصة بالنسبة لاخيه ولم يتسرب الحسد الى قلبه ؟ وانما ضربنا هذا المثال لتقريب الامر الى الافهام وتبسيطه الى الاذهان .

خلق الله فى ستة ايام حول الجزيرة التي انشأها فى اليوم الاول جزرا ستا كانت الجزيرة الام واسطة عقدها وبيتها العتيق ، ومقياس عيشها الامثل فتناسل فيها الابناء وانتشروا فى ربوعها مجتمعين فى قرى ومداشر اقاموها ، ومزارع ومستعمرات اخصبوها .

لم يكونوا يعرفون الاعتداء على النفس ولم يكن لهم ضحايا وقتلى اذ لم يرثوا ذلك عن آبائهم واجدادهم الذين كان الله يتوفاهم فى مواعيدهم الموقوتة . وقد بعث سبحانه من قبل لقابيلهم طائرا أبيض فى السماء ليريه كيف يدفن جثة أخيه الذي لقي حتفه شيخا مسنا بعد أن قضى من الحياة ماربه ، لا كيف يواري سواته كما فعل صنوه المذكور فى روايات الكتب المقدسة .

لم يزرع الله فى قلوبهم حب السيطرة والتملك ، وطهرهم من الضغينة والبغضاء والبغي والطغيان ، لم يقتلع احد منهم غصنا من شجرة ليخطط به دائرة او مربعا على الارض ولم يصفف حجرا حول بقعة اختص بها ليقول : « هذا ملكي انا ، هذا مالي انا ، هذا فى حوزتي انا ، ومن تعدى هذه الحدود ضربته بعصاي هذه ، وشدخت راسه بحجري هذا ، وقطعت يديه وسملت عينه » .

لم يشعل فيهم أحد يوما نارا على علم وقال : « هذا علمي وحدي انا وليس لسواي » .

لم ينظم احدهم حزبا ولم يكتسح به جزيرة ليقول : « هذه جزيرتي وحدي ، وهؤلاء حرسي وخدمي ، وهذا اسطولي سأستحوذ به على بقية الجزر » اذ لم تكن الفاظ هذه اللغة من لغتهم ، ولا هذه الكلمات ضمن قاموسهم ، ولا هذه المعاني والمفاهيم من معانيهم ومفاهيمهم ، بل كانوا مفطورين على المحبة والوئام وعلى البساطة والقناعة وعلى العمل المنظم المقسم والانتاج الجماعي والفيء المشترك . لا فضل لاحدهم على غيره ، وكيف له ان يفضله وقد تساوت بينهم الامكانيات والبنيات وانسجمت بذلك اسباب المعيشة والارزاق .

كانوا لا يسلبون الطبيعة المحيطة بهم ما تذره من خيرات ، وانما يأخذون منها ما تستطيع أن تعوضه مضاعفا لهم ولها .

وبفضل هذه الطريقة التى الهمتها اياهم حياتهم البسيطة تحقق فى مجتمعهم الانسجام وعاشوا عيشة راضية عرفوا معها الرخاء والسعادة، واصبحوا بفضلها يرون الاشياء بمنظار الحقيقة والحق ، أي بمنظار الجمال الذي خلقه الله فى نفوسهم وفيها .

وكان تغريد الطير ، وحفيف الغصون ، وهبوب النسيم ، وسقوط المطر ، وصياح الاطفال وضحكات العذارى فى أسماعهم تسبيحا موسيقيا يسمو بأرواحهم الى أجواء عليا يعرفون فيها النشوة وتسكرهم فيها الغبطة .

ولو فرضنا مع هذا كله المستحيل فتصورنا ان احدهم هم بارتكاب ما من شأنه ان يفسد نظامهم العجيب فى بساطته لامسكوه وعالجوه كالمريض او كمن أصابه مس من الجنون الى ان يشفى من مرضه او مسه ويعود اليه رشده او صحته ليحتل مكانه فى المجموعة من جديد .

تصور كيف يمكن لمجتمع هذه صورته واخلاقه ان يتحدث ويعمل ويسير ، ويأكل وينام ويحب وينظر الى ما حوله من الاشياء ، فحديثه نغم ومشيه رقص ، وعمله وأكله ونومه وسعيه تحقيق لبشريته ، وحبه سمو وطهارة وتتميم لانسانيته ، ونظره الى ما حوله من الاشياء والمخلوقات أتفهها او اعظمها حجما حديث منه اليها وخطاب اليه منها . وهكذا يصبح للزمن مفهومه الذي ينبغي ان يكون له ، أي زمن مليء لا مكان للفراغ فيه ، ويصبح للقوة معناها الحقيقي باستعمالها فى تمكين النفوس من الخير . والبشر فى هذا المجتمع لا يعتبر الكرامة والحرية أخلاقا ومزايا يتخلق بها ويتحلى بجمالها ، وانما هي صفات لازمة من الصفات الضرورية المكونة لنفسه بمكانة الجوارح والاعضاء بالنسبة لبدنه . فكما لا يعقل ان البدن قد يعيش وتستمر فيه الحياة بدون الجوارح والاعضاء المكونة له ، ليرى صاحبه ويسمع ويشم ويتنفس ويسعى ويلمس ، لا يعقل ان يعيش هذا المجتمع ويستمر بدون حرية وبدون كرامة .

وقد اوحى تكوين مجتمعهم على هذا المنوال وتطوره هذا التطور الطبيعي السليم الى شعرائهم وفنانيهم وحكمائهم حيث كان لهم شعراء وفنانون وحكماء ـ ان هذا الكون على صورة مجتمعهم ومثاله أو أن مجتمعهم هذا على صورة ومثال الكون وان افراده يكونون جزءا منه لا يتجزأ يتممهم ويتممونه . فهذه الشمس تطلع عليهم كل صباح من مشرقها وتمسي آفلة فى مغربها، وهذه الكواكب تجري فى مدارها الى مستقر لها ، والقمر يسير بانتظام مقدر فى منازله ، والارض الكريمة تنبت أكلها فى مواسم مرسومة لها ، والسماء تمطر فى فصولها ، والبحر يتأرجح بين مده وجزره فى اوقاتهما المعلومات .

كل شيء هنالك تناسق وجمال ، وكل يسير بحسبان ، والبشر فى هذه الجزر آخذ مكانه المتواضع العظيم من بين كل هذه المخلوقات والاجرام فى انسجام محكم معها ، وارتباط متين وتجانس تام .

تصور هؤلاء الحكماء والشعراء والفنانون ان مجتمعهم لو لم يكن يسير مع الكون المحيط به بنفس النسق وعلى نفس الوتيرة ، وبنفس

النفس المتصاعد النازل لاختل نظامهم وفسد مما قد يعتوره من الاضطراب ويصيبه من الفوضى ، وباختلال نظامهم يختل نظام الكون بأسره ويصيبه ما أصاب مجتمعهم حتى يحول الكل لا محالة الى الاضمحلال والفناء .

وعلى قاعدة هذه الحكمة ارسوا السلم الموسيقي الذى بنوا عليه غناءهم وتركيب آلات الطرب التى انشأوها . وعلى هذا القياس والمعيار احكموا مزمارا من شجر القصب على الانغام السبعة وضعوه فى كعبتهم المشيدة بقلب الجزيرة الام ليحج اليه كل اصحاب المزامير فى الجزر السبعة ويسووا مزاميرهم على نغماته النموذجية حتى اذا نفخوا فيها فكأنهم نفخوا من مزمار واحد يرسل نغمات واحدة فى نفس المقام وبنفس الواحدة الزمنية .

وهكذا أصبحوا يعقدون كل عام مهرجانا قوميا حافلا ينتظم حول كعبتهم البيضاء يأتيه الناس من كل جهات الجزيرة الام وبناتها الستة ليشهدوا هذا الموسم البهيج ويشاركوا فيه ونفس الفرح يغمر أفئدتهم ، مرتدين لذلك أجمل لباس ، مصطحبين معهم زوجاتهم واولادهم فى حلل سندسية ، مزينين جميعا بحلى من الفضة والذهب ، وعقود من اللؤلؤ والمرجان والصدف واكاليل وتيجان من الزهور الملونة العطرة التى اتحفتهم بها طبيعتهم المتدفقة الخيرات .

يحمل النسوة فى هذا المهرجان على رؤوسهن سلالا من الفواكه مما تخيرن ليقدمن بعضها الى اجواق المطربين وجماعات المنشدين ، ويتحفن بعضها الآخر اولادهن وازواجهن ونفوسهن ، اذ لم يكن هناك لا وسطاء لا مشعوذون ولا شفعاء تسلطوا على المعبد ليتوسطوا بين الناس والله وهو قريب ، مستحوذين بذلك على خيرات الناس وقرابينهم .

في هذا الجو الاخوي الباسم المطمئن تستهل الاجواق نفخها فى المزامير وينشد المنشدون تسبيحة الحمد وتشيد الغبطة التى وضعها الله نجما منيرا على جباههم ، فيصمت الطير لحظة منصتا الى المزامير والاصوات مقتبسا منها تغريده وغناءه ، وتتحول الرياح الى نسيم

يلامس البشرات المستبشرة ، ويحدث فى الاغصان حفيفا شبيها برفرفة الاجنحة البيضاء ، حفيفا يلتحق بالانغام المرسلة من المزامير ، المنتشرة فى الاجواء حتى لكأن الشجر الذى صنعت من قصبه تلك المزامير يصغي الى خلده ليستمع منه الى مصدر النغمات قبل ميلادها ، ويهزه الطرب فيهم بالتحليق ، وحتى لتكاد الجماهير الصاغية تبتسم أرواح بعضها لبعض ، وتخف اجسامها الى ان تحسب ان ليس لها ابدانا ، أو ان ابدانها أصبحت هي الاخرى روحا ثانية توأما لروحها .

تلك وليمة الروح كانت عندهم وتربيتها كما للجسم وليمته وتربيته يرجع الفضل فى تحقيقها الى انسجام النفوس المؤهلة للانسجام والى سهر الساهرين الا يتخلى عن الجوق أي مزمار ، وان يأتي كل نافخ بآلته الى المزمار الذى سوى على هندسة نغمات الكون ليسوي آلته على مقياسه .

كان القوم اخشى ما يخشونه ان يتخلف أحد الزامرين على الموعد المضروب للموسم الموسيقي أو لا يسوي مزماره على القياس المحكم من قبل ، فترتبك النغمات ويختل الوزن ويسقط المقام وبذلك يختل نظام المجتمع كله وبالتالي نظام الكون الى أقصى نهايته .

كان يقع ذلك بالتأكيد لو قتل قابيل الجزيرة هابيلها ، ولكنه وقف عند رأسه يتعهده الى أن مات مبتسما بين ذراعيه .

الرباط **مصطفى القصري**

من آثار المؤرخ الاديب أبى الوليد ابن الأحمر

" نثير الجمان
في شعر من نظمني واياه الزمان "

عبد القادر زمامة

« نثير الجمان فى شعر من نظمني واياه الزمان » .

بهذه السجعة المشتملة على . النثير . والجمان . والنظم والزمان سمى ابو الوليد كتابه هذا . كما سمى كتبه الاخرى بسجعات اخرى مماثلة .

« المنتخب من درر السلوك . فى شعر الخلفاء الاربعة والملوك »

« فريد العصر . فى شعر بني نصر »

« روضة النسرين فى دولة بني مرين » .

وقد اعجب ابو الوليد بهذه السجعة التي سمى بها كتابه هذا فأدخل عليها تغييرا فى جزايها بعد نحو ربع قرن . وسمى بذلك كتابه الآخر :

« نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان .

والمؤلفون قبل أبي الوليد وبعده . تفننوا فى استعمال كلمة الجمان فى اسماء كتبهم . فالمؤرخ المغربي ابن القطان سمى كتابه :

« نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » (1)

والشاعر المغربي أبو عبد الله غريط سمى كتابه :

« فواصل الجمان فى أنباء وزراء وكتاب الزمان » (2) .

وذلك كله داخل فى ظاهرة التصنيع الادبي التي شملت الرسالة والخطبة . والمقامة . والقصيدة . وكل شيء حتى أسماء الكتب واستعراض أسماء الكتب التي الفت فى عصر أبي الوليد ولاسيما فى المغرب والاندلس يقنعنا أن ابا الوليد كان يعيش فى عصر التصنيع . ويستجيب لدواعيه فى كل أعماله الادبية . شكلا . ومضمونا ، ومن جملتها تسميه الكتب .

اما الدوافع التي حملت أبا الوليد . ونعني بها الدوافع الخاصة التي جعلته يجمع مادة هذا الكتاب . وينسقها فى شكل مؤلف له موضوع . ومنهاج وطريقة فى العرض . فهي فيما يظهر دوافع شخصية لاثبات الذات . والحصول على تقدير المعاصرين . وافادة الوسط الذي يعيش فيه . مع ما ضمنه أبو الوليد من انتاجه الادبي . وانتاج بعض أفراد أسرته الكبرى . والصغرى . وربط اسمه . ونسبه ربطا متكررا . ممثلا بملوك بني الاحمر . فى سلسلة طويلة لا تنتهي الا بالجد الاعلى . مع المحافظة على الكنى والحلى والالقاب ... !

وليس فى الكتاب ما يدل على انه الف لملك . او حاجب أو وزير . أو انه الف لاغراض سياسية . مؤقتة . لا بالنسبة لدولة بني الاحمر . التي ينتمي اليها . ولا بالنسبة لدولة بني مرين التي يعيش فى ظلالها .

ولعل ابا الوليد قصد بتأليف هذا الكتاب على هذه الصورة شيئا زائدا على الدوافع الشخصية . وهو مناقضة ومخالفة عصرية لسان الدين ابن

الخطيب فى موقفه من بعض المعاصرين . الذين تناولهم فى الكتيبة الكامنة . والاحاطة . وغيرهما من كتبه بشيء غير قليل من التحريج والشتم وافشاء الاسرار . وهتك الاستار ..!

فأراد أبو الوليد ، وقد اطلع على كتب ابن الخطيب (3) ، وشاهد مصرعه المؤلم بفاس ، ان يجعل كتابه هذا خاصا بأدب المعاصرين ، وان يتجنب كل ما يتعلقبالمعايب والعورات، وان يقتصر على ما لهم من المحاسن والانتاج الشعري بالخصوص ، من أبيات ومقطعات وقصائد .

وصرح فى مقدمة كتابه بذلك قائلا :

« وقصدي فى هذا الكتاب عند ذكر الملوك، والامراء والوزراء، والكبراء وغيرهم من سائر الشعراء ، ان اغضي عما أجده لهم من القبائح . واذكر ما امتازوا به من الفضائل والمنائح لان مثلي لا يليق به اظهار العورات ..! ولا يحمد له تتبع العثرات ...! » (4) .

ففي هذه السطور التي أجمل فيها منهاجه . نشتم منها سخطه على ما يجده فى بعض كتب ابن الخطيب من تتبع عثرات خصومه . وهتك حرماتهم..!

فموضوع الكتاب محدد دقيق . وهو جمع أخبار معاصري أبي الوليد الذين لهم شعر . وكلهم بطبيعة الحال من أصل القرن الثامن الهجري وفيهم الملوك . والامراء . والوزراء . والكتاب . والفقهاء . والقضاة . وفيهم شيوخ أبي الوليد الذين أخذ عنهم . أو اجازوه . كما ان فيهم من عرفه أبو الوليد معرفة عين . او معرفة سماع . مع ادراكه بسنه . سواء كان وقت تأليف الكتاب حيا فى الاحياء . أو ميتا فى الموتى ..!

فالموضوع . شعر . وخبر . فكل شخصية من شخصيات الكتاب لها عنوان خاص ولها أخبار . وصفات . وحلى . ياتي بعدها أبو الوليد بما يختاره لها من أبيات . أو مقطعات . أو قصائد . حسب المادة التي يملكها .

ولأجل ان يتجنب أبو الوليد الفوضى والتخليط فى ذكر شخصيات كتابه

اختار منهاجا دقيقا . فى تصنيف هذه الشخصيات الى أصناف . حسب مـــا عرف لها من القاب . ووظائف . وصفات وجعل لكل صنف بابا خاصا مـــن كتابه . . .

فلكل من ملوك بني مرين . وملوك بني الأحمر . وملوك بني حفص . باب خاص يذكر فى كل باب . ما لهؤلاء الملوك من شعر . حتى اذا فرغ من الملوك انتقل الى أبنائهم الامراء ...!

وبطبيعة الحال فان أبا الوليد طبق المنهاج فيما يرجع لبني الاحمـــر وذكر نفسه . وشعره . كما ذكر أخاه . محمدا . فى نفس الباب الذي عقـــده لقومه . لانه وهو يؤلف كتابا فى الشعر لا ينفصل عن مشاعره الذاتية . ان لم يكن يغذيها وينميها بعمله هذا .

ومن المستغرب ان أبا الوليد عقد الباب السادس فى نثير الجمان وجعل موضوعه هكذا :

ـــ الباب السادس فى شعر ملوك بني العزفي وابنائهم ـــ

والمعروف عند المؤرخين أن العزفيين بسبتة كانت لهم رياسة متوارثة منذ استبدوا بهذه المدينة اواخر عهد الموحدين وكانوا يدعون بالرؤســـاء وبالامراء ...!

وهناك أبواب لوزراء بني الاحمر . وكتابهم . وقضاتهم اما بالنسبة لبني مرين فهناك ـــ زيادة على باب الملوك ـــ بابان اثنان احدهما عقده لشعر كتاب بني مرين . والثاني عقده . لشعر فقهاء المغرب وقضاته . . .

فالابواب الرئيسية فى الكتاب لا تتعدى العشرة الا أن ابا الوليد كتب لكتابه مقدمة . ضمنها الحنين الى الوطن . وهيأ فيها قارىء كتابه نفسيـــا وأدبيا ليسمع . ويرى . ما سيمليه عليه هذا الامير المبعد عن وطنه . وهو يعيش فى دار غربة ووحشة . مع ان له وطنا ودولة ينتمي الى ملوكها . فروى عن شيخه : محمد بن سعيد الرعيني ، وأبي عبد الله الفشتالي حديثا نبويا

روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . وهو قول النبى صلى الله عليه وسلـــم :

« اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة أو اشد . وصححها وبارك لنـــا فى صاعها . ومدها . وانقل حماها فاجعلها فى الجحفة » (5) . فهو محدث له سند متصل بالكتب الصحاح ورواتها ..!

وهو أمير مبعد يحنو على المبعدين . ويحن الى وطنه كل حين ...

ولاشك ان هذا من براعة الاستهلال . وجمال المدخل . حيث ان أبـــا الوليد يعبر فى هذه السطور الاولى من المقدمة بطريقة ايحائية عما يجيش فى نفســه . وما يريد أن يشارك قراءه فيه ...!

وخصص الجزء الاخير من المقدمة لمدح كتابه . وبيان منهاجـــــه . ! وموضوعه . والاعتذار عما يمكن ان يكون فيه من خطأ ...!

وهناك الى جانب هذه الابواب العشرة الرئيسية والمقدمة الممهـــدة بابان ليس من صميم الموضوع . الذي حدده لكتابه ونعني بهما الباب الاول. والباب الثاني عشر .

فالباب الاول فى موضوع أدبي عام عقده أبو الوليد لبيان فضل الشعر. واباحة انشاده بالمساجد ..! ولبيان ما يتعلق بالشعر من التصنيع البديعي..! الذي كان فى ذلك العصر من الثقافة الاساسية عند الشعراء . وعند الكتاب .

والباب الثاني عشر فى موضوع أدبي تاريخي خاص . عقده ابو الوليد لذكر ما قيل من الشعر فى السيف الذي بصومعة القرويين ..!

ومناقشة أبي الوليد وانتقاد عمله من الناحية المنهجية أمر متيسر لكون منهاجه يقتضي البحث عن شعر نظمه شعراء فى موضوعات متعددة . اما عمله فى الباب الثاني عشر فهو البحث عن شعر خاص فى موضوع معين . تناوله عدد من الشعراء . واما عمله فى الباب الاول فهو دفاع عن الشعر من

الناحية الدينية والذوقية والتاريخية واعطاء الشاعر المكانة اللائقة بــه فى المجتمع ..! ثم الدخول فى جو مدرسي تعليمي باستعراض ما يتوقف عليــه الشاعر من اتقان أساليب التصنيع ..!

ولعل ابا الوليد لا يعدم مبررا لعمله . لا بالنسبة للبــاب الاول ولا بالنسبة للباب الثاني عشر . لاننا اذا جئناه للنقاش والانتقاد من باب المنهاج. جاءنا للتبرير من باب الذوق . والاعتبار الأدبي الذي لاحظه . ليبدأ الكتاب بباب فى الدفاع عن الشعر . وتصنيعه . ويختمه بباب ذي موضوع طريــف . تناوله شعراء معاصرون . ليكون مسك الختام ..!

والحقيقة أن أبا الوليد كان دقيقا فى المحافظة على منهاجيته التـــي رسمها لهذا الكتاب . الذي جمع مواده من شعر المعاصرين وأخبارهم فيما عدا الملاحظة التي تتعلق بالبداية والنهاية . وفيما عدا ذكره لنصوص نثرية مصنعة لبعض المترجمين ..!

ففي ترجمة الكاتب القاسم بن يوسف ابن رضوان . وهو أخو أبــي القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان .. يذكر رسالة كتبها المترجِم لابي عنان والتزم فى كل كلمة منها بالسين ... ! (6) .

وفى ترجمة الكاتب على بن محمد الصباغ العقيلي يذكر له رســالــــة مماثلة (7) .

وفى ترجمة الكاتب أبي عبد الله ابن جزي يأتي له برسالة التــزم فى كلماتها حرف الزاي (8) .

اما طريقة العرض فهي دقيقة مع ذوق فى الترتيب . وأسلـــــوب فى الاختصار . بالاقتصار على ذكر الاسم . والكنية . والنسب . وموطن الاسرة. وما لها من مفاخر . وما للمؤلف من علاقة بالشخصية . التي يتحدث عنها . ويذكر شعرها .

على اننا لا نسمّي عمل أبي الوليد هذا ، وبالنسبة لجل الشخصيات

ترجمة . الا من قبيل التجاوز فى التعبير . لأن العناصر الاساسية فى جل التراجم مفقودة . لا بالنسبة للذين كانوا أحياء . ولا بالنسبة لمن كانوا أمواتا..!
ومع ذلك فان المعلومات التي جمعها ابو الوليد والملامح التي رسمها . والآثار التي سجلها . لها أهمية واعتبار ... زيادة على انه احتفظ بالحديث عن شخصيات لا نكاد نعرف عنها شيئا كشخصية شيخه الذي اجازه فى التاريخ والآداب ..! عبد الغفار بن موسى البوخلفي (9) .

واستطرادات المؤلف متنوعة فمنها :

— ذكر وقائع ومشاهدات تحدث عنها المؤلف .

— رسائل وصلته من معاصريه .

— ربط شخصيته بسلسلة ملوك غرناطة .

— الحديث عن أشياء تتعلق بأنساب الأسر والأشخاص .

وشخصية أبي الوليد بارزة فى هذا الكتاب لانه يربط نفسه بمن يتحدث عنهم فى حالات كثيرة . ويسجل ما قيل فيه من ثناء ومدح ولا يتحرج من ذلك. كما لا يتحرج من تكرار نسبه والافتخار باجداده وذكر هذه الجملة .. قال اسماعيل ...

ويستغرب دارس هذا الكتاب حين يرى ابا الوليد وقد تحدث عن أكثر من سبعين شخصية من معاصريه . من طبقات شتى . ولم يذكر مستندا . ولا مصدرا . سوى كتابه — فريد العصر — وكانه انما يتحدث بما خزنته ذاكرته. أو جمعته أوراقه ومذكراته . وهذا مصداق قول مترجميه انه كان مولعا بالتقييد (10) .

كما يستغرب دارس هذا الكتاب الذى كان مؤلفه مشتغلا بتحريره حوالى سنة 776 هـ = 1374 م كما سياتي ان يجد فيه ابا الوليد يتحدث عن الفقيه الصوفي محمد بن أحمد المكودي الذي توفي سنة 753 هـ = 1352م.

وياتي بقصيدة كان هذا الفقيه الصوفي قد انشده اياها ..! كما أنشده بعدها موشحا فى الغزل الصوفـــي .

ومعنى ذلك ان ابا الوليد احتفظ فى ذاكرته أو فى أوراقه بهذين النصين مدة تزيد على العشرين سنة . قبل ان يسجلهما فى هذا الكتاب ويقـــول : انشدني لنفسه (11) .

ويكرر أبو الوليد العبارات الدالة على مقاصد معينة . وهي مفيدة فى البحث عن ترجمته الخاصة وصلاته بأهل عصره ... فيقول . أدركته ..! بمعنى انه أدركه حيا ـ وعاصره مدة من الزمان قبل أن يودع المعنى بالامر هـــذه الحياة ..! ويقول : رأيته . بمعنى انه ادركه حيا وشاهده ..! ويقـــول : اجازني . وانشدني .. وشيخنا .. وصاحبنا .. وصاحبته وبيني وبينه وداد كبير..!

وسجل أبو الوليد فى نثير الجمان صلته الوثيقة بالسلطان ابي عنان تلك الصلة التي يظهر أنها دامت وثيقة طيلة المدة التي جلس فيها أبو عنان على عرش بني مرين ورافقه فيها فى حملته على افريقية . وجالسه وتحدث اليه وحضر مجالسه المتعددة . كما حضر مهرجانات الصراع بين الاســـد والثور التي كان يقيمها أبو عنان فى فاس ..!

وقد روى أبو الوليد نصوصا شعرية قيلت فى هذم المهرجانات ولاسيما القصيدة الطويلة التي أنشدها فى الموضوع صديقه الكاتب أحمد بن يحيى ابن عبد المنان الانصاري . وقدمها ابو الوليد بقوله :

« وانشدني أيضا لنفسه يمدح ابا عنان . ويصف قتل الاسد بين يديه بقصره . والثور المقاتل للاسد والاكرة . والمخاتل .. وغير ذلك مما يلعب به مع الاسد » والاكرة والمخاتل والاسد والثور وصفها ابن عبد المنان وصفا دقيقا نابضا بالحركة » .. (12) .

ويردف أبو الوليد هذه القصيدة بقصيدة اخرى يصف فيها صديقه ابن

عبد المنان مشهد آخر من قتل الاسد بين يدي السلطان أبي عنان فى مشهد عظيم حضره أبو الوليد فيمن حضره من حاشية السلطان .. (13) .

والنصان الطويلان اللذان احتفظ بهما أبو الوليد فى نثير الجمان زيادة على قيمتهما الادبية . لهما قيمة اجتماعية وتاريخية بالنسبة للعصر المريني الذي كانت هذه اللعبة معروفة فيه .

فالنصان يدلان على أن الأسد كانت موجودة فى غابات المغرب اذ ذاك ليمكن الاتيان بها الى ساحة الصراع . كما يدلان ان المرينيين كانوا مغرمين بهذه اللعبة ولاسيما فى عهد أبي عنان ...

والمؤرخون المغاربة — فيما نعلم — لا يكادون يعرجون على هـذه اللعبة وان كانت المدينة البيضاء ما زال معروفا بها باب السبع الـذي يسمى الآن باب المكينة . ولعل هذه التسمية لها صلة بلعبة صراع الاسد مع الثور حيث كانت المهرجانات تقام قرب هذا الباب فلذلك سمى باب السبع فيما يظهر ..!

وقد أشار لسان الدين ابن الخطيب الى هذه اللعبة فى حديثه عن فاس من كتابه معيار الاختيار ، حيث ذكر ان بها « ملاعب الليث المفترس » كما أشار الى ذلك مرة ثانية فى بعض تراجم الاحاطة . (14) .

ولعل هذه اللعبة كانت معروفة قبل عهد أبى عنان . وقبل دولة بني مرين نفسها بدليل ما جاء عند ابن الابار فى الحلة السيراء (15) .

والنصوص الشعرية التي جمعها أبو الوليد فى نثير الجمان زيادة على شعره وشعر أسرته . وشعر الملوك والامراء فى أقطار بر العدوة هي التي تنبني عليها القيمة الحقيقية لهذا الكتاب . وهي التي تعطي لابي الوليد لقب الاديب الذي جمع فأحسن الجمع واختار فأحسن الاختيار .

واستغرق الحديث عن شعر ملوك عصر أبي الوليد الابواب الخمسة الاولى بعد الباب الاول الذي خصصه لحكم انشاد الشعر .

وابتداء من الباب السابع شرع ابو الوليد فى تقديم طبقات من الشعراء حسب وظائفهم والقابهم التي اشتهروا بها من وزراء وكتاب وقضاة وعلماء فى كل من الاندلس والمغرب .

وابتدأ بوزير غرناطة أبي الحسن ابن الجياب استاذ ابن الخطيب الذي عمل فى بلاط بني الاحمر مع ستة من الملوك . واختار له قصيدة فى مدح أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن الاحمر . ثالث ملوك غرناطة المعروف بالمخلوع ابتداها بقوله :

زارت تجــــرر نخــوة اذيالهـــــا   هيهات تخلط بالنفــــار دلالهـــا

والشمس من حسد لها مصفـــــرة   اذ قصرت عن ان تكــون مثالهـــا

وافتـــك تمـــزج لينهـــا بقســــاوة   قد ادرجت طي العتاب نوالهـــا

— * —

ومدح مخدومه بقوله :

جمع العلوم عنايـــة . بفنونهـــــا   آدابها . وحسابهـــا . وجدالهـــا

معقولها . منقولهـــا . واصولهـــا   وفروعها . تفصيلهـــا . اجمالهـــا

— * —

وختم القصيدة بقوله فى بني الاحمر :

وهم الالى فتحوا لكــل ملمـــــة   بابا أراح بفتحــــه اشكالهــــا

متقلدين من السيوف عضابهـــــا   متأبطين مــن الرمــاح طوالهـــا

— * —

وكان منتظرا أن يأتي ذكر لسان الدين ابن الخطيب بصفة كونه من وزراء بني الاحمر بعد ذكر استاذه أبي الحسن ابن الجياب الا أن النسخة التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية من كتاب نثير الجمان والتي ندرس الكتاب بواسطة مصورتها . لا تشتمل على ترجمة خاصة لابن الخطيب بل ان بها بياضا يدل على بتر فى أصل الكتاب ...!

وفى الباب الثامن يذكر ابو الوليد شعر كتاب بني الاحمر الذين بلغه خبرهم . وابتدأ بكاتب اديب صوفي النزعة هو احمد بن ابراهيم ابن صفوان. وروى له قصيدة فائية عارض بها قصيدة فائية للشاعر الصوفي المصري عمر ابن الفارض (16) .

وذكر بعده عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربي الذي شارك لسان الدين ابن الخطيب فى العمل ببلاط الغني بالله واختار له قصيدة فى مدح الغني مطلعها (17) .

يا قاطع البيد يطوي السهل والجبلا ومضنيا فى الفيافي الخيل والابلا

يجوب آفاق ارض لا يؤنسه الا تذكر عهد للحبيب خلا

— * —

ويلاحظ أن ابا الوليد اقتصر فى الباب السابع المخصص للوزراء على وزير واحد هو ابو الحسن ابن الجياب .

واقتصر فى الباب الثامن المخصص للكتاب على كاتبين هما احمد بن ابراهيم ابن صفوان . وعبد الحق ابن عطية المحاربي .

ولا شك فيما يرجع للكتاب ان هناك آخرين طوى ذكرهم لانهم لا شعر لهم . أو لان شعرهم لم يصله . أو لم يرتض منه شيئا .

وبدأ أبو الوليد الباب التاسع من كتابه بالحديث عن شخصية مغربية كبرى عاشت فى الاندلس مدة كبرى. تعمل فى دولة بني الاحمر. وهي شخصية أبي القاسم الشريف السبتي . أستاذ أعلام ذلك العصر . واستاذ الادب واللغة فى عصره . ولثقافته العالية وأدبه الجم . ومؤلفاته القيمة ذكره تلامذته وهم جماعة من اعلام العصر . فيهم ابن الخطيب . وابن خلدون وابن زمرك وابو اسحاق الشاطبي . والقاضي النباهي . وآخرون .

ولولع أبي الوليد بالأنساب . ولا سيما أنساب اهل البيت . فقد أتى بذكر سلسلة نسبه منوها بعلمه . وادبه . وشعره ونثره . ويلفت النظر أن أبا الوليد استعمل كلماته الغامضة هنا . كما استعملها عدة مرات مع آخرين. فقال : أدركته . ورأيته ..!

اما ادركته ــ فأمرها واضح ..! وذلك ان الشريف السبتي توفى سنة 760 هـ ــ 1358 م (18) فابو الوليد أدركه بسنه وعاش بعده .

واما رأيته . فانها تثير سؤالا وهو متى ..؟ وأين ..؟ لأن أبا القاسم الشريف السبتي عاش مدة طويلة بالاندلس وبها توفى ..! فأين رآه أبو الوليد ..؟

الذي يظهر وتؤيده وقائع التاريخ والنصوص . هو انه رآه بمدينة فاس. وذلك اما سنة 755 هـ ــ 1354 م . التي جاء فيها وفد اندلسي أرسله الملك محمد الغني بالله تحت رياسة لسان الدين ابن الخطيب :

« ومن أعضائه أبو القاسم السبتي » الى الملك المريني أبي عنان بقصد طلب المعونة . والاستنجاد على قتال الغزاة الصليبيين .. !

وقد انشد لسان الدين بين يدي أبي عنان عند أول لقاء قوله :

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح فى الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر

ووجهك فى النائبات بـدر دجـى　　لنا . وفى المحل كفـك المطـر

والناس طـرا بـأرض أندلـس　　لولاك . ما وطنـوا . ولا عمـروا

ومن به قـد وصلـت حبلهـم　　ما جحدوا نعمـة . ولا كفـروا

وقـد اهمتهـم بقوسهـم　　فوجهونـي اليـك . وانتظـروا

— * —

ويقول ابن خلـدون :

قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه فى ذلك الوفد لم يسمع . سفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا ..! (19) واما سنة 757 هـ حين وفد للشفاعة فى المقري الجد ...

وبهذه الافادة التي جاءت فى كلام ابن خلدون خرجنا من غموض أبي الوليد ..! وعرفنا ان رؤية أبي القاسم كانت بمدينة فاس . وأبو الوليد اذ ذاك فى حاشية أبي عنان ..!

وروى ابن الأحمر لابي القاسم قصيدة يقول فيها .

دعيني من مقـال العاذلـين　　وخلـي بـين تهيامـي وبـين

ومن يك ساليـا فلـدى حـب　　سلـو القلـب منه غير هـين

علقـت بمقلتـي للنـوم حـرب　　بأعزل وهـو شاكـي المقلتـين

مليح الدل شاقـت كـل قلـب　　شمائلـه وراقـت كـل عـين

وذكر بعد الشريف السبتي شريفا آخر وهو علي بن أحمد المعروف بالاحيمر . وأتى بقصيدته فى مدح أبي الوليد اسماعيل بن فرج خامس ملوك غرناطة . جاء فيها .

الآن تطلب ودها ووصالها — من بعد ما شغلت بهجرك بالها

ولقد استحالت فيك سيماء الصبا — حالا يروع مثلها امثالها

واتيتها متلبسا بروائع — نكر بفودك اصبحت عذالها

بيض تخيل للنفوس نصولها — سمرا تحول للنحور نصالها

مثل الافاعي الرقط تنفث فى الحشا — وأرى بفودك حتما اصلالها

وختمها بأبيات جاء فيها :

وتفت وذو أحسابها من هاشم — من خير سبط العالمين حيالها

ترجو رضاك وطالما أرضيتم — آل النبى وكنتم أرضى لها

كم من يد بيضا لدينا منكم — شكر الاله واولياه فعالها

— ✻ —

وذكر أبو الوليد هذه الشخصية فى كتابه الآخر نثير فرائد الجمان ، ويظهر مما كتبه هنا وهناك انه اعتمد على المعلومات التي سجلها لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه : الكتيبة الكامنة (20) .

واستفاد منها ولاسيما فى ايراد النصوص الشعرية التي نظمها الاحمير المالقي .

وكتب ابن الخطيب كانت معروفة لدى أبى الوليد ...

ثم ذكر شخصية شهيرة بالعلم والادب وكثرة التلاميذ وهي شخصية محمد ابن الحاج المعروف بأبي البركات البلفيقي . ولهذه الشخصية شهرة فى المصادر الأدبية والعلمية عند المقري وابن الخطيب وغيرهما .

ويقول أبو الوليد انه ادركه ورآه ..! ويبين لنا هذه المرة الاجمــــال بتعيين زمن الرؤية ومكانها .

« . . . وبعثه رسولا لملك العدوة . وهو أمير المسلمين المستعين بالله ابو سالم ابراهيم فلقيته بفاس . وأنا اذ ذاك بها فى حضرة الملوك من بني مرين منذ أخرجنا عن الاندلس بنو عمنا الملوك من بني الاحمر . آل نصـــر فطلبت منه أن ينشدني من شعره فأنشدني ما نذكره ان شاء الله تعالى ..! (21)

ورحلة أبي البركات الى فاس سجلها أبو العباس ابن القاضي فى جذوة الاقتباس . ومن أجل ذلك ترجم له فى اعلام فاس (22) .

وانشد ابو الوليد ما سمعه من شعر أبي البركات البلفيقي :

يفني الهوى وغرام عـــزة بـــــاق والشوق يذهب ما عدا أشواقــــي

حلف الهوى الا يفــــارق مهجتــــي طول الزمان الى بلـــوغ تراقــــي

فالوجد ما طويت عليه جوانحـــــي والدمـــع مــــا جادتــــه آماقـــــي

انا فارس العشـــــاق مـــــا منهـــــم فتى يهتز بين يدي يـــوم سبـــــاق

واذا هم يعدون خلفـــي سرعـــــــا لم يظفروا يوم الهوى بلحـــــاق

فأنا الذي عرف الرجال مقامـــــه من بينهم فى مصـــرع العشـــــاق

— * —

وقد روى أبو الوليد هذه القصيدة القافية . كما روى مقطعات أخرى غزلية ووصفية .

وابو البركات أديب اصيل . وشاعر شهير . وقد ذكر المؤرخون له ديوانا شعريا سماه :

« العــذب والاجاج من كلام أبي البركات ابن الحـــاج » (23)

وهو من أشياخ ابن الخطيب الذين نوه بقدرهم وافتخر بالاخـــــذ عنهم (24) .

ويستمر أبو الوليد فى تقديم قضاة وفقهاء الاندلس على طريقته من اعطاء معلومات عن الشخصيات ثم ذكر ما وصله من شعرها ، وعند ذكر شيخه « فرج بن قاسم بن لب التغلبي » يقول انه ارسل اليه بالاجازة من الاندلس.

ثم يستغل ما حدثه به هذا الشيخ فى اجازته من رواية قصيدة حجازية « لأبي الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي » مطلعها :

وصلنا السرى وهجرنا الديارا وجئناك نطوي اليك القفارا

فيرويها عن شيخيه . القاضيين . أبي عبد الله الفشتالي . وأبي الحسن المومناني ويشرحها شرحا لغويا (25) .

ويظهر أن أبا الوليد ــ وان كان لا يذكر مصادره ــ اعتمد على نقول كثيرة من كتب الأندلسيين وكتب أهل المغرب الذين عرفوا الاندلس وعلى ما سمعه من أفواه المعاصرين . وما قيده من معلومات وجدها فى مصـــــادر شتـــــى .

وفى الباب العاشر يلتقي بنا مع كتاب بني مرين وما لهم من شعــر أنشدوه فى موضوعات مختلفة .

وكتاب المرينيين جماعات شتى من مغاربة . وأندلسيين . وغيرهـم ففيهم . التونسي والتلمساني . والفاسي . والسبتي . والاندلسي . ولكن أبا الوليد حسب منهاجه اعتبرهم جميعا كتابا لبني مرين وبهذه الصفة المشتركة ذكرهم فى هذا الباب . وان كانت لهم حيثيات علمية تفوق صفة الكتابة .

وابتدأ بعبد المهيمن الحضرمي . السبتي وهو شخصية لها وزنها العلمي والأدبي فى ذلك العصر . وقد كتب للعزفيين بسبتة ولبني الاحمر بغرناطة . ولبني مرين وكان من رجال دولة أبي الحسن المريني . وصحبه فى حملته على افريقية . وهناك توفى . بعدما شرق علمه وغرب (26) .

وروى عنه الرواة شيئا كثيرا من العلوم الدينية والادبية . ويكون مع بعض اقربائه اسرة علمية شهيرة ...

ثم تحدث عن الكاتب الحاجب محمد بن أبي عمرو التميمي التلمساني. ويذكر أبو الوليد ان أبا عنان رثى كاتبه هذا لما بلغه وفاته بقصيدة رواها :

الما باجذاث العلى والمناصب تحيى ثراها وأكفات السحائب

وعوجا بأكناف الضريح الذي حوى من الجود والافضال أسنى المراتب

— * —

والمرثية طويلة النفس . فاذا صح ان أبا عنان نظمها هو نفسه فانها تدل على شاعرية رقيقة بين جنبيه ..! (27) .

ورثاه أيضا كاتب أبي عنان أبو عبد الله ابن جزي وكذلك شاعره احمد ابن يحيى ابن عبد المنان . وهذا يدل على قيمة هذا الرجل والخسارة التي شعر بها أبو عنان يوم فقده ...

ثم تحدث أبو الوليد عن أبي القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان المالقي الاصل . ولم يسجله أبو الوليد فى نثير الجمان بما يدل على مشيخة أو أخذ عنه . لكنه فى مستودع العلامة حلاه « بشيخنا » وذكر انه استجازه فأجازه . وتبادل معه فى هذا الموضوع مراسلة تضمنت نثرا متصنعا تخللته أبيات من الشعر . اتى فيها كل من أبي القاسم . وابي الوليد بما يكنه كل منهما للآخر من تقدير واعجاب واطراء .

وحرص ابي الوليد على اجازة ابن رضوان شيء معقول . وفى محله فهو شخصية مرموقة ذات آفاق واسعة فى الرواية والدراية (28) . احتلت مكانتها فى كتب الفهارس والاثبات بسبب كثرة روايتها وكثرة الرواة عنها .

ولابي القاسم ابن رضوان اخ يسمى القاسم ويكنى بأبي الفضل . ذكره ابو الوليد لانه كان كاتب دولة أبي عنان . ولم يرو له شعرا . وانما روى له رسالة كتب بها لابي عنان التزم فى جميع كلماتها حرف السين ..!

وبعدابن رضوان واخيه يذكر أبو الوليد شخصية علمية هي شخصية كاتب الأشغال أبي الحسن الخزاعي . التلمساني الاصل . وكان الخزاعي هذا من رجال العلم والادب (29) ، وقد ألف كتابا سماه : « تخريج الــدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » وهو كتاب حافل عن منشأ الحضـــارة الاسلامية وبواكرها فى الحجاز ، ويدل على مكانة مؤلفه وثقافته الواسعة فى عصـــره (30) .

وقد اتصل به أبو الوليد وانشده شعره فى مدح أبي عنان وذكره فى مستودع العلامة منوها بمكانته وفضله .

ويذكر ابن القاضي فى الجذوة فى ترجمة الخزاعي . انه لما كبا بموسى ابن ابي عنان المريني فرسه بالشماعين بعد صلاة الجمعة بالقرويين أنشد الخزاعـــي :

مولاي لا ذنب للشقراء ان عثــرت   ومن يلمها لعمري فهو ظالمهـــا

وهالها ما اعتراها من مهابتكـــم   من اجل ذلك لم تثبت قوائمهـــا

ولم تزل عادة الفرسان قد ركبــوا   تكبو الجياد ولم تنــب عزائمهـــا

وفى النبي رســول الله اسوتنـــا   اعلى النبيئين مقــدارا وخاتمهـــا

كبا به فــرس ابقــى بسقطتـــه   فى جنبه خدشة تبدو مراسمهـــا

حتى لصلى صلاة جالسا ثبتـــت   لنا بها سنة لاحـــت معالمهـــا

صلى عليه الالـــه دائمـــا ابـــدا   أزكى صلاة تحييهـــا نواسمـــها

— * —

وقد انطقت هذه الكبوة عددا من الشعراء فى ذلك العصر وشغلــوا بالنظم فيــها .

فقد قال ابو عبد الله محمد بن عباد الصوفي الشهير صاحب الرسائل وامام القرويين اذ ذاك وخطيبها :

ان الجـــواد مـــا كبـــا   الا لمـــا فـيـــه نـبـــا

ذاك قبـــول مـــا بـــه   امـــامنـــا تقـربـــا

— * —

وقد خمس هذين البيتين ابو الوليد ابن الاحمر . كما خمسهما كاتب من كتاب بني مرين وهو محمد بن أبي الفضل التميمي (31) .

ويستمر أبو الوليد فى ذكر كتاب بني مرين واقتطاف منتخبات مـــن شعرهم وذكر بعض ملامح شخصياتهم الادبية . ولا شك ان هذا يصور لنا الحالة الادبية التي كانت تحيط ببلاط بني مرين والجو الأدبي الذي كـــان مخيما على كتاب دولتهم .

ويودع ابو الوليد جو الرجال الرسميين المرتبطين بالوظائف السياسية الى جو القضاة والفقهاء والعلماء المرتبطين بالوظائف الشرعية والخطـــط العلمية . وفيهم عدد من شيوخه الذين حضر دروسهم أو طلب اجازتهم . او استفاد منهم . بالمذاكرة والحديث والرواية .

ومن أجل الحديث عن هؤلاء عقد الباب الحادي عشر من الكتاب .

وفى هذا الباب نجد القضاة والفقهاء الذين عاصرهم ابو الوليد وكانوا الى جانب مكانتهم الدينية والعلمية يملكون الذوق الأدبي ويسهمون فى نظم الشعر . لأن نظم الشعر اذ ذاك كان من متممات الشخصية ومن عناصر شهرتها وجاهها عند أصحاب المناصب والسلطة .

فنجد فى هذا الباب القاضي محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي(32) والقاضي محمد بن أحمد بن عبد الملك القشتالي (33) ، ويلفت النظر هنا، ان ابا الوليد ينقل عن المؤرخ ابن أبي زرع ان قشتالة فرع من صنهاجة . وصنهاجة من حمير (34) .

كما يلفت النظر ان ابا الوليد كان يحضر حلقة دروس القشتالي التي كان يلقيها فى مدرسة العطارين بفاس (35) .

وكانت بين القشتالي واعلام عصره مخاطبات ومراسلات . ولاسيما مع لسان الدين ابن الخطيب الذي نوه به فى الترجمة التي كتبها لــه فى الاحاطــة .

ويتابع أبو الوليد ذكر القضاة والعلماء وهم قسمان :

قسم من شيوخه الذين وقع الحديث عنهم فى الفصل الخاص بشيوخه. وقسم من أصحابه الذين عرفهم وروى بعض أخبارهم واشعارهم ..

ويلفت النظر ان ابا الوليد ذكر فى ترجمة أحد اصدقائه وهو سعيد بن ابراهيم السدرتي المعروف « بشهبون » . انه كان مغرما بنظم الزجل فى فاس وله براعة فى ازجاله شهد له بها جماعة من اعلام العصر ... (36) ولم يذكر زجله ، وانما ذكر موشحا مدحه به ..!

ويختم أبو الوليد كتابه نثير الجمان بالباب الثاني عشر الذي تحدث فيه عن السيف الذي قيل انه جعل فى أعلى صومعة القرويين وانه من سيوف الامام ادريس مؤسس المدينة . وما نظمه الشعراء فى هذا السيف .

وقد اخلص ابو الوليد الى منهاجه والى طريقة العرض والى اسلوبه المتصنع فلم يحد عنها الا قليلا . ولعله كان يعلم ان جل اهل الادب من الشعراء والكتاب . وجل اهل العلم من الفقهاء والقضاة كانوا فى ذلك العصر يأخذون انفسهم ويأخذون غيرهم باعتبار التصنع والتصنيع قضية اسلوبية لا جدال فيها ..! زيادة على اهل السلطة والنفوذ الذين كانوا يزينون حاشيتهم بمن استجمع اداة التصنع فى النظم والنثر ..!

اما تاريخ تأليف نثير الجمان فيظهر حسب استقراء الحوادث وتاريخ الشخصيات المذكورة فيه ان ابا الوليد كان يكتبه فيما بين سنة 776 هـ = 1374 م وسنة 777 هـ = 1375 م .

والدليل على ذلك ان ابا الوليد يذكر شيخه محمد بن احمد بن عبد الملك الفشتالي المتوفى سنة 777 هـ . ثم يقول : « حاله . سلمه الله » (3) وسلمه الله . دعاء للاحياء لا للاموات ...!

ويذكر ابن خلدون . ويتحدث عن بعض اخباره ثم يقول :

« وهو الآن فى الاندلس فى حضرة ابن عمنا امير المسلمين الغني بالله » (38) .

وابن خلدون كان فعلا فى الاندلس سنة 776 = 1374 م كما صرح بذلك فى رحلته (39) .

واخبار الشخصيات . وملابسات الظروف التي قيلت فيها الاشعار لا تخرج عن هذا التاريخ بمعنى ان تاريخها ليس متأخرا عن سنة 777 هـ بل هو متقدم عليها ...!

وقد اخترنا ان يكون الحديث عن أهمية الكتاب موزعا بالاشارة الى كل الابواب التي عرضت ووقع الحديث عن محتوياتها ..!

والمعروف الى حد الآن من نسخ نثير الجمان نسختان فريدتان :

الاولـــى : نسخة دار الكتب بالقاهرة التي تحمل رقم 1863 ــ ادب ــ وهي نسخة بخط مغربي كتبت ظنا فى القرن التاسع الهجري . مبتورة بترا قليلا من البداية والنهاية . وبها تبر وسطها ضاعت بسببه ترجمة لسان الدين ابن الخطيب .

وحجم النسخة 21 سم × 16 سم ومسطرتها 21 سطرا واوراقها130 الا ان عيب هذه النسخة هو الحزم الذي أتى على بعض الاوراق من جهتها السفلى فلما رممت حجبت عدة سطور . وعدة كلمات . ولاسيما من الابواب الاولى كما ان ترتيب الاوراق يحتاج الى دراسة وتصحيح من جديد .

وهناك تعليقات على هامش الاوراق الا أن كثيرا منها حجب بسبب الترميم الذي وقع فى النسخة .

الثانيـــة : نسخة الخزانة الملكية بالرباط تحمل رقم 3791 .

وهي نسخة بخط مغربي متاخر كتبت ظنا فى القرن الثاني عشر او اوائل الثالث عشر نظرا لما جاء فى بعض الاوراق الملحقة بهذه النسخة ومسطرتها 21 سطرا . وحجمها 21 سم × 16 .

وقد عملت الارضة عملها فى بعض الاوراق ولا سيما الاولى منها فلم تبق من بعضها الا كلمات قليلة .

والنسخة غير مرتبة الاوراق لذلك كانت الاستفادة منها تحتاج الى ترتيب الاوراق ليمكن معرفة ما فيها من زيادة او نقص .

واثناء قراءتي لهذه النسخة ومقابلتها مع مصورة نسخة دار الكتب لاحظت مع الاسف اننا اذا اردنا اخذ نسخة مصححة على النسختين الموجودتين الآن . فان ذلك لا يتم الا بالبحث عن نسخة ثالثة تكمل النقص المشترك بينهما .

وسبق للمستشرق الاسباني خوسه باسكت ان نشر الباب الثالث من هذا الكتاب وهو المتعلق بشعر ملوك بني الاحمر ، وسمى مؤلف الكتاب هكذا : اسماعيل بن يوسف ملك غرناطة .. ! (40)

عبد القادر زمامة

---

(1) طبع قسم منه بتطوان بتحقيق الدكتور محمود مكي .
(2) طبـع بفـاس سنـة 1347 هـ .
(3) نثير فرائـد الجمـان ص 244 .
(4) نثيـر الجمـان . 2 / ظ
(5) الحديث فى صحيح البخاري فى كتاب الحج .
(6) نثيـر الجمـان 68 / و .
(7) نثيـر الجمـان 74 / ظ .
(8) نثيـر الجمـان 88 / ظ .
(9) نثيـر الجمـان 115 / ظ .
(10) سلـوة الانفـاس ج 3 ، ص 256 .
(11) نثيـر الجمـان 119 / ظ .
(12) نثيـر الجمـان 88 / ظ .
(13) نفـس المصـدر 92 / ظ .
(14) انظر ج2 ص6 ط. الاولى وانشد ابياتا فى الموضوع ، انظرها فى الطيب والجهام .
(15) انظـر ج 2 ، ص 261 .
(16) ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة ج 1 ، ص 229 ، ط. الثانية ، وهو من اشياخه جمع له ديوانا سماه : الـدرر الفاخـرة . واللجج الزاخرة . وذكره فى الكتيبة ، ص 216.
(17) ذكره ابن الخطيب فى الكتيبة ، ص : 269 .
(18) المرقبـة العليـا للنباهـي ، ص : 177 .
(19) العبـر ، ج 7 ، ص : 691 . وكتاب الرحلة ، ص : 61 .
(20) انظـر ، ص : 62 . وانظر نثير فرائد الجمان ص : 235 .
(21) نثيـر الجمـان 45 / و .
(22) الجـذوة ص : 182 . ط حجرية .
(23) نفـح الطيـب ج 5 ، ص : 473 .
(24) الكتيبة الكامنة ص : 127
(25) نثيـر الجمـان 54 / و .

(26) انظر عنه فهرس الفهارس : ج 1 ، ص : 258 . وابن خلدون ج 7 ص 515 ونفح الطيب ج : 5 ، ص : 240 . وجذوة الاقتباس ص : 278 .

(27) نثيــر الجمــان 64 / و .

(28) انظر ما كتبه عنه احسان عباس في كتاب العيد الذي اصدرته الجامعة الأمريكية ببيروت 1967 ص : 99 .

(29) جذوة الاقتباس ص : 309 . ودرة الحجال ج 2 ص : 442 .

(30) التراتيــب الاداريــة ج 1 ، ص : 26 .

(31) مستودع العلامــة ص : 39 . وجذوة الاقتباس 309 .

(32) درة الحجال ج 1 ص : 283 . ونفح الطيب ج ٤ ص 241 . والسلوة ج 3 ص 276 .

(33) الاحاطة ج 2 ص 133 ، ط. الاولى . والجذوة ص 146 .

(34) نثيــر الجمــان 96 / و .

(35) نفــس المصــدر .

(36) نثيــر الجمــان 122 / ظ .

(37) نثيــر الجمــان 96 / و .

(38) نثيــر الجمــان 83 / و .

(39) كتاب التعريف بابن خلدون ، ص : 226 .

(40) مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد السادس (1و2) ص187

إتجاه في الاطلاع

عبد الكبير الفهري الفاسي

ان المتتبع لحركة النشر والتاليف في الوقت الحاضر يبقى مشدوها عند ما يلم بما يطالعه الناس فالقليل منهم يطالع الروايات الاجنبية ولكن الاكثرية من القراء تجنح الى نوعين من الكتب قد يكون شكلها في قالب روائي كذلك، وقد يتخذشكل محاولات وكتبعادية. وهذانالنوعان هماكتب التاريخ والتراجم وسير مشاهير الرجال والروايات التاريخيـة من جهـة والكتب عن المخترعات والروايات التنبئية العلمية مما يعرف بالافرنسيـة Roman d'Anticipation من جهة اخرى .

فقراء الروايات على صنفين : قراء مشغوفون بهذا الفن لانهم يتذوقونه ويتذوقون تحليل العواطف والخواطر النفسية ولربما كانوا من اهـل هذا الفن او يحسون انهم منهم او يحسون من انفسهم القدرة على كتابة مثل

ما يطالعونه او على الاقل القدرة على انتقاده والحكم عليه بعد تقويمه وتقديره . والصنف الثاني يتطلب من ذلك مجرد التسلية لما هم فيه من تكاليف الحياة اليومية ومشاقها على النفس التى تكد وتجهد من جراء ثقل عبء الايام عليها خصوصا مع البطالة لدى من يقضي الحياة فى غير عمل يدفع الى القيام بواجب أو ضمير او هواية فهم يقرأون ويهدفون بقراءتهم الى الخروج من حياة الواقع ومن واقع الحياة ليلجوا عالما خياليا ينسيهم بعض ساعات ما هم فيه من شؤون وما فى تلك الشؤون من شجون .

وهؤلاء القراء انفسهم ليسوا صنفا واحدا بل هم صنفان يمتاز الاول بالثقافة العالية فلا يقرأ مطلق الروايات بل يقرأ كتب قدماء الروائيين سواء من كتاب اهل لغته او من اللغات الاخرى التي يحذقها . كما يقرأ الروايات التى عرف اصحابها من بين أهل الادب الرفيع الذى لا يتذوقه كل أحد ولا يتذوقه فى كل امة الا طبقة خاصة من الناس . واما الصنف الثاني من قراء الروايات فهم قراء الروايات البوليسية والمغامرات أي تلك الكتب التي تخرجك من واقع الحياة الى حياة خيالية أشبه ما تكون بالواقع من الحياة غير ان فيها عناصر من المغريات تنسيك انك منغمس اثناء قراءتها فى صميم حياة سوداء قذرة ، حياة الاجرام والتدليس والمكر والتختل والاذاية والبؤس والشقاء . وكان قارئها يحس من نفسه انه سيكون يوما من الايام ضحية من نوع الضحايا التى يقرأ عنها او فردا من اولئك الاشرار الذين تدور الرواية على ما يأتونه أو يعيشونه من مغامرات أو على ما يصدر عنهم من انواع المكر ومظاهره . فهو حسب احساسه وشعوره ورقته او غلظ طبعه وجفائه وقربه من الشر والمكر او بعده عنهما يبتئس للضحية ويشفق عليها ويتألم او يصفق لاعمال البطل ويغلو فى تكريمه نفسيا . وقلما وجدت قارئا لهذا الصنف من الروايات وله ثقافة فكرية واسعة او قابلية للتفكير فطرية لان مطالعتها لا تدعو الى تفكير او امعان فى نظر ، بل تاتيك بالالغاز معقدة فى اوائلها ثم تحلها لك تدريجيا او تجعلك على ابواب حلها من غير ادنى مشقة . فمطالعتها عبارة عن كسل فكري او سقوط فى درجة الذكاء الفكري كثيرا ما يصحبه شذوذ فى الذوق . ونرى من المنكر حشرها فى زمرة الانتاج الادبي لاسيما فى الوقت الذى اصبحت فيه صناعة من الصنائع يتعيش منها كثير من الكتاب الذين يكاد يكون الادب اقل صفاتهم كما يتعيش منها كثير من الناشرين الذين اصبحت ثرواتهم لا

تعد ولا تحصى بفضل استغلالهم لهذا الميل الفاسد فى كثير من القراء الشعبيين أو من قراء الطبقة الوسطى من الناس . وقد يدخل فى هذا الباب عدد من الجرائد والمجلات التى انشئت للحديث كل اسبوع او كل شهر لقرائها عن حوادث الاجرام والفتك والاتلاف والتسميم ونشر صور المجرمين على اختلاف انواعهم وتباين انواع اجرامهم الذي هو ظاهرة من مظاهر تدهور الاخلاق والانحلال ، لعدم وجود وازع لا من دين ولا من ضمير فى المجتمع الانساني الراهن . ويدخل فى هذا الباب بعض الافلام التلفزيونية التى اخرجت من كتب الاجرام غير ان الظاهرة الكبرى فى هذا الاتجاه فى الاطلاع هي الاقبال على مطالعة كتب التاريخ والاشتغال بالتاريخ وحتى بما قبل التاريخ. وهذا الاقبال كان بلا ريب موجودا مشاهدا فيماقبل العهد الذى نعيش فيه غير أنه تزايد وتضاعف وشاع امره حتى فى الاوساط التى ليست من أهل الاختصاص به وذلك الى حد بعيد . وتعليل هذا التزايد والتضاعف سهل يسير اذا كنا نعلم ان الشعوب عاشت حربين طاحنتين اعقبهما عهدان تدهورت فيهما القيم الانسانية وارتبكت فيهما الاحوال الاجتماعية واضطربت فيهما الشؤون الاقتصادية بحيث اصبح الرجل سواء فى الشرق او فى الغرب ـ يعيش فى حيرة وارتباك لان الاستقرار وهو ميزة كل حياة حضارية ، اصبح مفقودا في كثير من الميادين وفى كثير من مرافق الحياة فالانسان ينشد ذلك الاستقرار المفقود الذى يعتقد بان السعادة فيه بين طيات الماضي الغابر او القريب لان في بعض ما مر من عهوده عرف الناس الاستقرار . الا يسمى الافرنسيون مثلا عهد ما قبل الحرب العالمية الاولى العهد الجميل La Belle Epoque ؟ أليست هناك نظرية يونانية قديمة تزعم ان عهد الانسانية الذهبي L'Age d'Or كان فى فجر تاريخها ، وان وعي الانسان الباطني لا زال يرجع الى ذكريات ذلك العهد الذي كان الذهب فيه هو المعدن السائد (1) ثم مسخ بعد رصاصا وحديدا كما مسخ الانسان الذى كان قريبا من الملائكة بلد الآلهة فى نظرهم ـ يحيى حياة سامية مثالية مسخ الى ما هو عليه الآن فى عهد الانسانية المعروف فى التاريخ ؟ .

ومن المعلوم ان الانسان الحديث الذي يدين بالولاء

---

(1) ولا يزال والحمد لله

للعلم يجعله يعتقد ان تسلسل التطور يقضي بأن العصر الذهبي للانسانية هو رهن المستقبل وان اعتقاده كان في الاحقاب الغابرة هو مجرد خيال ولد مع الميثولوجيات وأن خير الانسانية انما هو امام .

فالاقبال الموجود الآن على كتب التاريخ لا يمكن ان يعلل بغير ذلك نعم يمكن ان يضاف الى ذلك التعليل رجوع الانسان الى نفسه ودرس حياته الماضية لاستلهامها في حل شتى المشاكل التى يتخبط فيها فى غير ما مضمار وما ذلك الا لكون الارتباك الذى يعيش فيه الانسان الذى يجعله فى حيرة من أمره فيحاول الخروج من حياته بولوج حياة الماضي التي يعكسها التاريخ فى دواوينه . ولعل هذا الاقبال هو الذى حمل المؤرخين على تجديد النظر فى شؤون التاريخ وتجديد أساليبه وطرق بحثه لان رجل اليوم ليس هو رجل القرن التاسع عشر ولا رجل القرون التى قبله

وهذا موضوع خاص بذاته يستحق ان يفرد له بحث خاص به .
وقد ظهر من هذه الكتب الشيء الكثير وظهر منها ما فاق فى تكهناته تكهنات الروائي الافرنسي جول فرن Jols Vernes الذى عرف فى القرن التاسع عشر بتلك التكهنات ، كما ان بعض ما فى تلك الكتب فاق تكهنات الكاتب الانجليزي والز Welles الذى خلف زميله الفرنسي فى العقد الثاني من هذا القرن واربى عليه بكثير بما شئت من كتب وروايات تفضل لك الرحلات الى القمر او الزهراء وما شئت من كتب تدرس لك الاشعةالقاتلة من بعيد او عن كتب الدوس هكسلى التى تحدثك عن حياة مجتمع اقل ما فيه من عجائب انك تشتري فيه الطفلة او الطفل فى شكل ماء غير دافق من الصيدلية فلا يكلفك شراء ذلك عناء الحمل ولا الم الطفل ولا مشاق التربية الاولية كما تشتري الطيور فى الاقفاص والاسماك الحمر فى أواني الزجاج !!..

غير أن هناك من يزعم ـ وهم علماء الانطوكرافيا وبعض علماء الروح ـ أن الانسان فى تطور مضطرد وان ما ينتظره فى مستقبل الايام هو افضل بكثير مما عرفه الى حد الآن مستندين فى ذلك على ما بلغه الفكر الانساني

من هذه النظريات والاكتشافات العلمية الخارقة التى توجها ما وصل اليه العلم الحديث من تحليل الذرة وما سينبني على هذا الفتح العلمي من خير للانسانية ؟ وهذا الامل الذى نرجو من العناية الربانية ان يتحقق ولولا الامل لضاقت فسحة الاجل ـ وان تكلأه برعايتها ـ هو الذى يدفع كثيرا من القراء الى التهافت والانكباب على مطالعة كثير من الكتب والروايات التى تدور حول ما ستكون عليه الانسانية فى مستقبل الايام فى مستقبل قريب او بعيد لربما كان عنفوانه حول منتهى هذا القرن أي فى سنة 2000 فعلى ما يدل هذا الاتجاه فى الاطلاع يا ترى ؟ فان دل ذلك على شيء فانما يدل على حيرة الانسان وارتباكه فى حياته اليومية لانه فقد طمانينية الايمان بنفسه والايمان بوجوده ، كما فقد الاستقرار فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فهو فى ملتقى الطرق ، وفى مهب الرياح ، بين ماض حافل بذكريات خير وشر وحاضر مضطرب مظلم لا تدعو الحياة فيه الى الاطمئنان كما هو على ابواب مستقبل لا يعلم ما تخبئه له الاقدار فيه .

وقد يقول قاريء : ان الحيرة والارتباك فى الحياة الانسانية ، ليسا ميزة لعصرنا هذا دون غيره وان جميع الاجيال التى تقدمت قد عرفت قليلا او كثيرا من ذلك وعاشت فيه. نحن لا نناقش ذلك وانما نقول بأن عصرنا هذا قد عرف ذلك الى حد بعيد ربما لم تعرفه الانسانية فى عهد من عهودها ، وارتبطت مصالح الشعوب وتشعبت نظرا لسهولة اتصال الشعوب ببعضها سهولة لم تعهد فيما قبل . على اننا نعتقد ان فترات الاستقرار فى تاريخ الانسانية لا تدوم الا بقدر ما تدوم الزهور ، وليس الارتباك او الحيرة الا مظهر من مظاهر العراك والكفاح . والكفاح سنة الحياة الاولى والاخيرة ، الكفاح بين النور والظلام ، بين العلم والجهل، بين الخير والشر ، بين العدل والظلم، بين الاستعباد والحرية.

تعب يطول مع الرجاء بذي الهوى
خير له من راحة مع ياس

الرباط   عبد الكبير الفهري الفاسي

ابن سيده المرسي

دراسة في حياته وآثاره

بقلم المستشرق الاسباني :
د. داريو كابانيلاس روديكس
ترجمة وتعليق : حسن الوراكلي

بدأ اهتمامي بابن سيده منذ كنت طالبا بقسم فقه اللغات السامية في كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد ، ففي ذلك الوقت ركزت عنايتي على معجمه « المخصص » ــ وهو يومئذ الاثر الوحيد الذى طبع لابن سيده ــ وشرعت اسجل ملاحظات وتعليقات حول مناح في المعجم المذكور تسترعي الانتباه ، وفي الآن عينه مضيت استقصي كل ما كتب عن ابن سيده في معاجم الرجال ، بيد ان ذلك كله لم يكن بقصد انجاز دراسة بكيفية عاجلة من هذا اللغوي الاندلسي .

وبعد ذلك بسنوات ، التقيت ، خلال صيف سنة 1955 في المكتبة الوطنية بباريس ، بالشاب التونسي الاستاذ محمد الطالبي ، وكان

يشتغل ، يومها ، باعداد اطروحة عن مخصص ابن سيده تحت اشراف المستشرق الفرنسي الكبير ريجيس بلاشير ، وفى السنة التالية تفضل فاوسل لي من تونس نسخة من دراسته التى نشرها بعنوان : « المخصص لابن سيده : دراسة ودليل (Al Muha (ssas d'Ibn Sidah : Etude - index وهي مكتوبة بالعربية باستثناء مقدمة تقع فى ثلاث صفحات ، كتبها بالفرنسية ، وقد عني الاستاذ الطالبي بالدرجة الاولى فى دراسته المذكورة بوضع فهارس تامة وفق الترتيب الالفبائي ، لكل الموضوعات التى تضمنها « المخصص » وهذه بادرة لم يسبق اليها الاستاذ الطالبي فى طبعة المعجم المذكور اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن والحق أن وضع الفهارس هنا جاء ليبسر عملية الولوج الى هذا المصدر المعجمي البالغ الثراء ويتيح استعماله على نحو مجد ومفيد ليس فقط بالنسبة لطلبة اللغة العربية ولعشاق هذا اللون من الدراسة ، ولكن ، ايضا للمتخصصين انفسهم .

وقد قدم الاستاذ الطالبي بين يدي هذه الفهارس بنظرات خاطفة فى تاريخ اللغة العربية وترجمة وجيزة لابن سيده ووصفا عاما للمخصص ، ثم ابرز بشكل خاص المناهج التى اتبعها ابن سيده فى املاء معجمه .

وكان الشروع فى نشر معجم ابن سيده « المحكم » فى القاهرة سنة 1958 بتصدير الدكتور طه حسين وتحقيق الاستاذين مصطفى السقا وحسين نصار اللذين كتبا له مقدمة قيمة ، حافزا جديدا لي على مواصلة الاحتكاك بهذا اللغوي الاندلسي الشهير .

وفى سنة 1960 اتيحت لي الفرصة للاطلاع على كتاب الاستاذ ا. هايوود A. Haywood عن المعاجم العربية : تاريخها ومكانتها فى التاريخ العام للمعاجم .

Arabic Lexicography, ist history and ist place in the general history of Lexicography

وقد وقف المؤلف ، حين رسمه للاطار العام للمعجم العربي عند ابن سيده ، مشيرا الى مميزات عمليه الرئيسيين اللذين تقدم ذكرهما ، وهما : « المخصص » و « المحكم » دون تفصيل القول فى ذلك ، وانما حال بين الاستاذ أ. هايوود وبين الخوض فى الجزئيات والتفاصيل حين عرض لابن سيده سعة للموضوع الذى يعالجه كما يتراءى من عنوان كتابه وحرصه على منطقية التناسب بين أجزاء الكتاب .

ثم كان حصولي على النسخة الكاملة من «المخصص» الى جانب فهارس الاستاذ الطالبي، وهي أداة للافادة من هذا المعجم، مما حمسني على المضي فى دراسة ابن سيده بشيء غير قليل من الاصرار والمواظبة ، وهي دراسة كنت بدأتها منذ اعوام عديدة ، لكنني كنت ادعها مرات كثيرة لاعالج موضوعات اخرى لعلها دونها عسرا، لكنها ليست اهم منها ، وقد نتج عن ذلك كله مقال نشرته فى مجلة « المنتخب من الدراسات العربية والعبرية » التى تصدرها جامعة غرناطة بعنوان : « المخصص لابن سيده المرسي : اول معجم موضوعي (1) فى الغرب الاسلامي »
Muhassas
de Ibn Sida, Primer Diccionario de ideas afines en Occidente Musulman

وقد تضمن هذا المقال نظرة عامة حول بنية المعجم المذكور والمنهاج المتبع فى تأليفه والقيمة الحقيقية لمضمونه سواء بالنظر الى افقه التاريخي أو فعاليته الحالية ، وقد أفدت كثيرا فى كتابة هذا المقال من فهارس الاستاذ الطالبي كما انتفعت فيه بمختلف الاشارات والملاحظات المبثوثة فى دراسته التى قدم بها لتلك الفهارس .

وفى منتصف شتمبر (1962) انعقد المؤتمر الاول للدراسات العربية والاسلامية فى مدينة قرطبة ، وكان من الابحاث التى استمع

اليها المؤتمرون بحث للاستاذ هايوود عن ابن سيده (458 / 1065) اعظم لغويي الاندلس »
Ibn S da (d. 458/1.066), the greatest andalusian lexicographer.
لفت فيه الانظار من جديد الى شخصية ابن
سيده وحلل بكيفية اوسع مما فعل فى كتابه السالف الذكر ، خصائص « المحكم » و « المخصص » .

وفى نفس السنة انعقدت الجلسات الاولى للثقافة الاسبانية — الاسلامية فى غرناطة (من ثامن اكتوبر الى السادس والعشرين منه) ، وقد اسهمت فيها ببحث عن « المخصص » ، تناولت فيه من نحو اهمية هذا المعجم فى حقل المعاجم العربية ، ومن نحو آخر اسبقيته للمعاجم الاوربية التى الفت فى نفس الاتجاه .

واذا كنت ، اليوم ، قد عزمت على ان اخص هذا اللغوي المرسي الذائع الصيت بهذه الدراسة الموجزة فان ذلك يلبي عندي باعثين جوهريين : اولهما يتمثل فيما أشعر به من رغبة فى ترتيب وتأليف ما كنت مضيت ادونه من مادة بين حين وآخر عبر عشرين سنة عن ابن سيده وآثاره والافادة من اشارات وملاحظات طالعتنا بها دراسات نشرت مؤخرا ، لها صلة ، من قريب او بعيد بابن سيده ، ولاسيما ارجوزته التى لم يستفد منها الباحثون المحدثون (2) فيما كتبوه عنه برغم ما نشره منها الاستاذ حبيب زيات فى مقال يعرف بها بمجلة المشرق سنة 1938 . وهذه الارجوزة بالغة الاهمية ، فهي تعرفنا على شيوخ ابن سيده ، وعلى الكتب التى درسها خلال فترة الطلب والتحصيل ، كما انها تسلط الاضواء على مزاجه المعقد وموقفه من ادباء وفقهاء عصره، والعلاقة التى كانت تربطه بأميري دانية مجاهد الموثق وابنه اقبال الدولة العامريين.

وثاني الباعثين هو الرغبة فى الاسهام بهذه الدراسة فى تكريم روح

ابن سيده بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاته (1066 ـ 1966) ، يحدوني أمل من وراء ذلك كله فى « اخراج » شخصية ابن سيده العلمية ، الاصيلة من نطاق المتخصصين والتعريف بها بين طلبتنا فى قسم فقه اللغات السامية ، بل فى آفاق ثقافية اوسع من ذلك وارحب .

واذا كان هذان الباعثان يؤلفان معا ما قصدت اليه من كتابة هذه الدراسة فانهما يفسران ظاهرتين لافتتين للنظر فى ثناياها ، اولاهما شرحي ، مرات متعددة لمصطلحات واردة فى صلب النص (3) ، وهو امر لا داعي له اطلاقا لو ان هذه الدراسة كانت تقدم خاصة للمبتدئين فى هذا اللون من الدراسات وليس لعامة المثقفين ، وثانيتهما تفصيلي الكلام ، استجابة لرغبتي فى ان تصبح شخصية ابن سيده معروفة ومأنوسة لطلبة اللغة العربية من الاسبان ، حين التعرض لدرس وتحليل أهم آثار ابن سيده ، ونعني بذلك : « المحكم » و « المخصص » هذان المعجمان بما تميزا به من دقة التأليف وروعة الاعداد وثراء المضمون يحملاننا على اعتبار ابن سيده اعظم « معجمي » عرفته الاندلس .

مصـــادر اصليـــة

يبدو لي من المناسب ، قبل ان نشرع فى دراسة حياة ابن سيده وآثاره ، ان اقدم ، هنا وصفا للمصادر الاصلية التى اعتمدتها فى هذا البحث ، وذلك حتى يتسنى للقاريء تكوين فكرة واضحة عن هذه المصادر التى نستقي منها ، وقد وزعتها على ثلاث مجموعات .

1) المترجمون القدامى .

لا بد ان ننبه قبل كل شيء ـ ونحن نبدأ بما يمكن تسميته الانعكاسات الخارجية لحياة ابن سيده ـ الى انه برغم وفرة عدد الذين ترجموا له منذ تاريخ وفاته فان التفاصيل التى نظفر بها فيما كتبوا عنه

جد ضئيلة ، على أن هذا ليس ينبغي عزوه فقــط الى خلو حياة هــذا اللغوي الضرير من مواقف خطيرة وظروف مؤثرة ، بل ايضا ، وبنسبة كبيرة ، الى منهاج المترجمين العرب القدامى ، فقد كان الخلف منهــم ينقل عن السلف ، مشيرا الى المصادر التى ينقل عنها احيانا ، ومغفــلا ذكرها احيانا اخرى ، وتميزت عملية النقل عندهم فى اغلب الاحيان بالنسخ والحرفية او مع تغيير طفيف فى النص المنقول ، ومن ثــم لم يوسعــوا باضافات جديدة رقعة الصور التى انتهت اليهم من اسلافهم الا فى مرات معدودة تشكل فيما بينها الاستثناء الذى يؤكد القاعدة .

من اجل ذلك ، وايضا لكي نحدد عدد الاقتباسات والاستشهادات الوافرة ، اعتمدت فى كتابة هذا البحث احد عشرة مصدرا ، خمسة منها لمؤلفين اندلسيين وستة لمؤلفين مشارقة ، ومن الممكن تصنيف مؤلفي المصادر المشار اليها تاريخيا ابتداء من القرن الحادي عشر الميــلادي الى اوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وفى الملاحق التى ذيلنا بها هذه الدراسة سنورد ما كتبه اصحاب تلك المصادر عن حياة ابن سيده وآثاره وسنشفع ذلك ببعض التعليقات . ويلوح ان هؤلاء المؤلفين الاحد عشر هم اصدق مترجمي ابن سيده سندا وأصحهم خبرا ، وهم : الحميــدي وصاعد الطليطلي وقد عاصرا ابن سيده وتوفيا ايضا ، مثله ، فى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ثم ابن خاقان وابن بشكوال وابن خير ، وكانت وفاتهم فى القرن الثاني عشر ، يلي هؤلاء الضبي المتوفي فى اوائل القرن الثالث عشر ، وفى عقبه يأتي ياقوت والقفطي وابن خلكان ، وقد توفوا فى فترات متأخرة من القرن الثالث عشر يعقــب هؤلاء الصفــدي المتوفى فى النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، وتختم هــذه القائمــة بالسيوطي المتوفى فى مطلع القرن السادس عشر .

ويمكننا ان نقسم هؤلاء المؤلفين الى طائفتين مختلفتين الى حد ما بالنظر الى الحيز الذى شغلته ترجمة ابن سيده فى كتبهم تضم الطائفة الاولى ياقوت والقفطي وابن خلكان والصفدي ، وترجمة ابن سيده عندهم

اطول واوفى مما عند غيرهم ، وتتألف الطائفة الثانية من المترجمين السبعة الآخرين، ويلاحظ فى كلامهم عن ابن سيده الايجاز وشدة التشابه، غير ان هذه الفروق الدقيقة بين الطائفتين لا ترجع الى فقر او ثراء المادة الخبرية التى كان المؤلفون المذكورون يتوفرون عليها فى ترجمتهم لابن سيده وعرضهم لآثاره ، بل هي راجعة ، على الاصح ، الى الميزة العامة التى طبعت كتبهم وما كان الواحد منهم يتوخاه فى كتابه ويهدف الى ادراجه من مواد فى تضاعيفه .

وهكذا فى الوقت الذى يكتفي فيه الحميدي والضبي من بين جميع المؤلفين المذكورين بالترجمة الخالصة لابن سيده والاشـارة الى نتاجـه دونما تعيين او تحديد او تسمية كتاب واحد من كتبه ، يطالعنا ابن خير فى فهرسته وقد صب اهتمامه فقط على احصاء مؤلفات الرجل دون العناية بحياته .

ويعد كل من الحميدي وصاعد الطليطلي لكونهما عاصرا ابن سيده حجة فى ترجمته وذكر كتبه على ما فى كلامهما من ايجاز ملحوظ ، وقد افاد منهما جل مترجميـه من بعدهمـا ، ومنهم من كان ينـص علـى اسميهما ، ومنهم من كان ينقل عنهما نقلا يكاد يكون حرفيا دون ان يورد لهما ذكـرا .

وينبغي ان نلفت النظر، لنتجنب الوقوع فى خاط ممكن ، الا ان بعض المترجمين الدين استقوا مادتهم من صاعد الطليطلي اوردوا اسمه على اكثر من صورة ، فابن بشكوال ، مثلا ، يسميه القاضي صاعد بن احمـد ، وياقـوت يسميـه القاضـي صاعـد الجيانـي او القاضـي الجياني فقط ، فى حين يسميه القفطي القاضي صاعد والصفدي القاضي صاعـد الجيانـي ، وكذلـك نلمـس اختلافـا فى بعـض نقولهـم عنه مما يحمل على الافتراض بوجود نسختين مختلفتين من كتاب صاعد الطليطلي ، تؤكد هذا بكامل الوضوح وتؤكده اشارة لياقوت ـ نقلها عنه الصفدي ـ فيما يتصل باسم والد ابن سيده الذى يختلف عند

صاعد من نسخة الى اخرى على نحو ما سنرى فى الفصل التالي ، هذا ولم يكن صاعد من مواليد جيان ، بل انه ولد فى المرية عام 420 هـ / 30 ـ 1029 م ، وولي قضاء طليطلة وبها كانت وفاته فى الرابع من شـوال عام 462 هـ / 6 يونيه 1070 م (4) .

ب) اخبـار ذاتيـة :

منذ ما يزيد على ربع قرن عثر الاستاذ حبيب زيات في دمشق على ارجوزة لابن سيده ضمن مجلد مخطوط يتألف من ثلاث وثلاثين ورقة فى جملة اجزاء وجزازات شتى ، وليس من شك فى ان العثـور على هذه الارجوزة يعد اكتشافا هاما لمعرفة شخصية ابن سيده ، وهذا المجلـد الذى تضمن الارجوزة المذكورة غفل من التاريخ ولا خاتمـه فيه ، وقد اكتفى ناسخه بكتابة هذه العبارة الوجيزة فى أعلى الورقة الثانيـة من الجانب الايسر : « من كتب من كتب الهريري من حلب » وفى آخر المخطوط ثماني صفحات من اوائل كتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » ، وسائره ارجوزة غريبة جدا ، قدم لها بالايضاح التالي ، بخط الهريري المذكور : « هذه ارجوزة ابي الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي البارع المعروف بابن سيده المغربي المرسي صاحب كتاب المحكم فىاللغة رحمه الله تعالى آميـــن » .

ويزعم الاستاذ حبيب زيات انه لم يشر الى هذه الارجوزة احد من الذين ترجموا لابن سيده واحصوا مصنفاته ، غير ان هذا الزعم يبطله ما ورد من وصف للارجوزة المذكورة فى فهرسة ابن خير الاشبيلي المتوفى سنة 593 هـ / 1197 م ، وهذا نصه : « جزء فيه ارجوزة الاستاذ أبي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الاعمى المرتبة على حروف المعجم المبنية على قولهم ما اسمك بكذا ، حدثني به شيخنا ابو الحسن يونس بن محمد بن مغيث (5) رحمه الله عن القاضي ابي عمر احمـد بن يحيـي بن الحذاء التميمي (6) ، وناظمه ـ أي ابن سيده » (7) .

وفى نسخة الارجوزة التى عثر عليها الاستاذ زيات فى دمشق ، والتي يمكن الى الآن اعتبارها النسخة الوحيدة ، اوهام فى النقل واختلال فى وزن ببعض الابيات « لتعريف فيها او سقوط بعض الفاظها » ، وقد نشر الاستاذ زيات ـ كما اسلفنا الاشارة سنة 1938 اهم مقاطع هذه الارجوزة مذيلة بتعليقات موجزة عليها ، ومن خلال النشرة سأفيد فى كل اشاراتي الى الارجوزة المذكورة خلال هذا البحث (8) .

والموضوع الجوهري لهذه الارجوزة لغوي ، وقد مهد له ابن سيده نفسه فى مقدمة استغرقت عشرين بيتا (9)، بعد البسملة ، وتخيل الناظم فى هذا التمهيد ان ركبا من رجال المشرق (أكارم الانفس ، لد المنطق) تركوا اوطانهم ، لعل (حب العي او نبوة من الزمن) كان هو ما حملهم على ذلك مثلهم كمثل انبياء كثيرون هاجروا اوطانهم فى الازمنة الماضية وضاعف الاله ، بعد ذلك ، سلطانهم فى تلك المواطن التى استقروا فيها :

وكم نبي تارك اوطانه شد الاله ، بعد ذا ، سلطانه

ولكي تتاح الفرصة لافراد الركب للتعريف بأنفسهم تصور الناظم انهم سئلوا ، فردا فردا ، عن كل ما من شأنه ان يكشف عن حياتهم ، فتوالت اجاباتهم واحد اثر الآخر، انهم اذ كانوا فيما مضى فتيان مرصين لعوبين، يعيشون فى كبريات الحواضر الواقعة على ضفاف الانهار او المطلة على مياه البحر الزرقاء ، فان كلا منهم ، اليوم شيخ قبيلة ورب اسرة وفارس يجيد تسديد السهام ، وشاعر ورجل البذل والعطاء ، يذكر اسم الاب والخال ومسقط الراس ويذكر المطية والقسي والوحش والطير الذى كان يقتنص وما كان يأكله منها ويهديه ، وما كان يقدمه الى حبيبته من هدايا ايام الشباب ، ثم هو يذكر اسم حبيبته وما كان ينشدها من شعر عند الاهداء وما كانت تنشده هي فى الجواب . كل ذلك بألفاظ مبدوءة بنفس الحرف الذى تداوله من حروف المعجم كل رجل منهم فى دوره (10)

ولاعطاء صورة عن المنهج الذى سار عليه ابن سيده فى هذه الارجوزة اورد الاستاذ حبيب زيات أولها وآخرها : أي فصل الهمزة وفصل الياء، وسنكتفي نحن بتقديم الابيات الثلاثة فى كلا الفصلين نتبين منها اسلوب ابن سيده فى هذا الرجز ، فلنقرأ ، اولا ، الابيات الثلاثة الاولى من فصل الهمـــــزة :

ان تسألوا باسمـي فانـي احمـد — فى كـل لأواء الزمنـان احمـد
ووالـــدي أربـــد الهمـــام — فى كـل انـواع العلـى امـام
ونسبـي فى بيئـة اليحامــــد — أهل التقى والبأس والايادي (11)

وهاهي ذي الابيات الثلاثة التى يستهل بها فصل الياء وهي شبية بالابيات السابقة سواء من حيث المضمون أو الشكل :

واسمي ان تسـأل بذلـك يشكر — ووالدي ملـك الملـوك يعصـر
ونسبـي فى بيئـة اليحـامـد — أهل الندى والبـأس والمحامـد
ولي خـال فى بنـي يربـوع — فى فـدك حـل وفى ينيـوع

ويستنتج مما نشره الاستاذ زيات من الارجوزة ان ابن سيده قصر غرضه فيها على عرض لغة البدو فى الصحـراء ، فجاءت شاهـدا على حافظته القوية ومعرفته بوحشي العربية ونادرها .

وبلـدي مـن ارفـع البلـدان — أمد داري ، وقـرى اسـوان
امـا الـذى اركبـه فالابـل — أو الن لعنـو اهـن السبـل
ان الأتـان للقلـوص ثانيـه — لاسيمـا ان اصبحـت يمانيـه
وقد ابان الفضـل تلـك البيغـا — وكان صبرا واجدا لمـا ابتغـى
اما قبسـي فهـي مـن الاء — وربمـا تخدتهـا مـن آء

واسهمي من حائط الأراك ليس لمن تفشاه من حراك

وربما استجدتها من أثأب تعجل من ارمي عن التشاؤب

وربما كانت من الأمطي منبتها فى العاتك الوطي

اما الذى اقتنص فالاوز أو الانوق ، فهي نعم البز

انحى عن الالية والابهام منها ، ويغدو ابطها طعامي

تمت اهدي بعد ذلك ابطا الى فتاة من ظباء الأرطي

ذات دلال اسمها أمامه تمشي الهوينا مشية الغمامه

انشدها بأحسن النشيد ما يبعث الورق على التفريد

اما لجنح الليل من صباح اما يزال ضافي الجناح

فعند ذلك تنشد الحسناء ما أذني عن غيره صماء

آل عدي ازمعوا الرواحا فودعت اجسامنا الأرواحا

ومما يلفت النظر فى الارجوزة ان ابن سيده كان يتوسع كثيرا فى بعض الحروف ويطلق فيها العنان لبديهته ، وهكذا مثلا ، نجد فصل الدال يتضمن واحدا وثمانين بيتا ، وفصل الزاي سبعا ومائة بيت ، وهو اطولها نفسا واكثرها استطرادا ، فى حين يحتوي فصل اللام على اثنين ومائة بيت وفصل النون على ثلاث ومائة بيت ، غير انه تجدر الاشارة الى ان طول هذين الفصلين الاخرين يرجع اولا وقبل كل شيء الى استطرادات هامشية نأت بالمؤلف عن استرساله فى انماء موضوعه الرئيسي .

ومهما يكن من امر فانه مما لا شك فيه ان ابن سيده اذا كان استهدف من ارجوزته غرضا لغويا ، وقد جاءت معرضا لمعارفه المعجمية، وهي معارف فى غاية الثراء والتنوع ، فانها لتشكل بالنسبة لنا، مصدرا

قيما فى الكشف عن سيرته نظرا لما حوته من اخبار ذاتية وافـرة كمـا اشرنا فى المدخل وكما سنلمس ذلك فى الفصول التالية.

ويظهر ان ارجوزة ابن سيده استهوت بعض من اطلع عليها ، فحاول معارضتها ، وكان من بين الذين عارضوها فى اسلوبها وتركيبها العـام ـ كما يشير الاستاذ زيات ـ عبد الرحمن بن احمد الحميدي الذى عاش فى مصر وتوفي بها فى سنة 1005 هـ / 1596 م . وفى المكتبة الوطنية بباريس مخطوط يحتوي على منظومة على حروف الهجاء تتضمن معرفة اسم الشخص واسم ابيه وامه وبلده وقبيلته وملبوسه وزاده وصيده وعدته وشعره ومثله (12) .

وفى اطار الاخبار الذاتية نملك مصدريـن آخريـن على جانب من الاهمية ولو انهما لا يرقيان الى اهمية الارجوزة التى سبق وصفها، وهما مقدمتا ابن سيده لمعجميه ، المحكم والمخصص ، ففيهما الى جانب حديثه عن دواعي التاليف والهدف منه والمصادر التى رجع اليها فى ذلك والمنهج الذى سار عليه فى املاء المعجمين ، ما يلقي الضوء على مزاج ابن سيده وعلى ما كان يضمره له بعض الادباء المعاصرين له عن حسد وما يدبرونه له من دسائس ، وفى المقدمتين الى ذلك مـا يكشف عن خصال اميـري دانية الذى عاش فى كنفهما (13) .

ج) الماعـــات متممـــة :

بالاضافة الى مترجمي ابن سيده الذى تقدم ذكرهم فى اول هذا الفصل ، والى الاخبار الذاتية التى فرغنا من عرضهـا ، بالاضافـة الى كل ذلك أفدت ، ايضا ، فى هذه الدراسة من عدد لا بأس به من الماعات تسد ، احيانا ، ثغرات فى بعض ما اوردته المصادر السالفة الذكر او تبرز الفروق الدقيقة فيما بينها .

وتطالعنا هذه الالماعات ، وهي بعامة فى غاية الايجاز ، وتتوزعها كتب متنوعة ، فى ترجمة ابن سيدة نفسه او فى ترجمة شخصيات اخرى كانت على ارتباط به كأساتذته او كاميري دانية او بعض العلماء والادباء المعاصرين له ، وقد تطالعنا كذلك فى بعض الكتب التى كان لها تأثير مباشر وقوي فى تكوينه وفى انتاجه العلمي والادبي.

وبرغم ان المجال ، الآن لا يتسع لتمييز كل الماعة من هده الالماعات، الا اننا نستطيع التلميح هنا الى ان هذه الالماعات تفيدنا فى الحديث عن مصنفات ابن سيده اكثر مما تفيدنا فى ترجمته ، وذلك على نحو ما نلاحظ، مثلا، عند الشقندي وابي الفدا والمقري وحاجي خليفة من بين آخرين .

---

(1) المعاجم الموضوعية هي التي يعني فيها بجمع ألفاظ كل موضوع على حدة ، وهي اقدم ما عرفه العرب من أنواع المعاجم ، وقد تمثلت المحاولات الاولى فى شكل رسائل مفردة يحشد فى كل رسالة منها الفاظ موضوع معين ؛ وذلك مثل كتب الانسان ، وكتب الابل وهلم جرا ؛ ويعتبر الغريب المصنف ؛ لابي عبيد القاسم ابن سلام (ـ 224 هـ) اشهر ما الف فى المشرق من هذا النوع من المعجمات ، أما فى الاندلس فتتمثل المحاولات الاولى فى رسالتين للقالي هما : ((الابل ونتاجها وجميع أحوالها)) و ((حلي الانسان والخيل وشياتها)) ، وتوج هذا الاتجاه المعجمي فى الاندلس بعمليي ، هما : ا) كتاب العالم لمحمد بن أبان بن سيد ؛ قيل بانه كان يقع فى نحو مائة مجلد مرتب على الاجناس بدأ بالفلك وختم بالذرة ؛ ب) ((المخصص)) لابن سيده .
ـ المترجم ـ

(2) ينبغي أن يستثنى منهم الاستاذ البير حبيب مطلق : انظر كتابه : « الحركة اللغوية فى الاندلس » المكتبة العصرية ؛ صيدا ، بيروت ، ص 322 و ص 359 ، والاستاذ محمد رشاد الحمزاوي ، انظر بحثه القيم « تكملة فى ترجمة ابن سيده » المنشور فى « حوليات الجامعة التونسية » العدد 5 (1968) ص 17 وما بعدها ؛ هذا مع العلم بان كلا من كتاب الاستاذ مطلق وبحث الاستاذ الحمزاوي ظهر بعد صدور كتاب الدكتور كابانيلاس عن ابن سيده . ـ المترجم ـ

(3) من هذه المصطلحات ؛ على سبيل التمثيل (الارجوزة) و (البسملة) و (ايام العرب) ، وقد ضربت صفحا عن ترجمة شروح المؤلف لتلك المصطلحات ؛ لاعتقادي ان القارىء العربي لهذا اللون من الابحاث فى غنى عنها . ـ المترجم ـ

(4) انظـــر

Pons Boigues, Ensayo bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles. Madrid (1898), Ensayo nº 106, pp. 139-140.

وانظر ايضا ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ص 419 والملحق ص 585 ـ 586 ، ويعرف بالجياني ايضا ابو علي الحسن بن محمد الغساني ، المتوفـى سنـة 698 هـ ـ 1104 م ، لكن هذه النسبة غير صحيحة ، فالذي عاش في جيان هو والده ، اما هو فقد ولد بمدينة الزهراء . انظر : Pons Boigues المصدر السابق ، رقم البحـث 133 ـ ص 169 ـ 170 . بروكلمان ، الملحق ص 629 .

(5) ولد ابو الحسن هذا في قرطبة عام 447 هـ / 1055 م ، وتوفي بنفس المدينة عـام 552 هـ / 1137 م ولمعرفة اعماله ، انظـر : Pons Boigues المصدر السابق، رقم البحث 161 ، ص 201 .

(6) كانت ولادته هو الآخر في قرطبة عام 380 هـ / 990 م ، وقد ولي قضاء طليطلة وامضى فترة في دانيه ، وهناك اتصل بابن سيده ، ثم عاد الى قرطبة ، وكانت وفاته باشبيلية عام 467 هـ / 1074 م ، للمزيد من المعلومات عنه ، انظـر : Pons Boigues المصدر السابق ، رقم البحث 112 ، ص 151 .

(7) انظر ابن خير الاشبيلي ، الفهرسة ، طبعة كوديرا وريبيرا . ص 423 .

(8) انظر ، حبيب زيات : (ارجوزة غميس للامام ابن سيده صاحب المخصـص في اللغـة) مجلة المشرق ، العدد 36 ـ (1938) ، من ص 181 الى ص 191 ، أريـد هنـا ، أن ازجي الشكر خالصا لصديقي الحميـم J. Finnegan على أن تفضل فبعث لي بميكروفيلم لمقال الاستاذ زيات نظرا لعلم طبعه على حدة ونفاذ عدد مجلـة المشـرق المنشور فيه ، هذا ويشير بروكلمان لمقال الاستاذ زيات في الجـزء الاول من كتابـه ص : 376 حيث تحيل خطا على عدد المشرق ـ 36 ـ ، كما يشير اليه في الملحق الجزء الثالث ، ص : 1216 .

(9) انظـــر : مجلة المشرق ، العدد 36 ، ص : 182 .

(10) حافظ ابن سيده في ارجوزته على الترتيب المالوف لحروف المعجم حتى حرف الزاي ومن بعده سار على السياق التالي : ط ـ ظ ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ ص ـ ض ـ ع ـ غ ـ ف ـ ق ـ س ـ ش ـ هـ ـ و ـ ى

(11) راينا من تمام الفائدة للقـارىء وحتـى تتسنى له معرفة منهج ابن سيده بشكل اوضح في هذه الارجوزة ، ان نورد بقية ابيـا ت فصل الهمزة وهي :

ـ المترجـم ـ

(12) مجلة المشرق ، ع ـ 36 ـ ص : 180 ، يذكر الاستاذ زيات فى الحاشية ان هذه المنظومة توجد ضمن مجموع مخطوط برقم 3417 (الورقة 10 ـ 12) بالمكتبة الوطنية بباريس . وانظر

G. Vajda, Index général des manuscrits arabes musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris (Paris, 1953) p. 450

على ان رقم المجموع المذكور هو 3238 . وانظر أيضا ، بروكلمان ، ص : 350 ـ 351 . والملحق ، ص : 383 ـ 384 .

(13) ساعود للحديث عن المقدمتين حين اتناول بالدرس المعجمين المذكورين .

في ما وراء الضياء

حسن الطريق

يا حامل الوحي سفرا كل أحرفـــه ... نـــور اصائلــه الشـقــراء ابكـــار

يا حادي الركب لما حان موعــده ... فى الليل ، وانطفأت فى الافق اقمار

ولم يعد يعرف الحق المبين سوى ... من عنده منك فى الاعماق ابصـــار

يا من غدا شعلا غـــراء ناصعـــة ... اشراقها الثر وديـــان وانهـــار

تدنيك مني ـ وما قد غبت ـ عاطفة ... واحرف كل ما في نبضها نـــار

القاك فيها رشيشـــا لا يماثلـــه ... طيب الجنان اذا ما حـــل آذار

واستقي من رؤاك اليوم امنيـــة ... كل الذي بي لها فى القلب ايثـــار

ما بين هشهشة الرؤيا وبين منـــى ... فيها غيوم دروب النفـــس انـــوار

ألقاك تنشرني حبا تزيد بـه	سبائب النفس سحرا فيه احتار
اصغي الى هجسها وحدي وأنبش ما	فى الغيب منها ، وان الغيب اسرار
لم تكبر الروح الاك الغداة ، ولـم	يمج بها غير ما يذكيه اكبار
يذيبني دنف فرد أكابده	لا ينتهي ، فهو فى الاحشاء موار
ليست تبدده الاشجان فى كبدي	ان دمدم اليوم فى الاعماق اعصار
يا فرحة تتوالى عبر اخيلة	ضياؤها ابدا كالغيث مدرار
كأنها للرؤى وشي تطرزه	انامل او كان الكون قيثار
تهمي مفاتنها جذلى وتزرع فى الـ	صحراء دينا به الاصنام تنهار
لا(اللات)دامت ولا(العزى)، وقد غمرت	خيوطه الكون ، فهو الآن أمصار
ولا (منات) ولا (الازلام) قد بقيت	بها لنا أسهم تعطى وأعشار
يزور منه الدجى ان شع مطلعه	كأنه هامة قد حفها غار
يسابق العزم فى ايماض ملمحه	ويحتويه بنا فى القلب اصرار
يا فرحة لبست فيها مواكبنا	انسانها حينما ضجت بنا الدار
سبحان من قد أسال السحر منك على	افق مفاتنه الاكبار اشعار
وسربل الروح باللقيا ، وقد رجعت	كأنها فى سكون الليل أوتار
دنيا تسير ، وقد أرسى مكارمها	فينا ، وبلغها للناس مختار
دنيا الرسول الذي أحيا النهى وبه	كل الورى قد غدت لله تختار
من عطرها استروحت روحي الهيام، وما	جف الشذا ، فهو ازهار وأزهار
قلبي يسيل بها دوما كأن به	نبعا يفيض ، وفيه الفيض زخار
مهما تناثرت الاحلام وانشعبت	شغاف قلبي ، فان النبع فوار
أستل من فيضه دمعا تلوح به	صبابتي ، وهي فى الاغوار اغوار

سبحان من قد احال الغار معجـــزة   تسمو على كل ما قد يحمل الغـــار

به استوى الوحي وانقضت اعاصره   تبدد الجهل فينا ، وهو جبـــــار

تزيحه عن مدى الوجدان دون ونى   فتنتهي سبة قد شابهـــا عـــار

يا فرحة طلعت بيضـــاء فاتنــــة   لم يبق من بعدها سقم وأكـــدار

صارت بنا آية تتلى ومعجــــزة   وانها قـــدر ترعـــاه أقـــدار

العرائش   حسن الطريبق

إنصاف ابن خلدون
من تهمة التهجم على العرب

د. عثمان عثمان اسماعيل

كان الأصل فى التهجم على العرب كما أوضحت فى بحث سابق (1) قد حدث من طائفة الشعوبية فى أول عهدهم بالاسلام لتشويه سمعة العرب، ثم اتبعهم السنيون فى صدر الاسلام كذلك فأخذوا يحطون من شأن عرب الجاهلية ظنا منهم أن ذلك يعلي من شأن الاسلام، وهكذا اجتمع على العرب الأعداء والاصدقاء على السواء. ثم سلك المستشرقون المغرضون نفس السبيل اصرارا منهم على ترويج فكرة الفراغ العربي (2) وبنوا زعمهم على أساس قول مبتور لابن خلدون فى مقدمته حيث يقول: « ان العرب اعرق فى البداوة وابعد عن الصنائع.. » (3) وقد تجاهل المستشرقون عن قصد بقية النص الذي يقول: « ان أسباب الحضارة والترف بالعواصم التي انشأها العرب عبر الفتوحات الاسلامية دفعت أولائك العرب منذ العصور الاسلامية الاولى الى استخدام ملكاتهم الفكرية لاستنباط أصناف الصنائع ومركباتها » (4) ...

واذا كان النص الأخير لابن خلدون يقر حضارة العرب بعد الاسلام ، فقد ذهبنا فى بحث سابق (5) الى ابعد من هذا الحد وأثبتنا حضارة العرب قبل الاسلام . ولكننا ارتأينا ضرورة تخصيص بحث قائم بذاته حول اصطلاح (العرب) الذي ورد بنصوص ابن خلدون المختلفة لننظر اليه نظرة جديدة ربما غابت عن البعض ، وسوف ندعم رأينا الجديد بنصوص سابقة ومعاصرة ولاحقة لنص ابن خلدون نفسه نتبين منها حقيقة معنى اصطلاح (العرب) والدلالات التي ينصرف اليها فى كل مناسبة من المناسبات .

ولا بأس أولا أن نلخص رأينا فى محاولات الآخرين لتفسير لاصطلاح على اساس نسب ابن خلدون واصله ، حيث يرى البارون دي سيلان الذي ترجم المقدمة أن ابن خلدون استخدم اصطلاح (العرب) بمعنى (البدو) وانه لم يكن يقصد التهجم على العرب (6) ، وأن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل ، وقد أيد ذلك الاستاذ الرئيس محمد الفاسي (7) والاستاذ الدكتور أحمد فكري وغيرهم وقالوا بأن ابن خلدون كان عربيا يشير بلفظة (العرب) الى (الاعراب) . كما نشر الدكتور علي عبد الواحد وافي ، دراسة أكاديمية متقنة للكشف عن عبقرية ابن خلدون ومظاهر عظمته فيما خلفه من آثار ، وخاصة مقدمته ، وقدم لها بدراسة خاصة لحياة ابن خلدون لتبيان العوامل التي أثرت فى تكوينه العقلي والعملي (8) . وليس من قبيل الصدفة أن ينص الدكتور علي عبد الواحد على أن شهرة الرجل (بابن خلدون) ترتفع الى جده التاسع خالد بن عثمان الذي كان أول من دخل من هذه الأسرة بلاد الأندلس مع الغزاة الفاتحين من العرب وقد اشتهر فيما بعد باسم خلدون وفقا للطريقة التي جرى عليها حينئذ أهل الاندلس والغرب اذ كانوا يضيفون الى الأعلام (واوا ونونا) للدلالة على تعظيمهم لأصحابها مثل (خلدون، وحمدون، وزيدون..) (9) وبعد اثبات نسب ابن خلدون العربي عاد الدكتور علي عبد الواحد فخصص بحثا للرد على (اتهام ابن خلدون بالتحامل على العرب فى مقدمته (10) يخلص منه الى أن ابن خلدون لا يقصد من كلمة (العرب) فى مثل هذه الفصول (الشعب العربي) ، وانما يستخدم هذه الكلمة بمعنى (الأعراب أو سكان البادية) (11) . كما اشار الى تفسير المؤرخ التركي جودت الذي شرح لفظ العرب عند ابن خلدون (بقبائل عرب) فتفيد اضافة (قبائل) المفهوم (12) البدوي لا الحضري .

وقد ادعى البعض أن ابن خلدون كان بربريا ، ويمكننا أن نفترض فى هذه الحالة أن تكون قد ترسبت فى نفسه مشاعر الضيق ضد الأمويون لما عرفه من بعض الأحداث التي أحاطت بالبربر ابان فتح المغرب على عهدهم فاهجم العرب متأثرا بحقده الموروث فى شخص بني أمية . اذ الواقع أنني أقرر هنا بأن ابن خلدون لم يعترف لبني أمية بأعمال عمرانية أو فنية عندما قال أن العرب لم يعرفوا المباني والمصانع الا بعد اتصالهم بالفرس أيام العباسيين (13) . غير أن هذا الاحتمال يضعف عندنا لعدة أسباب ، فنسبته الى البربر قائمة على غير أساس صحيح ولا تدخل أصلا فى تفسير موقفه من العرب فقد جاء فى أول النص نفسه (... والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله فى البربر بعينه ، اذ العرب أعرق فى البداوة وابعد عن الصنائع ...) . واذا كانت بعض الأخطاء التي ارتكبها ولاة أو ملوك الأمويين واستغلها الخوارج لاشغال ثورة البربر قد حدثت على نحو معين حرص المستشرقون على تضخيمه(14) فلسنا نفترض جهل ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ بما حدث لعدة شعوب أخرى معاصرة حسب أسلوب ذلك العصر ، بالاضافة الى أن ابن خلدون قد عاش فى فترة زمنية تفصلها عن تلك الأحداث المبكرة قرون عديدة وتطورات اجتماعيةوفكرية هائلة أدت الىانصهار عناصر المجتمع العربي الاسلامي فىكل منطقة من مناطق الشرق والغرب على السواء أدت الى مفهوم جديد للفرد العربي وهو كل من يحمل لواء الاسلام مسترشدا بسنة رسوله العربي مساهما فى بناء ودعم حضارته العربية الاسلامية .

وقد ذهب البعض كذلك الى أن ابن خلدون كان يدين بالمذهب الشعوبي المعادي للعرب وأنه كان كافرا بالعروبة (15) فيكون تفسير استخدامه للفظة (العرب) فى المواقع التي يفهم منها هجوم على العرب تفسير يعني شعوب العرب على الحقيقة . ولعل هذا التفسير نفسه كان سببا فى اتجاه وفهم المرحوم الدكتور طه حسين فى رسالته عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) حيث يعرض مظاهر الضعف التي انتهى اليها أمر العرب على عصر ابن خلدون ويقول (فليس غريبا ان يزدريهم ابن خلدون ، ولا سيما انه عاش فى ظل الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعربالذين خربوا افريقية الشمالية فى القرن الخامس الهجري (16) ...) . ومع اننا لسنا الآن بصدد مناقشة بحث الدكتور طه حسين غير أنه يلزم التذكير مؤقتا بأن العرب على

عصر ابن خلدون لم يكونوا على نحو من الضعف الذي أشار اليه طه حسين لا في المشرق ولا في المغرب، لقد كان ابن خلدون يعاصر في المغرب الاسلامي دولة المرينيين بالمغرب الأقصى التي مدت سلطاتها شرقا حتى افريقية ، وشمالا حيث امتدت سيطرتها على الأندلس بالممالك الاسلامية المتبقية بها لاسيما دولة بني نصر بغرناطة بل وعدة ممالك نصرانية أخرى أوقعت بها الهزيمة تلو الأخرى . فضلا عن ارساء قواعد الحضارة وتنويع مظاهرها ورقة فنونها وصياغة علومها وآدابها وعمرانها الأمر الذي أشاد به المؤرخون وتشهد به مآثر تخلفوها بعدهم ذكرها ابن خلدون وشهد بها المستشرقون أنفسهم . ومن ناحية أخرى فان الدكتور طه حسين نفسه يبرر ويؤيد وجود شعوبية خطيرة بالغرب الاسلامي في قوله أن ابن خلدون عاش في ظل الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب بينما الثابت أن دولا بربرية كبرى سعت لربط نسبها بالأصول العربية فالمهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين عده البعض عربيا ونسبه البعض الآخر الى المولى ادريس الذي تفرق نسبه في مختلف أنحاء المغرب ويرفع ابن خلكان نسبه الى الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طلب(17). فضلا عن أن التاريخ فيما عدا بعض حوادث الفتح الاسلامي المبكر لم يحدثنا عن عداء ما بين البربر والعرب على طول تاريخ الاسلام بالمغرب العربي ، لقد اكتمل نماذج وتجانس المجتمع واستوى تعريب البربر عادات ولغة ودينا منذ قرون مضت. وهكذا نستطيع القول بضحالة وسطحية تصريح طه حسين بمجاهرة الأسر البربرية بالعداء للعرب . كما أن تقرير تخريب العرب لافريقية الشمالية في القرن الخامس تصريح غير علمي لم يستوعب دراسة الجوانب الكافية لتقييم الواقعة اذ ينبغي أولا ادراك الموطن الأول لتلك القبائل ثم طبيعتها وأماكن انتقالها والغرض من دخولها المغرب(18) والدور الذي قام به بنو زيري وبنو حماد أنفسهم في استمالة تلك القبائل المرتزقة بالمال لاشراكها فيما دار بينهما من حروب . ذلك أن الانصاف يقتضي عدم تحميل تلك القبائل تبعة التخريب ، فقد اشترك في المسؤولية الخليفة الفاطمي بالقاهرة الذي ارسلها لغرض التخريب بالذات ، ثم مسؤولية أبناء العمومة من صنهاجة القائمين بافريقية والقسم الشرقي من المغرب الأوسط فقد كانوا يقتسمون تلك القبائل في صفوفهم أثناء حروبهم لبعضهم . كما لا ينبغي الجري وراء زعم المستشرقين القائلين بأن هجرة القبائل احدثت صرما في العلائق بين المشرق الاسلامي والمغرب بينما تكمن

الحقيقة فى أهم النتائج غير المباشرة لنزوح تلك القبائل من الشرق الـــى الشمال الأفريقي واختلاط هؤلاء البدو الحقيقي بالطبقات المغربية الأصيلة فى البوادي والصحاري والجبال فخلعوا عليهم عاداتهم وتقاليدهم بل ولغتهم العربية وأدبهم الشعبي بصورة أكدت الفتح الحقيقي المعنوي للعروبـــة والاسلام بالمغرب .

فاذا عدنا الآن الى غالبية الآراء التي صرحت بأن ابن خلدون كان يقصد باصطلاح (العرب) الاشارة الى (البدو أو الأعراب) وليس (مطلق الشعب العربي) وعلى راس تلك الآراء ما ادلى به الدكتور علي عبد الواحد وافي فى تحقيقه المتقن ، وجدناه يتمنى أخيرا لو أن ابن خلدون استعمل كلمة (البدو) للدلالة على قبائل البدو الرحل بدلا من كلمة (العرب) التي استخدمها فى كل الحالات فأحدثت (19) الالتباس .

وسوف ندلي الآن برأي قد يكون له شأن من الاعتبار على ضوء مـــا ينبغي معرفته من تاريخ الألفاظ والمصطلحات وتطورها بالنسبة لاختـــلاف الزمان والمكان . ذلك أن المؤرخ المحقق يدرك تماما ما أصاب الشعوب والدول والمدن والأنهار بل والحقب التاريخية نفسها من تطور فى الاسماء ومدلولاتها عبر التاريخ فيحمل النهر الواحد (20) مثلا أكثر من ستة أسماء عبر تاريخه الطويل يختلف كل منها عن الآخر فى عصر من العصور . وبهذا لا يستطيع المؤرخون المعاصرون اليوم فهم طبوغرافية أي موقع مـــن المواقع التاريخية والأثرية دون معرفة مدلولات الأسماء فى كل عصر مـــن العصور التي مرت بها . هذا الوضع نفسه ، المسلم به اليوم دون جدال ، كان يفرض على الباحثين فى تراث ابن خلدون وآثاره الوصول الى معرفـــة حقيقية لمدلول اصطلاح (العرب) على عصره وعند غيره من المؤرخين المعاصرين له وبالذات فى منطقته الخاصة وهي منطقة المغرب العربـــــي الاسلامي وهو ما نعني الآن بالقاء الأضواء عليه .

اولا : ود البعض لو أن ابن خلدون استعمل كلمة (البدو) للدلالة على النوع الذي يقصده عند التهجم عليه و و البدو لتمييزه عن (العرب) الذين شاد بهم فى أماكن أخرى وكان من الأنسب أن يودوا استعمال ابن خلدون

لاصطلاح (الأعراب) فقد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة التوبة على سبيل المثال فى عدة آيات (21) تنصرف للدلالة على المعنى المقصود (الاعراب أشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم) (22) وكذلك فى سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ...) (23) ، كما تبين لنا مواطن الأعراب من بعض الآيات (وممن حولكم من الأعراب منافقون) (24) ، و (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ....) (25) ، وهكذا يتضح لنا معنى (الأعراب) على عصر الرسول الأعظم ووقت نزول آيات القرآن الكريم ، ولو أنه لا يختلف عن مفهوم (البدو) .

ثانيا : اشار الدكتور وافي الى المراجع والدراسات التي قالت بأن المعنى الذي يقصده (26) ابن خلدون من كلمة (العرب) فى مجال التهجم كان أحد المعاني القديمة للكلمة (26) . ونحن ندعم ذلك الراي بذكر بعض المعاني التي نجدها فى المنجد (عربت معدته بمعنى فسدت معدته ، وعرب الجرح بمعنى تورم وتقيح ، وعرب الطعام بمعنى اكله ، وأعرب الشيء أبانه) والواقع أن الابانة تكون بتعرية الشيء ، و (عربد الرجل ساءت خلقه وصار عربيدا ، والأعرابي هو الجاهل من العرب) ، والأعراب هم سكان البادية خاصة والواحد أعرابي) (27) .

ثالثا : ونأتي الآن الى لب الموضوع وهو النظر فى استعمال اصطلاح (العرب) عند مؤرخين ورحالة آخرين مغاربة (28) على الخصوص عاشوا ومروا بمنطقة الغرب الاسلامي من المغرب والأندلس الى المشرق عبر الشمال الأفريقي بحرا أو برا قبيل أو اثناء حياة عبد الرحمن بن خلدون .

1) **ابن جبير الاندلسي : (614/539 هجرية)**

من علماء الاندلس فى الفقه والحديث (29) ، عاش فى عصر سابق على عصر ابن خلدون اذ ذكره ووصفه لسان الدين بن الخطيب معاصر عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه (الاحاطة فى اخبار غرناطة) ، وقد قام بثلاث رحلات أهمها رحلته التي استغرقت ثلاث سنوات ابتداها من الأندلس بحرا

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة حتى وصل الاسكندرية بعد ان وصف لنـــا أهوال البحر . ثم واصل رحلته من الاسكندرية برا وبالنيل ، سالكا طريق الحجاج المعروف على عصر صلاح الدين . وها هو يقول (ثم كان الوصول الى قوص ... وهذه المدينة جميلة ... ومحط للرحال ومجتمع الرفـــاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين وفيها يفوزون بصحراء عيذاب ... وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ... أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز وهو موضع بقبلى البلد ... وأصبحنا مقيمين به بسبـب تفقد بعض **الجمالين من العرب** (30) لبيوتهم وكانت على مقربة منهــم .. وسرنا فى الصحراء نبيت فيها حيث جن علينا الليل ، والقوافل العيذابيـــة والتوصية صادرة واردة والمفازة معمورة أمنا ... فلما كان يوم الاثنين ... نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش ... ولا يسافر فى هذه الصحراء الا على الابل لصبرها على الظمأ ... وفى هذا الماء وقعت بين بعض جمالي **العـرب اليمنيين** أصحاب طريق عيذاب وضمانها ... وبين بعض الأغـــزاز ... (31) مهاوشة كادت تفضي الى الفتنة ... والقصد الى عيذاب من قوص علـــى طريقين : أحدهما يعرف بطريق العبدين وهذه هي التي سلكناها .. ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ...) (32) .

ونحن نرى من هذا النص استعمال اصطلاح (العرب) على الجمالين الذين قادوا القافلة بركابها واحمالها عبر المفازة التي لا ماء فيهـــا ، دون التعرض لأذى (نبيت فيها حيث جن علينا الليل) و (المفازة معمورة أمنا) وجمالي العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب يضمنونها الى ان يقول (ومن عجب ما شاهدناه بهذه الصحراء انك تلتقي بقاعة الطريق أحمال الفلفـــل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى ان ينقلها صاحبها مضمونة من الآفات علىكثرة المار عليها منأطوار الناس(33)

وهكذا يطلق ابن جبير فى أواخر القرن السادس الهجري اصطلاح (العرب) على العرب آمني الجانب مأموني العاقبة الذين يعيشون فى كنف نظام مستقر آمن الى أقصى الحدود ولو بقلب الصحراء حتى ولو كانوا من الجمالـــين .

2) محمد العبدري البلنسي :

وبعد ذلك بحوالي قرن وضعت الرحلة المغربية التي اسماها مؤلفها (ما سما اليه الناظر المطرق فى خبر الرحلة الى بلاد المشرق) والمشهورة برحلة العبدري (34) الذي بداها من حاحة بجنوب المغرب الأقصى عام 688 هجرية . وعلى طول الطريق البري الذي سلكه العبدري من فاس الى الاسكندرية يصف أهوال الصحراء ومخاطر قطاع الطريق والمعترضين والخوف والهلع من القتلة النهابين **ويطلق عليهم اسم (العرب)** فيقول (ان المسافر عندما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية فى خوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه ... يظلم ويجفى ويهتضم ، تتعاطاه الأيدي الغاشمة وتتهاداه الأكف الظالمة . لا منجد له ولا معين) (35) .

وينشد أبياتا يصرح فيها بمخاطر العرب وسلبهم ونهبهم وقطعهم للطريق نقتبس منها :

وخيم فيها كل فظ اذا رأى	بنية شخص لم يكفكف عن الهدم
يرى أن حكم النبت والناس واحد	فما ينثني فيهم عن الخضم والقضم
ويرتاح للحجاج حين يراهم	كليث طوى منه الطوى راح للضغم
وكم مارد مهما غدا انقض نحوه	بشهاب من الفرسان أقصد من سهم
وكم صف صف فى السلاسل منهم	كما صف فى الأرباق حاشية البهم
فأموالهم للنهب والأهل للسبا	**واورواحهم للنار** والجسم للحطم
فيا أيها الساري المعد لأرضه	ليهنك امن فى ذراه من الظلم
ويهنيك أن تحظى بقرب جنابه	**فتأمن من عرب** هناك ومن عجم(35)

على أن العبدري لا يستثني من أهل المغرب وعلى طول طريق رحلته

سوى سكان القبلة فيقول : (كان سفرنا ... عام ثمانية وثمانين وستمائة ومبداه من حاحة صانها الله . وكان طريقنا على بلاد القبلة ... وهم اهل ذمام واحترام وحماية للجار وايواء للغريب على ضد ما عليه أكثر أهل المغرب.. وما زلنا فى كنف لطف الله تعالى وتحت ذيل عنايته لا يهيجنا أحد الا رده الله عنا خاسئا حتى انفصلنا عنها ... ولما انتهينا الى المفازة التي فى طريق تلمسان وجدنا طريقها منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة الا على حال حذرواستعداد وتلك المفازة مع قربها من اضر بقاع الارض على المسافرين لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله واشدهم اذاية . لا يسلم منهم صالح ولا طالح . ولا يمكن أن يجوز عليهم الا مستعد يتفادون من شره . وطلائعهم ابدا على مرقب لا يخلو منها البتة (37) .

ويعود العبدري الى ذكر **العربان (وهم العرب لغة)** بمعنى العرب الذي قصده سابقا فيقول (ثم وصلنا الى باجة وهي مدينة جرعها الدهر اجاجة . قد هتكتها الأيدي العادية (38) وفتكت بها الخطوب المتمادية حتى صارت وهي حاضرة بادية فخشوعها لائح وضراعتها بادية وقد حدثت بها ان اهلها لا يفارقون السور **خوفا من العربان** . وانهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعد ليوم الضراب والطعان) ... (39) (والذي فى بلاد أفريقية من عجائب البناء وآثار الاعتناء أمر يضيق عنه الوصف ... وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها فى غابر الزمان على ضد ما هي عليه الآن ... لا يسلكها الا مخاطر ولا يعدم من **عربانها ايلام** خاطر (40) . وقد استوى لديهم الصالح والطالح واتفق فى مذاقهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا واعتقدوا اهلاكه ملة ودينا ... على كل مرقب منهم عقاب يرقب الضيفان ليغزهم أمر عقاب . فما مر بتلك المسالك سالك . ولا يخطر على تلك المعابر عابر . ولا يرد فى تلك المناهل ناهل . الا انقضوا عليه انقضاض الصقور على البغاث ...) .

وهكذا لم يصبح أمامنا لبس فى استخدام العبدري لاصطلاح **(العرب والعربان) بمعنى (الاعراب)** المتوحشين قاطعي الطريق السفاكين . ومع هذا فسوف يؤكد العبدري نفسه **الاعراب** بهذا المعنى (وبعد مكابدة الأين... وصلنا الى القفر القواء ارض برقة فوجدنا برية هي أم البراري والقفار ...

يستعذب عذابها المنفض من الحجاج ... سكنها **من الاعراب كل فظ غليظ**)(41)
بل الاهم من ذلك انه يعود فيقول فى هؤلاء الناس سكان برقة من **الاعراب (وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز** أيضا فصحاء . **ولكن عرب برقة** لم يكثر ورود الناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره. وهم الى الان على عربيتهم . ولم يفسد من كلامهم الا القليل ...) (42) .

فالعبدري اذن وهو الضليع فى النحو واللغة وابن حاحة المتضلعة فى اللغة الى اليوم يذكر سكان برقة فيصفهم أولا لخصالهم السيئة بالاعراب (كما سبق أن وصف غيرهم من قاطعي الطريق باسم العرب) ثم يعود كما رأينا الى تسميتهم بالعرب . ولو كان الكاتب على عصر العبدري يتصور قصور القارىء عن فهم المقصود عند اطلاق (العرب أو الاعراب) لفصل كلامه وأبانه وهو القادر عليه . أنظر اليه عندما يعود فيقول (وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم) فهو يعرف أنه يتحدث عن الأعراب الخطرين المارقين ولكنه متأكد ان القارىء يفرق دون لبس بينهم وبين (عرب الحجاز الفصحاء) فعرب الحجاز عرب وليسوا أعرابا .

3) لسان الدين ابن الخطيب : (43)

وننتقل الآن الى القرن الثامن لنرى استخدام الاصطلاح عند لسان الدين بن الخطيب (713 — 776 هـ) الذي عاصر بنفسه ابن خلدون وكان له معه شؤون ، وسوف نقدم الآن حججا من نصوص لسان الدين تعتبر أكبر دليل على صحة رأينا فى استخدام اصطلاح (العرب) فى كلا المعنيين دون حاجة من الكاتب الى التخصيص والتفريق بين (العرب والأعراب أو البدو) ..وقد اخترنا هذه النصوص من القسم الثالث (44) بالذات من كتاب لسان الدين المعروف بأعمال الأعلام فهو القسم الذي يتناول فيه تاريخ المغرب العربي من بداية الفتح الاسلامي حتى صدر دولة الموحدين (45) .

يقول لسان الدين عند ذكر دولة المعز بن باديس (والمعز أبو تميم هذا هو أول من صرف دعوة العبيديين الى غيرهم من بني العباس ، وأزال أسماءهم فى سنة احدى وأربعين (46) . فلما بلغ صاحب مصر وهو المستنصر ووزيره الجرجائي ، دبر فى دخول **العرب** الى افريقية ، ولم يكن منهم قبل

بها أحد ، وقال : والله لأرمينه بجيوش لا اتحمل فيها مشقة . فدعا العرب وأباح لها مجاز النيل الى المغرب ، وكان ممنوعا عنها قبل ذلك ...) (47)

اذن فقد أدخل الخليفة المستنصر الفاطمي القائم بدعوة العبيديين بالقاهرة العرب الى أفريقية حوالي عام 441 هجرية ولم يكن منهم أحد بأفريقية قبل ذلك . فاذا استقام معنى العرب هنا على شعوب العرب المتحضرة وحدها فمن اذن فتح المغرب ؟ ومن أين أتى الأغالبة والأدارسة والعبيديون والأمويون الغربيون ؟ ومتى بدأ اذن تعريب المغرب واسلامه ؟ ثم تصريح ابن الخطيب ودعا المستنصر (العرب وأباح لها مجاز النيل الى المغرب وكان ممنوعا عنها قبل ذلك) لماذا كان ممنوعا عنها من قبل ؟ هذا السؤال يجيب عنه لسان الدين فى نفس النص (فعبر منهم خلق عظيم شقى بهم المعز (48) ومن بعده الى اليوم ! **فسبوا البلاد وأيتموا الأولاد ، وانتهبوا الطارق والتلاد** ، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة ، ووقيعة شنيعة . والى اليوم فالخطب بهم لا يرفع . **والوطن** الخصيب الرحيب قفر بهم ...) (49) كذلك يأتي تأكيد استعمال لسان الدين للفظة (العرب) مقرونة بالتخريب والتدمير فى قوله (ولما توفى المعز بن باديس بالمهدية بعد أن كانت عليه هزيمة **العرب من زغبة اللاحقين من المشرق واستباحة مدينة القيروان** عنوة ، بما هو **مشهور الشناعة** على الأيام ، معدود من مصائب الاسلام ...) (50) .

وهكذا أطلق لسان الدين بن الخطيب المعاصر لعبد الرحمن بن خلدون فى القرن الثامن الهجري **اصطلاح (العرب) على قبائل البدو الرحل** (وجعل لمن جاز منهم فروة ودينارا ..) (51) فهي ليست اذن جيوشا نظامية تتصدرها الألوية والأعلام وتتبعها المؤن والعتاد وتتدرج فوقها القيادات وتسبقها العيون والمراسلات ، انما هي قبائل البدو المتوحشة الهمجية التي حصرت سابقا عن مجاز النيل وعن الجواز الى أفريقية . فاذا كان المؤلف على عصر ابن خلدون يشعر بلبس فى استخدام كلمة (العرب) واتجاه معناها الى غير الدلالة التي يقصدها من صفات (البدو أو الاعراب) وصفات (العرب) لتعمد التخصيص .

4) **ابـن بطـوطـــة (52) : (704 ـ 779 هـ)**

وهذا هو معاصر آخر لابـن خلدون مغربـي الأصـل كذلـك يقـول فـي رحلتـه (ولما وصلنـا الـى بجايـة . . . فأشـار علي أبو عبد الله الزبيدي بالاقامة فيها ... فأبيت ... فقال لي أما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجـد السير **خوف غارة العرب فى الطريق** ... الى أن وصلنا مدينة بونة ... ثـم تركنا بها ما كان فى صحبتنا من التجار لأجل التخوف فى الطريق وتجردنـا السير ... الى أن وصلنا مدينة تونس ...) (53) . ففي هذا النص يتكـرر استعداد المسافرين بترك أمتعتهم ونفائسهم داخل بعض المدن للتخفيـف وسرعة السير وحرصا على نفائسهم كذلك خوفا من (غارة العـرب فى الطريق) فالمغيرون قاطعوا الطرق من **العرب** ومقامهم بمتاهات الصحراء يتحينون الفرص لقطع الطريق فهؤلاء دون شك ولا ريب هـم **الأعـراب أو البـدو** .

ولم يكن استخدام ابن بطوطة اصطلاح (العرب) بمعنى (البـدو أو الأعراب) من قبيل الصدفة فها هو يعود فى وصف رحلته فيقول (ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيد وكان بالركب قوم رماة **فهابتهم العرب** وتحامت مكانتهـم وعصمنا الله منهم ...) (54) بل أن هذا النص يعبر لنا بوضوح عن مـدى خطورة هؤلاء (العرب) الذين استعد لهم الركب بمائة فارس من بينهـم الرماة كما يتكرر **اصطلاح (العرب)** بنفس المعنى فى قوله (وتجاوزنـا ـ مسلاته ومصراته وقصور سرت ـ وهنالك أرادت **طوائف العرب** الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من اذايتنا ...) (55) .

وسوف نؤيد الآن ما سبق لنا طرحه وهو اطلاق كتاب ذلك العصـر لاصطلاح (العرب) فى كلا الحالتين سواء أشاروا الى العرب أو الأعراب دون اهتمام بالتخصيص ليقينهم بادراك القارىء الغرض ، عندما نتنبه الى استخدام ابن بطوطة فى النصوص السابقة لاصطلاح (العرب) بمعنـى (البدو أو الأعراب) الذين تنطبق عليهم آيات الكتاب الكريم المشار اليها سابقا كما ينطبق عليهم أوصاف الرحالة المذكورين ، ونميز بين ذلك وبين ما نلاحظه فى النصوص التالية بنفس الرحلة التي نحن بصددها . وسوف نرى

الآن معنى اصطلاح (العرب) بعد وصول ابن بطوطة الى الاسكندرية وشعوره بالأمن والأمان ثم سلوكه الطريق البري النهري بمصر الذي سبق ان سلكه ابن جبير .

يقول ابن بطوطة (ثم وصلنا ... الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهي الثغر المحروس والقطر المؤنوس ...) (56) ثم (.. جزنا النيل من مدينة ادفو الى مدينة العطواني ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من **العرب** تعرف بدغيم في صحراء لا **عمارة بها الا انها آمنة السبيل** ... ثم وصلنا الى الى مدينة عيذاب ... فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص ... وانحدرنا منها في النيل ... فبت بمصر .. وقصدت طريق الشام .. ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل : ... والعريش والخروبة بكل منزل منها فندق ... ومن منازلها قطيا المشهورة .. **وطريقها في ضمان العرب** قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثر طالب **العرب باحضار مؤشره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فياتون به الأمير فيعاتبه بما شاء ...)** (57) .

هؤلاء (العرب) الوارد ذكرهم بتلك النصوص الأخيرة (طائفة من العرب تعرف بدغيم) و (عدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم) و (طريقها في ضمان العرب) و (طالب العرب باحضار مؤشره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم) ، أعرب هم أم أعراب ؟

لقد سبق أن حددنا صفات الأعراب على ضوء الآيات الكريمة الواردة بسورة التوبة (58) وسورة الحجرات (59) وهو الوصف الذي ينطبق على قاطعي الطريق المتوحشين الذين ورد ذكرهم بجميع النصوص التأريخية التي شرحناها سابقا دون أن نتعرض لنص واحد لابن خلدون وقد استعملت جميعها اصطلاح (العرب) للدلالة على الأعراب أو البدو ....

والآن فما هي صفة (العرب) في النصوص الأخيرة التي أوردناها على لسان ابن بطوطة بعد وصوله الى الاسكندرية وشعوره بالامن والأمان داخل

المدن وفى قلب (صحراء لا عمارة بها الا أنها آمنة السبيل) و (طريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه ...) لا شك أن هؤلاء (عرب) وليسوا (أعرابا) وبهذا نستطيع القول بأن ابن بطوطة أطلق اصطلاح (العرب) فى كلا المعنيين (العرب والأعراب) دون حاجة منه الى التمييز .

وسوف لا أبالغ الآن اذا قررت بعد اقامتي بالمغرب والجزائر أن لفظة (عرب) لا زالت مستعملة حتى يومنا هذا بالبوادي على الأقل للدلالة على قاطعي الطريق الخطرين ، هذا الى جانب اعتزاز شعوب وحكومات تلك المناطق فى نفس الوقت بأنهم عرب بمعنى الشعب العربي بشيمه وخصائصه الكريمة .

وخلاصة القول أن المؤلفين السابقين على عصر ابن خلدون والمعاصرين له ومنهم رحالة فقهاء محدثون عرفوا بدقة العبارة وتخير اللفظ كابن جبير مؤسس فن الرحلة ، ورحالة لغويون تكاد تطغى عنايتهم باللغة على عنايتهم بفن الرحلة كالعبدري ، ومؤرخون سفراء أدباء شعراء طبقت شهرتهم الارجاء كلسان الدين بن الخطيب ، ثم رحالة مغاربة جمعوا معارف المغرب والمشرق كابن بطوطة الطنجي ، قد ورد على لسانهم جميعا **اصطلاح (العرب)** للدلالة على **(الاعراب أو البدو)** أحيانا ، وللدلالة على **(العرب)** بمعنى شعوب العرب الكريمة أحيانا أخرى .

ومع هذا فقد علق بعض المستشرقين المبكرين على استخدام ابن خلدون لاصطلاح **(العرب) للدلالة على الحالتين** (60) **(العرب والأعراب)** وقاموا بمحاولات كبيرة وأقاموا الدنيا وأقعدوها وحذا حذوهم بعض كبار رجال الفكر من العرب والمسلمين كالمرحوم طه حسين (61) وعبد الله عنان وغيرهما فحققوا لاعداء العروبة والاسلام مبتغاهم ، فمنهم من نجح فى تدعيم خرافة (نظرية الفراغ العربي) قبل الاسلام وبعده واستغل ذلك الاتجاه فى التهجم على العرب ، ومنهم من أعجزته وسيلته عن تحطيم تراث العرب فاكتفى من الغنيمة بتحطيم شخصية ابن خلدون والافتراء عليها باعتبارها قلعة الفكر العربي التي رسمت الخطوط الكبرى لأول فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني على الاطلاق .

وفى نظرنا ، ان ضخامة أعمال ابن خلدون وتنوع محتواها وكثـرة شيوعها وما حققته من شهرة بعد كشفها ، كان العامل المباشر فى اتجاه الانظار الى ما جاء ضمن نصوصها بخصوص (العرب) دون غيرها من مؤلفات الآخرين ، الأمر الذي أدى الى عكوف مئات الباحثين من مختلفي الجنسيات واللغات على تحقيق نصوصها والتدقيق فى عباراتها وكلماتها والا فما هو السبب فى عدم اثارة نفس المشكلة بالنسبة لمفكرين آخرين من العرب سابقين أو معاصرين لابن خلدون على النحو الذي أبرزناه بالحجة والدليل المادي ؟

وهكذا نطمع من وراء فكرتنا تلك ، المؤيدة بالنصوص التاريخية ، انصاف ابن خلدون من تهمة التهجم على العرب ، كما نأمل من جهة أخرى وضع حد لاستغلال بعض المغرضين المتحاملين على حضارة العرب والمسلمين الذين يحرفون القول عن مواضعة والذين يخوضون فيما لا يعلمون .

دكتور عثمان عثمان اسماعيل

---

(1) دكتور عثمان عثمان : الآثار العربية الاسلامية بالمغرب العربي وحرب المستشرقين . دعوة الحق ـ الرباط ـ عدد يونيو 1974

(2) شرح فكرة الفراغ العربي والرد عليها بمقالنا بدعوة الحق ـ الرباط عدد يونيو 1974 وما يليه .

(3) المقدمة نشر لجنة البيان العربي بالقاهرة 1957 ، ج 3 ، ص : 836 ـ 929 ،وتعليق احمد فكري على النص فى كتابه المدخل ص : 9 ـ 10 .

(4) المقدمة نفس الطبعة والجزء ، ص 923 وتعليق احمد فكري بالمدخل ، ص : 30 .

(5) دكتور عثمان عثمان : دعوة الحق ـ الرباط ـ عدد يونيو 1974 .

(6) ترجمة البارون دي سلان 2 حاشية 359 و ص 411 وتعليق أحمد فكري فى المدخل ص 10 وحاشية 3 ص 10 .

(7) الاستاذ الرئيس محمد الفاسي : ابن خلدون والسياسة ، التربية الوطنية الرباط،عدد نوفمبر وديسمبر 1959 ، ص : 7 ـ 11 .

(8) دكتور علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، الكتاب رقم 4 من سلسلة اعلام العرب .

(9) نفس المصدر ، ص : 13 .

(10) نفـــس المصـــدر ، ص : 219 ـ 228 .

(11) ص : 220 ـ و ص : 227 .

(12) نفـــس المصـــدر الفصـل الاول .

(13) وهو تفسير غير دقيق وغير صحيح لان أسس الحضارة والعمران العربي الاسلامي وضعت ايام الامويين ، انظر مقالنا بدعوة الحق ، عدد مارس 1960 عن نشأة الفـــن الاسلامـــي .

(14) انظر رأي بروكلمان المتعصب فى تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص : 158 ـ 316 .

(15) علي عبد الواحد ، نفس المصدر ، ص : 726 .

(16) علي عبد الواحد وافى : نفس المصدر ، ص : 225 .

(17) الدكتور ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ص : 260.

(18) دكتور سيد سالم : المغرب الكبير ابتداء من ص : 666 .

(15) الدكتور علي عبد الواحد وافى نفس المصدر ، ص : 227 .

(20) كتابنا « تاريخ شالة الاسلامية » تحت الطبع بدار الثقافة ـ بيروت ـ انظر الفصل الاول الخاص بالفذلكة اللغوية عن تطور اسم نهر أبى الرقـراق عنـد المؤرخيـــن عبر التاريخ ، وكذلك اسم مدينة شالة نفســـه .

(21) سورة التوبة الآيات 90 / 97 / 98 / 101 / 120 .

(22) ســورة التـوبـــة الآيـــة 97 .

(23) ســـورة الحجـــرات الآيـــة 14 .

(24) ســـورة التوبـــة الآيـــة 101 .

(25) ســـورة التوبـــة الآيـــة 120 .

(26) دكتور علي عبد الواحد وافى : نفس المصدر ص 228 وحاشية رقـــم 1

(27) منجد لويس معلوف تحت مادة (عـــرب) .

(28) من منطقة الغرب الاسلامي . (المغرب العربي والاندلس) .

(29) رحلة ابن جبير ، نشر دار صادق ، بيروت 1964 ، انظر المقدمة ص : 5 وما بعدها .

(30) رحلة ابن جبير ، نفس الطبعة ص : 41 .

(31) نـــفس المصـــدر ، ص : 42 .

(32) نفـــس المصـــدر : 43 .

(33) نفس المصدر السابق (رحلة ابن جبير) نفس الطبعة ص 44 .

(34) رحلة العبدري تحقيق أحمد بن جدو ونشر كلية الآداب بالجزئـــر .

(35) رحلة العبدري نفس الطبعة ، ص : 2 .

(36) نفس المصدر ، والقصيدة طويلة وردت بصفحات 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 والابيات مقتبسة من ص : 2 ـ 3 ـ 4 .

(37) نفـــس المصـــدر ، ص : 8 .

(38) نفـــس المصـــدر ، ص : 33 .

(39) رحلـــة العبـــدري ، ص : 34 .

(40) نفـــس المصـــدر ، ص : 76 .

(41) نفـــس المصـــدر ، ص : 79 .

(42) نفـــس المصـــدر ، ص : 81 .

(43) انظر مقدمة الجزء الثاني من أعمال الاعلام الذي نشره ليفي بروفنسال تحت عنوان: (تاريخ اسبانيا المسلمة) للتعرف على أهم مؤلفاته ومحاولات نشرها . الطبعة الثانية دار المكشوف ـ بيروت ـ 1956 .

(44) القسم الاول يتناول تاريخ المشرق الاسلامي والقسم الثاني يتناول تاريخ الاندلس الاســلامــي .

(45) انظر تعليقنا على القسم الثالث من أعمال الاعلام فى مقالنا القـادم بنفـس المجلـة (المناهل) العدد الثاني .

(46) وهي سنة احدى واربعين واربعمائة هجريـــة .

(47) القسم الثالث من (أعمال الاعلام) للسان الدين بن الخطيب ، الذي نشره الاستـاذ ابراهيم الكتاني تحت اسم (تاريخ المغرب العربي فى العصر الوسيط) الدار البيضاء 1964 ، ص : 72 / 73 / 74 .

(48) كان المعز بن باديس الصنهاجي فى افريقية بعد تحول العبيديـيـن عنهـا الى مصـر وتاسيس القاهـــرة .

(49) تاريخ المغرب العربي فى العصـر الوسيط نفس الطبعة ، ص : 74 وهو القسـم الثالث من أعمال الاعلام للسان الدين .

(50) نفـــس المصـــدر ، ص : 77 .

(51) نفـــس المصـــدر ، ص 74 .

(52) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمود بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة ، امره ابو عنان المريني ان يكتب اخبار رحلته ولقبه المستشرق دوزي

بالرحالة الامين ، وكان ارتحاله الاول أيام ابي سعيد عثمان المريني وفرغ من كتابه سنة 757 هجريـــة .

(53) رحلة ابن بطوطة طبع المكتبـة التجارية الكبرى بمصر 1967 ، ج 1 ، ص : 6 .

(54) نفـــس المصـــدر ، ص : 8 .

(55) نفـــس المصـــدر ، ص : 8 .

(56) نفـــس المصـــدر ، ص : 8 .

(57) نفـــس المصـــدر ، ص : 31 .

(58) سورة التوبة الايات : 90 / 97 / 98 / 101 / 120 .

(59) ســورة الحجرات الايـة 14 .

(60) على طريقة عصره دون حاجة الى تحديد كما أوضحنا .

(61) ونعتقد شخصيا ان المرحوم طه حسين ربما كان واقعا تحت تاثير حالة الركود التي اصابت الادب بالمشرق العربي على عصر ابن خلدون ووصمته بالتكلف والصنعة والجمود فساءت امامه صورة العرب واعتقد بازدراء ابن خلدون لهم .

الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية

العصر الأول

(1139 - 1171 = 1727 - 1757)

د. محمد الأخضر

تنازع أمر السلطة بعد وفاة مولاي اسماعيل أبناؤه الكثيرون ، وطوائف الجند من قبائل جيش المغافرة والودايا وعبيد البخاري . وقد بسط هؤلاء نفوذهم على السلطانين مولاي احمد الذهبي (1139 — 1141 = 1727 — 1728) الذي لقب هكذا لسماحة أخلاقه، ومولاي عبد الله (1141 — 1171 = 1728 — 1757) . واثناء ذلك تابعت الحياة الثقافية سيرها على مهل نحو التقدم ، وأتم مولاي عبد الله الذي نصب على العرش اربع مرات عمل ابيه فى هذا الميدان . من ذلك انه جدد مجموعة الكتب التي كان مولاي اسماعيل قد أمر وزيره احمد بن الحسن اليحمدي (1) بجمعها ، وتشتمل على عشرة أجزاء فى مختلف العلوم ، لكل منها مقدمة فى ترجمة احد العشرة المبشرين بالجنة من صحابة رسول الله صلى عليه وسلم (2) ، واوقف الكتب النفيسة على جامع القرويين وغيره من المعاهد العلمية .

ب ـ الحيـــــاة الفكـــريـــــة :

بفضل الجهود التي بذلها كل من مولاي الرشيد واخيه مولاي اسماعيل من بعده فى المضمار الثقافي ، تمكنت حركة النهضة التي انبعثت مع قيـــام السعديين من أن تستمر طوال هذا العصر . حقا ان النتائج السيئة التي كان من المعقول التخوف منها بسبب هدم الزاوية الدلائية لم يمكن تفاديها فحسب ولكن ذلك عاد بالخير والبركة على العلم والثقافة . ففي فاس التي نقل اليها كبار علماء الدلاء مع الامام أبي علي اليوسي ، لم يمض وقت قصير حتـــى تصدر هؤلاء العلماء البدو كراسي التدريس واخذوا ينافسون منافسة قوية علماء الحاضرة الادريسية . فبعد أن استوحش الدلائيون فاس عندما نفوا اليها وكابدوا من « وخم المدينة » مدة أخذوا يألفون العيش فيها ، وساعدهم على ذلك وشجعهم السلطان مولاي الرشيد، وتمت عملية الاندماج مع أبناء هؤلاء الوافدين فى الوسط الفاسي الذي فتحوا أعينهم فيه ، مكونين بذلك جيـــلا جديدا اشتهر فى النصف الثاني من عهد السلطان مولاي اسماعيل .

باستثناء التاريخ (3) الذي يعتبر الافراني أهم شخصية بارزة فيه ، فان سائر العلوم قد تقدمت بكيفية تدريجية مناسبة ، وسنستعرض هذه العلوم محاولين استخراج قيمتها واصالتها بالنسبة للعصور السابقة ، ونذكر مـــن الف فيها وأهم ما الف .

1) العلـــــوم الشـــرعيـــــة :

لكي ندرك تطور هذه العلوم خلال العصر الذي ندرسه ، لابد مـــن اشارة خفيفة الى المراحل الأساسية التي قطعتها على عهد الدول العظيمة السابقة : المرابطية والموحدية والمرينية . فمنذ القرن الخامس = 11 م ، والامبراطورية الصنهاجية فى كمال سطوتها ، خضعت بلاد المغرب عمومـــا والمغرب الأقصى خصوصا ، الى مذهب عبد الله بن ياسين (4) الذى كان يدعو الى الرجوع الى الاسلام السني . فبدلا من الرجوع الى الأصلـــين الأصيلين ــ القرآن والسنة ــ والى الاجتهاد (5) للبث فى مسائل القضاء ، تشبث الفقهاء بآراء علماء مذهب مالك مكتفين بترديد أقوال المتقدمين وشرحها

او اختصارها ، فصاروا بذلك اشبه بقراء كتب منهم بعلماء باحثين . وقد اهملت دراسة الأصول (6) بل منعت واستعيض عنها بدراسة الفروع (7) الفقهية من عبادات ومعاملات ، وكان للفقهاء الرجعيين السلطة المطلقة فى تنفيذ الأحكام

وفى ايام الموحدين (550 = 1155) وقع اصلاح فى الميدان الديني تمثل فى الرجوع الى الاجتهاد والبحث فى القرآن والحديث باعتبارهما مصدري الدين والتشريع . منع التقليد المالكي ، وقام أحد الملوك الأولين (7) لهذه الدولة يعطي المثل فى ذلك ، فأمر باجراق مدونة سحنون (8) ، وكتاب ابن يونس (9) ، والنوادر ، والمختصر لابن أبى زيد القيروانـي (10) ، وتهذيب البراذعي (11)، والواضحة لابن الحاجب (12)، ووقعت الاستعاضة عن هذه الكتب المحروقة بموطأ الامام مالك بن أنس(13)، وسنن البزار(14) ومسند ابن أبي شيبة (15) ، وسنن الدارقطني (16) ، وسنن البيهقي (17)، بالاضافة الى الكتب الخمسة الصحاح : سنن أبى داوود (18) ، وجامع الترمذي (19) ، وسنن النسائي (20) وصحيحا البخاري (21) ومسلم (22). وكانت هذه الكتب الخمسة الأخيرة تكون رمز المملكة الموحدية .

ولما جاء المرينيون الغوا اجراءات الموحدين المتخذة لصالح المذهب الظاهري ، واقروا من جديد المذهب المالكي حيث ما زال العمل جاريا به الى ايامنا هذه .

وخلال الفترة الأولى التي امتازت باعتلاء العلويين العرش ، سجلت بعض الأعمال فى هذه العلوم الشرعية ، وظهرت أسماء لامعة مثل محمد بن أبي بكر الدلائي ، ومحمد ابن ناصر الدرعي ، وعبد القادر الفاسي ، والحسن اليوسي ، وابن رحال المعدني ، ومحمد بن عبد السلام بناني ، وعبد الرحمن الفاسي ، وأبي سالم العياشي وغيرهم . هؤلاء الأعلام حاولوا أن يبعدوا كل ما من شأنه أن يحرف الحقيقة أو يفتح باب اللبس ، مقلدين فى ذلك طريقة

ابن عرفة التونسي (23) الذي كان يوصي بالاكتفاء بتفهم المتن وتحليل الشرح فى تلقين العلوم الدينية .

اخذ بهذه الطريقة الشيخ محمد ابن ناصر ونقلها الى تلميذه الحسن اليوسي . أما العياشي فسيذهب الى أبعد من ذلك ناصحا بالصعود الى أعلى ما يمكن فى سلسلة رواية الحديث ، سالكا بذلك طريق الشيخ محمد ابن عبد الله معن (24) التي أخذها بدورها عن ابن المبارك (25) . ونقف مع محمد بن سليمان الروداني (26) على تطور فى ميدان اختيار كتب الحديث يستهدف جمع أكبر عدد منها ، منتقلا من الخمسة الصحاح الى الثمانية ، بادخال سنن البزار التي أقرها الموحدون . كما نجد العالمين الفاسيين عبد القادر وابنه عبد الرحمن بصفة خاصة يسيران قدما فى تنمية منهج الفقه المتعلق بأحكام القضاء الذي دشنه أحمد الونشريسي (27) فى المعيار ، ويكونان العمل الفاسي (28) .

وبالجملة ، فان دراسة هذه العلوم كان مبنيا على النقد المعقول ، معارضا للتقليد الأعمى للفقهاء المحافظين .

2 — التصــــوف :

كان من آثار الحروب الأهلية واحتلال بعض الثغور المغربية ظهور رد فعل ديني قوي لدى خاصة العلماء وعامة الناس ، ففيما يتعلق بالفقه تجلى ذلك — كما رأينا — فى العمل على الرجوع الى المنابع الاسلامية الأولى ، فى نفس الوقت أخذت تبرز حركة مقاومة البدع التي يمكن أن تعكر صفو تلك المنابع . وبالتأمل فى عواقب الناس وجهل المجتمع وزندقته وبطلان هذا العالم وخداع ظواهره ، أصبح العلماء يعتقدون أكثر فأكثر بأن تلك المصائب التي حاقت بالمسلمين انما هى من أثر غضب الله تعالى ، فيزهدون فى ملذات الحياة ليعيشوا عيشة التقشف والنسك . وينتهى الأمر بمعظمهم الى القيام بأداء فريضة الحج حيث يجدون العزاء والتسلية ، وذلك ما يبين سبب كثرة توجه المغاربة الى الشرق فى هذه الفترة ، ووفرة ما كتبوه من رحلات فى طليعتها الرحلة العياشية .

3 ـ الـرحلـــــة :

حافظ هذا النوع من التاليف الى حوالي نهاية القرن الحادي عشر = السابع عشر ـ على الطابع الديني الذي كان يمتاز به ، فلا تجد فيــه الا القليل النادر من وصف الأقطار التى يمر بها الرحالة أو الاشخاص الذيــن يحتك بهم ، ولا تكاد تقف بالمرة على ملاحظات تتصل بالجوانب الجغرافية ، والعراقية (الايطنوغرافية) ، والاجتماعية . وبالمقابل تعثر فى هذا النــوع على مباحث طويلة فى موضوعات فقهية وصوفية ، ونقول تتعلق بتراجـــم الصالحين والاجازات والأسانيد .

ان الذين يمثلون هذا النوع من الرحلات اصدق تمثيل هم ، بالاضافة الى العياشي ، أحمد بن ناصر الدرعي (29) ، وعبد المجيد الزبادي (30) ، ومحمد بن عبد السلام بن ناصر (31) ، ومع ذلك يلاحظ عند هؤلاء بعــض التطور نحو مزيد من الشخصية والموضوعية فى وصف مشاهداتهم (32) . وستكتسي كتب الرحلات ابتداء من القرن الثاني عشر = الثامن عشر طابعا أدبيا خالصا عندما يتسع أفقها بامتداد الاسفار الى أوربا والاتصال بحضارة جديدة ومدهشة .

ولما كانت هذه الاسفار راجعة فى اصلها الى اقامة علاقات ديبلوماسية بين المغرب وبعض الاقطار الاوروبية كاسبانيا وفرنسا وايطاليا ، لأجــل المصالح السياسية وتبادل الاسرى أو فدائهم ، فانها مكنت مختلف السفراء المبعوثين من قبل ملوك المغرب من أن يدونوا ملاحظاتهم وانطباعاتهــم عن البلاد التي زاروها . وبما أنهم كانوا فى الغالب من رجال القلم فقد تركوا لنا مؤلفات أدبية مفيدة جدا (33) .

اقدم الرحالة السفراء لهذا العهد ، الوزير الغساني (34) الذي وجهه المولى اسماعيل عام 1102 = 1690 الى ملك اسبانيا كارلوس الثانـــــي لمفاوضته فى شأن تبادل الأسرى لدى الطرفين على اثر معارك بحريـــة عديدة ، وتشتمل الرحلة التي كتبها هذه الديبلوماسي خلال سفره الطويل فى اسبانيا على معلومات مفيدة عن البلاد وأخلاق أهلها ، وذلك ما يجعل منها

كتابا أصيلا وادبيا صرفا (35) . وستعرف هذهالرحلة نجاحا عظيما فيستوحي منها اغلب الرحالة في الجيل التالي .

4 ــ التــراجــم وعلــوم أخــرى :

من بين ما الف في موضوع التراجم نجد على الخصوص كتب سير وفهارس يلتزم فيها كل مؤلف بذكر شيوخه وما قرأ عليهم من مؤلفات ، مثل فهرست أبي سالم العياشي ، وعبد القادر الفاسي (حررها ابنه عبد الرحمن) ، والحسن اليوسي ، دون أن ننسى الفهرست القيمة التي عثر عليها أخيرا ، وهي صلة الخلف لابن سليمان الروداني .

حقا ان نفس المؤلف الذي ما انفك مثار اعجاب مترجميه ، قد امتاز بخاصة في علوم الفلك حيث صنع بيده أسطرلابات وكرة أرضية لحساب مواقع النجوم وحركاتها ، وسيشتهر مؤلف آخر اكثر من ذلك لكن في ميدان اللغة ، أعني محمد بن الطيب الشركي (36) الذي سيتخرج على يده علماء بارعون مثل الشيخ مرتضى الزبيدي (37) ، وسيكسبه شرحه الضخم للقاموس تقدير علماء المغرب والمشرق ..

لكن ماذا يمكن أن يقال عن الطب الذي ستقترن به من الآن فصاعدا المع الأسماء التي عرفها هذا العلم بالمغرب ، كابن شقرون المكناسي (38)، وعبد الوهاب أدراق (39) ؟ الحقيقة ان كلا منهما سينكشف لا عن طبيب ماهر في العلاج فحسب ، ولكن أيضا عن مفكر عميق وفاحص حاذق .

وقبل أن ننتقل الى الأدب بمعنى الكلمة نشير الى أن هذه الفترة تميزت بانتاج كتابين بالغي الأهمية : الاقنوم لاكبر مشارك مغربي عبد الرحمن الفاسي ، والقانون للحسن اليوسي ، وهما مخصصان للعلوم بصفة عامة ، الا أن أولهما عبارة عن دائرة معارف منظومة في بحر الرجز من النوع التعليمي ، والثاني نثر يبحث خاصة في مسائل التعليم والدراسة .

5 ــ الأدب :

ذكرنا فيما يتعلق بالزاوية الدلائية الظروف التي نقل فيها المولى

الرشيد علماءها الى مدينة فاس وعلى رأسهم اليوسي الشهير ، وأشرنا كذلك الى النشاط الأدبي الذى كان عليه أولئك الأعلام الجبليون فى مقاومتهم برغبة علماء المدينة الادريسية . لقد ساعدت هذه العوامل الأدب ليس فقط على أن تمتد حركة النهضة التي ظهرت بوادرها مع مجيء السعديين الى الحكم ، ولكن ايضا لتنمو وتزدهر . ولما كان اليوسي مخضرما عاش أيام السعديين والعلويين ، وربما كان أكبر شخصية أدبية مغربية ، فانه يكون حلقة الاتصال بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري = 17 و 18 الميلادي ، وهو بدون منازع رئيس مدرسة سيستمر اشعاعها طويلا وتخرج تلاميذ موهوبين ، أمثال محمد بن زاكور (40)، ومحمد ابن الطيب العلمي(41) وعلى مصباح الزرويلي (42) . انهم جميعا أستاذا وتلاميذ ، ماهرون فى الشعر مهارتهم فى النثر ، يطرقون جميع الأنواع والمواضيع التقليدية ، غير انهم يمتازون بخاصة فى النثر الفني ، ولهم فيه آثار جميلة . وباستثناء ابن زاكور الذي سيتخصص فى النقد الأدبي ، ويتفوق فيه حتى على زملائه المشارقة (43)) ، فان الآخرين جميعا سينكبون على نوع (المتنوعات الادبية) حيث سيؤلف كل منهم على الأقل كتابا فى الموضوع . وهكذا سيتلو محاضرات اليوسي كتاب الأنيس المطرب للعلمي ، الذي سيجد بدوره نظيرا له فى كتابي أنس السمير ، وسنا المهتدي للزرويلي (44) . ومن المعروف ان هذه الكتب ما هي الا تقليد مطابق لقلائد العقيان الذي عرف بالمغرب رواجا عظيما استمر حتى الربع الأول من هذا القرن (45) ، لكن بينما تختص القلائد بذكر منتخبات لأدباء الاندلس فى القرن الخامس الهجري = 11 الميلادي ، نجد ظاهرة التنوع أكثر وضوحا فى الكتب الأخرى لاشتمالها على مزيد من ضروب القول والاستطراد ، كما أن الاشارات فى هذه الكتب تتعلق بالمغرب والأندلس والمشرق ، فتقدم كل ما هو نادر وطريف فى ميدان المعرفة . لذلك فان قراءتها سهلة ممتعة ، والنثر المستعمل فيها رشيق وبسيط أحيانا . وأخيرا فان هذه المؤلفات صور صادقة لأصحابها تمتاز بمزيد من الشخصية والحيوية .

أما المقاومة فتنمو بشكل مواز لهذه المتنوعات لتبلغ أوج تقدمها مع كبار الكتاب من أمثال محمد الطيب العلمي ، ومحمد المسناوي الدلائي (46). وغير خاف على أحد أن هذا النوع من الادب لم يتطور عمليا منذ الهمذاني(47)

الى الحريري (48) واليازجي (49) ، ومع ذلك فان المقامة المغربية تتميز بدقة الملاحظة وبساطة اللغة ، وتقدم مشاهد رائعة لمجتمع العصر الذي كتبت فيه ، مسجلة بعناية كل كبيرة وصغيرة .

ولن نختم هذا الفصل دون أن نذكر بالدور الهام الذي قامت بـه فى الحياة الفكرية بالمغرب الندوة الأدبية التي أنشأها فى سوس الأمير الشاعر محمد العالم ، فقد ساهمت المجالس العديدة التي ترأسها الأمير — والتي سنقدم نماذج منها فيما ياتي — فى خلق منافسة طيبة بين الشعـراء ، وفى تطوير الأنواع والمواضيع الهزلية التي كانت حتى ذلك الوقت مبعدة الى الدرجة الثانية . هكذا نقف على نهضة أدبية احتفظ لنا بصورتها لحسن الحظ مؤلف معاصر مجهول تحت اسم نفحات الشباب .

الرباط — د. محمد الأخضر

---

(1) انظر ع. الزرويلي ، سنا المهتدي ، ميكروفيلم رقم 791 من المكتبة العامة بالرباط .

(2) نذكر بأن أصحاب النبي عليه السلام العشرة المبشرين بالجنة هم الخلفاء الراشدون (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي)، وطلحة ابن ابن الزبير، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وعامر بن الجراح .

(3) انظر عن هذا الموضوع ، ل. بروفنسال، الشرفاء ، ص. 141 — 142 .

(4) انظر أخبار ابن ياسين فى مادة المرابطين من دائرة المعارف الاسلامية ا : 322—323 .

(5) انظر المصدر السابق ، مادة اجتهاده : 476 — 477 .

(6) المصدر السابق ، مادة أصول ، 4 : 1112 — 1116 .

(6) مكرر المصدر السابق ، مادة فقه ، 2 : 110 .

(7) يتعلق الامر بعبد المومن أو بحفيده يعقوب المنصـور .
انظر م. المنوني ، العلوم والآداب ، ص. 51 — 52 .

(8) سحنون عبد السلام (159—242 = 776—856) قاضي القيروان الذي نشر المذهب المالكي فى شمال افريقيا . انظر ك. بروكلمان، تاريخ الادب العربي ا : 77 ، والملحق 1 : 299 .

(9) انظر المصدر السابق ، 1 : 387 ، والملحق ، 2 : 963 .

(10) المصدر السابق ، ا : 177 ؛ والملحق ، 1 : 300 .

(11) المصدر السابق ، 2 239 ؛ والملحق ، 2 : 337 .

(12) المصدر السابق ، 2 : 36 ؛ والملحق 2 ، : 35 .

(13) المصدر السابق ، أ : 175 ؛ والملحق ، أ 297 .
(14) المصدر السابق ، أ : 518 ؛ والملحق ، أ 274 .
(15) المصدر السابق ، الملحق ، 1 : 215 .
(16) المصدر السابق ، 1 : 165 ؛ والملحق ، أ : 275 .
(17) المصدر السابق ، 1 : 363 ؛ والملحق ، 1 : 618 .
(18) المصدر السابق ، 1 : 161 ؛ والملحق ، 1 : 266 .
(19) المصدر السابق ، 1 : 161 ؛ والملحق ، 1 : 267 .
(20) المصدر السابق ، 1 : 162 ؛ والملحق ، 1 : 269 .
(21) المصدر السابق ، 1 : 157 ؛ والملحق ، 1 : 260 .
(22) المصدر السابق ، 1 : 160 ؛ والملحق ، 1 : 265 .
(23) انظر المصدر السابق ، 1 : 184 ، والملحق ، 2 : 347 .
(24) انظر أخبار معن عند ل. بروفنسال ، الشرفاء ، ص. 267 وهامش 5 .
(25) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 185 — 187 .
(26) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 81 — 88 .
(27) انظر ترجمته عند ك : بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، 2 : 248 — 356 ؛ والملحق 2 : 348 .
(28) انظر دائرة المعارف الاسلامية ، 1 : 440 — 441 (الطبعة الجديدة) .
(29) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 134 — 137 .
(30) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 192 — 197 .
(31) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 293 — 301 .
(32) انظر فيما ياتي مقتطفات من رحلات هؤلاء المؤلفين ، ص. 136 — 137 ؛ 196—197 ؛ 314 — 315 .
(33) لمزيد من التوسع فى هذا الموضوع انظر مقالات م. الفاسي المنشورة فى مختلف المجلات ، لاسيما :أ — الرحالة المغاربة وآثارهم ، دعوة الحق ، عدد 2 ، 3 4 ، يناير 1959 ؛ ب —الرحلة السفارية المغربية ، البينة ، عدده اكتوبر 1962 ، ص. 11 — 24 . الاكسير فى فكاك الاسير ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط ، 1965 ، ألف — راء .
(34) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 122 — 125 .
(35) انظر تفصيل ذلك فيما ياتي ، ص. 124 — 125 .
(36) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 201 — 206 .
(37) انظر ترجمته عند ك. بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، 2 : 288 ؛ والملحق ، أ : 805 ، 6 g و 2 : 398 و 537 .
(38) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 161 — 166 .

(39) انظر ترجمته فيما ياتي ص. 187 ـ 190 .

(40) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 126 ـ 133 .

(41) انظر ترجمته فيما ياتي ص. 137 ـ 151 .

(42) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 172 ـ 178 .

(43) حقيقة ان هذه الفقرة في المشرق داخلة في نطاق عصر الانحطاط للادب العربي ، (1258 ـ 1800) . انظر ش. بيلا ، اللغة والادب العربي ، ص. 167 ـ 185 . ان هذا النقد المنبني على معلومات مدققة جدا في اللغة والنحو والبلاغة كان أكثر دقة ومهارة .

(44) يضاف الى هذه الكتب الحلل السندسية لاحمد الحلبي ، وهو شامي مات بفاس عام 1120 = 1708 . انظر ل. بروفنسيال ، الشرفاء ص. 286 ـ 287 ؛ ج. بيرك ، اليوسي ، ص. 117 .

(45) حسب رأي ل. بروفنسال ، يذكر الانس أكثر بالمنتقى المقصور لابن القاضي ، فيكون نظيرا له على هذا النحو ، انظر ل. بروفنسال ، الشرفاء ص. 297 .

(46) انظر ترجمته فيما ياتي ، ص. 152 ـ 158 .

(47) انظر ترجمته عند ك. بروكلمان ، تاريخ الادب العربي، 1 : 93 ؛ والملحق 1 : 150

(48) المصدر السابق ، 2 : 494 ؛ والملحق ، 2 : 765 .

(49) المصدر السابق ، 1 : 276 ؛ والملحق ، 1 : 486 .

ذيل وتعليق
حول
"قضية" المعتمد بن عباد
القسم الأول

عبد الرحمن الفاسي

يا له من فال حسن هذا الذي جادت به الانباء ، لمناسبة التجمع الاسلامي المسيحي فى قرطبة ، من أن شعار ذلك اللقاء قد أتاح اقامة الصلاة صلاة الجمعة بين اعمدة مسجد قرطبة على غير ميعاد او انتظار !!

وهكذا كان !! وجلجل صوت الاذان فى تلك الابهاء ، وهوم المؤذن بترديد الشهادتين وكأنه اضغاث من أحلام ذلك المسجد بماضيه البعيد، او كأنه تهويم من وراء الغيب بما تهجس به خواطر المؤمنين حمية لدينهم الحنيف !!

لكنها ـ وأيم الله ـ الحقيقة الماثلة فى زخرف الحلم ، او الحلم جاء كفلق الصبح ، متبرجا فى جهارة اليقظة والحقيقة .

وليكن الحدث على اية حال اريد لها ، ولاي هدف ينظر منه واليه ، فنحن المسلمين فى مشارق ومغارب الارض ، نتفرس فيه الفال الحسن ، ونستروح من قبله سانحة الخير ، ولو رست وراءه صفوف متعاقفة من اسوار الخلفيات ، ورصدت أمامه سعالي وأشباح النوازع والاغراض !

فالى ذكـــرى قرطبـــة ((الحسنـــاء))

والى ((خطيبها)) الذى ظل عرس الجزيرة فى عهودها الزاهرات ، الضاحكات ، وفى فتراتها النكدات .

الى الذي ظل اسمه على صفحات التاريخ الشعار الاصيل والمثال الفريد لذلك الفردوس .

الى المعتمـــد بن عبـــاد .

اقدم تحية وذكرى هذه الصفحات

وهي مناسبة اقدمها بين يدي القراء، مرجيا منها ان تشفع لي فى حديث يعتبر موضوعه ـ فى الحقيقـة ـ من المعـاد المعادي بعدمـا اعتورته اقلام الباحثين من مغاربة ، ومشارقة ، ومستشرقين ، وبعدما نصبت له الموازين لاعلان كلمة الحق فى جزيرة ابن عباد ، وما اتاه فى حقه امير المسلمين .

على ان هذه الصفحـات انما هي هـوامش مقتضبـة ، ونظـرات مختصرة تجاه البحث الذى نشره الاستاذ عباس الجـراري بالعدديـن العشرين والثاني والعشرين من مجلة ((الثقافة)) الجزائرية (ابريل ـ ماي ـ غشت ـ سبمتبر 1974) تحت عنوان : قضية المعتمد بن عباد فالى هذا الاستاذ الصديق يتوجه الفضل ، او يعود الملام، اذ الامر معقود بالفائدة المتوخاة ، ومعلق بالجديد المنتظر من ابحاث هذا الميدان .

وكما يلاحظ ، فقد افرغ الاستاذ فقهه فى عنوانه ، فجنح الى

التعبير بقضية المعتمد بن عباد ، متجانفا ما درجت عليه الاقلام من التعبير بالمأساة ، وهو في هذا يوذن بما نهد اليه من نصب ميزان العدل، واصدار الحكم النهائي في قضية زاغ فيها الكاتبون عن مهيع الواقع ، واستناموا الى الهوى ، وركبتهم العاطفة ، فما درجوا على حق او صواب ، وعلى حد تعبيره : (لواننا نظرنا الى الاحداث التى احاطت بهذه القضية ، نظرة شاملة ، تضع احداثها في وحدة متكاملة ، لا تفصل بعض هذه الاحداث عن بعض ، لانصفنا ابن تاشفين مما يتهم به ، ولوضعنا قضية المعتمد بن عباد في اطارها الحقيقي ، بل لما اعتبرناها نكبة او ماساة ، او ما الى ذلك من الاسماء التى تنسب اليها) .

تلك كانت توطئة ، اردفها الباحث بعرض تناول كما يقول : (اهم الظروف التاريخية التى احاطت بقضية المعتمد ، والتى قصدنا من عرضها الى ايجاد اطار يتيح لنا ان نضعها فيه وان ننظر اليها في موضوعية من خلال ما ينعكس داخله من معالم وملامح ، بعيدا عن الملابسات والخلفيات التى ارتبطت بالقضية وأثرت في بعض الدارسين ، وبالغت في التاثير فجعلتهم ينساقون لها ، لا يرونولا يحكمون غيرها) .

وعلى نفس هذا المنهاج ، ستسير هذه الذيول والنظرات ، كما هو طابع ذيول وتعاليق سابقات ، تضيف الى الموضوعية ، والنظرة الشاملة ، تعميق النظر في الاحداث ، مع الالتفات أيضا الى السابقات منها والمواكبات المشابهات ، وحتى الى اللاحقات ، حتى يتوفر تكامل الوحدة بينها وتخلو النظرات من الشائبات .

وهكذا اتابع الباحث ، وهو الآن يعرض على القاريء ملامح مسرح الاحداث ماثلة فيما كانت تتخبط فيه البلادالاندلسية على عهدملوك الطوائف من مفاسد وضعيتها الرعناء ، فنراه يقدم لنا الانقسام والفوضى كاسباب ونتائج للخطر النصراني الذى كان حاقا بالظروف القائمة ، وبعدها ، سجل لنا ما ترتب عليها ، وجاء عقبى لها حيث (ساعد المسيحية على تجميع قوتها للاستيلاء على طليطلة وعلى كثير من الاراضي القشتالية ، (كذا) كما انتزعت الجيوش النصرانية مدينة قورية وكانت لبني الافطس) .

وبهذا ، وبه وحده ـ كما سنرى بعد ـ عرض علينا حجم الخطر ، ومداه ، واسبابه حسبما هي في رأيه ، ثم تابع الحديث مباشرة محاولا رسم الخطوط الرئيسية للعهد ، ماثلة في تعداد نقائص امراء الطوائف وما انتهت بهم اليه من استفلاظ العدو باظهار حمايتهم ، ومحالفتهم ، (ومن كان يهادن من امراء الطوائف كانت تؤخذ منه الجزية) وكأنما راى الباحث هذه فريدة في السمع والعيان ، فجلب لها نصا فريدا من كتاب ((التبيان)) .

وينتهي من هذا الى الدخول في موضوع تداول ملوك الطوائف امرهم بازاءالخطر الذى صوره على الوجه السالف ، وتجاه شبح خطر الانسياح المرابطي ، ثم ما كان من وقوعهم على اختيار رعي الجمال على رعي الخنازير، والاستنجاد بيوسف بن‌تاشفين، وفي هذا الفصل وفيما تشقق عنه، تتناثر ملامح اخرى لمجتمع ملوك الطوائف ماثلة ايضا في نقائص ملوكه التي عاينها ابن تاشفين بنفسه ، او كانت لها آثار على حركته ، كالنزاعات ، وعواطف الاثرة والحسد التي كانت تسود بينهم ، وذهاب المعتمد بن عباد في انانيته الى حد استغلال الجيش المرابطي في اغراضه، وحتى هذه، وان كانت معروفة في الرواية العربية حين عرضت لمحاولة المعتمد الفاشلة للاجهاز في غيبة ابن تاشفين بخيله الاندلسية، وحتى بالفرسان المرابطية ، على ((ابن رشيق)) الذى انتزى من يد ((ابن عمار)) على مرسية ، فقد ابى الباحث الا ان يقيم الحجة على المعتمد على لسان المستشرق ((يوسف)) !! اشباخ حتى لكانها فريدة من فرائد هذا الالماني العملاق .

فيا لخيبة المعتمد بن عباد !! دفع الجزية للاسبان على قيد الحياة، وجاءت عليه الشهادة من الالمان وهو هامد بين الصفائح والتراب !! .

وفي نفس المجال يستوحي الباحث من جرية القصة ومن نص يوسف المستشرق نقيصة سيادة عوامل التفرق عوضا عن الاتحاد ، ويشير الى اشتغالهم بالخساسات كالتي كانت تجري في معترك تلك الظروف بين ((ابن صمادح)) وبين ((المعتمد بن عباد)) الى ما كانوا منصرفين اليه من وقوع بعضهم في بعض عند يوسف بن تاشفين ، وفي اثناء تلك الظروف الحرجات .

وعند هذا الحد يصل الى النقيصة العظمى وام الخبائث ، وهي الخيانة ، حيث اكتشف ابن تاشفين ما كان من اتصالات بعضهم بالعدو وبالذات فى ذلك الحين .

وكذلك كان ترتيب هذه النقيصة فى آخر القائمة السوداء ، وهي جريرة المنهاج، وسياق القصة فلا ملام !! .

ومن هنا نشارف فصل تصفية ملوك الطوائف والكائنة على المعتمد ابن عباد صاحب قضية فقه الباب ، وبه يستوفي الاطار عناصره التى عرضها الباحث بين يدي القراء ، ثم عمد فى الاخير الى تسجيلها كخطوط لذلك الاطارحسبما نقلناه بحروفه من غير زيادة ولا نقصان .

والذى يفهم مما سمعنا ورأينا ، ان ذكره الخطر النصراني بعقب نقيصتي الفوضى والانقسام مباشرة ، يفهم منه انهما كانا السبب دون سواهما من بقية النقائص التى تناثرت فى فصول كلامه بعد ، والا تعين ان يصير الى طريقة تتيح تسجيل جميع النقائص التى هي اسباب ، ثم يعقبها بما تسبب عنها ، وبذلك يكون المنهاج بنجوة من مغبة ذكر سببين اثنين فقط يعقبهما المسبب ، ثم تاتي بقية الاسباب متناثرة هنا وهناك .

وحتى اذا اعتبرنا أن جملة النقائص التى ذكرت بعد نقيصتي الفوضى والانقسام تعود كلها كيفما تعددت وجوهها واسماؤها الى هذين الاصلين ، فالملاحظ عليه انه قصر النظر على ما لاحظه من نقائص الملوك، حتى لكأن «بداية الاستيلاء على الاندلس» انما حاقت بالبلاد عقبى لما كانوا عليه ، وليس لخلائق رعاياهم أي يد لا من قريب ولا من بعيد ، وليس لمواقفهم تاثير يذكر فى المجال ، نعم قد يصح ان يبيعها رؤساؤها ـ وبيدهم الحل والعقد فى تلك الازمان ـ ولكن التاريخ يسجل ما هنالك، وكل شيء حسبما يظهر !!

ثم ان الانقسام والفوضى وتوابعهما ما كانت ظواهر لخلائق ملوك الرقعة الاسلامية الاندلسية دون ان تكون سمات ملحوظة فى ملوك الرقعة

النصرانية القشتالية وطابعا لتاريخهم المعاصر لمسلمي الجزيرة، ومنذ ايام الفتنة المبيرة الكبرى فى مطلع القرن الخامس حتى عصر المعتمد بن عباد ، فقد سادت الفتنة في الشمال سيادتها فى الجنوب ، فكان الشماليـون منغمسين الى الاذقان فى حال من الفوضى والانقسـام ومن التهالـك الطاحن على الحكم بين الاقرباء والجيران من الملوك والامراء ، وعرفـت قشتالة وليون حروب السنين الطوال التى أهلكت الحرث والنسـل ، وخربت الديار ، وحتى فى ظروف معركة الزلاقة ومعترك الاحداث بعدها ، فقد كان الخلاف والصدام مستعريـن بين الفنصـو السادس ، وبيـن السيد الكامبيـادور صاحـب احداث بلنسيـة التى لا تخفى بحـال ، وبين هذا وبين (بيدرو) ملك ارجونة، والامثلة على ذلك كثيرة بل حتى ان بعض مساويء اخرى ظاهرة فى تصرفات ملوك الجنوب الاسلامي قد كانت من المساويء التى لم يتورع عن أجتراحها ملوك الشمال المسيحي ، ولنسمها اخف اسمائها وهو ليونة الدين ، فكما كان الامـراء المسلمون يوالون النصارى ويستعينون بهم وبمرتزقة جنودهم فى حرب اخوانهم المسلمين منذعهدالخليفة سليمان المستعين وعلي ابن‌حمود، حتى عهدالمعتمد وملوك جيله، كذلك نرى ملك ارجونة «راميرو» بن «سانشو» الاول واحد اخوة «فيرناندو» يستعين بأصحاب طليطلة وسرقسطة ووشقة المسلمين وذلك عند محاولته الاستيلاء على مملكة نبرة « نافـار » التى كان عليهـا اخوه الاكبر غارسيـا ، واستجـار سميـه غارسيـا الآخر ملك جليقية والبرتغال واحد اولاد فرناندو الاول ، بالمعتمد بن عباد وذلك عندما قامت الحرب الاهلية بين الاخوة ابناء فيرناندو واستولى اخوه شانشو الثاني على مملكتي بني عمه نبرة « نافار » وارجونة «اراجون» ، وعلى مملكتي ليون وجليقية من يد اخويه الفونصو (المعـروف فيما بعـد بالفـونصو السادس) و(كارسيا) الذى فر من المعركة ولم يتحرج من الالتجاء عند صديقه ابن عباد ، كما ان الفونصو الذى كان أسر فى الحرب مع اخيه قد استطاع ان يفر من اسره ولم ير ملاذا فى غير طليطلة الاسلامية عند المامون ابن ذي النون .

ويا لله ! هي هي طليطلة نفسها التى عاد اليها فاتحا لا لاجئا وعلى عهد القادر حفيد المامون .

والحوادث بين هؤلاء الاخوة ابناء فيرناندو تشبه تمام الشبه الحوادث الدامية التى جرت من جراء تقسيم المملكة ايضا بين المقتدر من بني هود واخوته ، وقد رأينا المستعين ابن هود يستعين على اخيه بصديق ابيه وحليفه من قبل السيد الكامبيادور وبمرتزقة جيشه ، وكان المنذر اخوه يستعين بسانسو ملك ارجونة ورامون امير برشلونة .

كما نجد لخيانة الكونت جارسيا اردونيز الذى وقف محاربا فى صفوف المرابطين شبيها فى جانب المسلمين .

ويبدو من تشابه الحوادث والتصرفات ، انها نسخة واحدة لا تفترق الا بالاسماء .

وهكذا نلاحظ حتى ليونة الدين قاسما مشتركا بين المسلمين فى الجنوب وبين المسيحيين فى الشمال ، مثلما هو الحال بالنسبة الى الانقسام والفوضى على الوجه الذى رأيناه ، فعيوب الجيل كانت فى هذه الجزيرة مقتسمة بالسوية بين الطرفين !.

فكيف جاز ان ترجح المشيئة الالهية كفة المنقسمين الفوضويين ومن لان دينه فى الشمال على كفة المنقسمين الفوضويين ومن لان دينهم فى الجنوب ؟ .

أفما كان يجوز ان يتجه البحث الى التعمق فى فهم الاحداث مع الالتفات الى السوابق منها واللواحق ، فقد تتراءى لنا فيها الى جانب الفوضى والانقسام وتوابعهما ، اما نقائص اخرى مما ينسب الى الملوك ، واما نقائص فى رعاياهم ، واما امراض مجتمعية غير خاصة بامرائه وملوكه، وانما هي من فصيلة امراض الشعوب رعايا وملوك ؟ .

الانقسام والفوضى وما تفرع عنهما ، ظاهرتان منظورتان مذكورتان فى الرواية التاريخية لهذه القضية بحروفهما فلا جدال !!

ولكن الرواية التاريخية شيء ، والبحث فيها بالمنهاجية التى سجلها

الاستاذ الجراري فى توطئته شيء آخر، فلا مناص فيما يبدو من اضافة خطوط والوان اخرى لنضع امام القاريء الصورة الكاملة لما كانت تتخبط فيه البلاد الاندلسية على عهد ملوك الطوائف واستعلاء الدولة المرابطيـــــة .

ولنجعل نصب العين باديء ذي بدء (كما تكونوا يولى عليكم) فهي تهدينا للبحث فى اشياء واشياء .

ولا ننسى ما قيل في هذا المقام من ان خفض العيش الذى كان يمرح فيه الاندلسيون فى مناطقهم الجنوبية قد افقدهم الاخلاق الحربية ، وطبع عليهم الضعف . فلم يكونوا يستطيعون منازلة من ربوا فى الشمال على شظف العيش !! فهي من ملحوظات هذا المجال .

ولعل القراء وقد اخذت تنتصب الآن فى ذاكرتهم بعض الظواهر وتترى من رصيد معلوماتهم يذكرون ان المنصور بن ابي عامر ، عندما وضع التراتيب العسكرية ، ونظم الرتب للجيش ، وبث الوعي العسكري فى البلاد ، لاحظ وهو مجرب الرجال فى الزحف والنزال ، عجز أهل الاندلس عن مجاراة همته ، فلما جاء بعضهم يذكرون له ضعفهم عن الصدام والحرب والطعان ، وان غيابهم فى الغزوات ، يحيل ارضهم الى موات ، وضع يده فى يدهم على ان يتركهم لعمارة ارضهم ، وعليهم ان يعطوا من دخلهم كل عام ، ما يقيم به الاجناد التى تسد مسدهم فى صفوف حماة الاسلام ، ومن ثم كان الكثير من كبار قادة جيشه من فرسان بربر افريقيا، ومن المتطوعين للجهاد واهل السابقة فيه من اهل شرق العدوة ، وهم الذين كانوا عدته فى قمع الشرك ، وقص جناح حركة الاسترداد .

وحول قصة استقرار بني زيري ببسيط «البيرة» اولا، ثم انتقالهم الى بسيط غرناطة واختطاطها على منحدر الجبل ، بعدما كانوا قد عزموا الجواز الى مهادهم الاول بافريقيا عند ظهور بوادر الفتنة اثر انهيار الدولة العامرية .. حول هذه القصة يعرض علينا الامير الزيري فى مذكراته (1) صورة لذلك العجز فيقول : (وكان اهل البيرة فى بسيط من الارض ،

وكان بهم من الفشل بعضهم لبعض ما ان الرجل منهم ليتخذ بازاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره ، ولا يرجعون الى طاعة ولا حكم وال ، وكانوا مع هذا من اجبن الناس ، واخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون قتال احد ، ولو كان الذباب ، الا بمن يحميهم ويذب عنهم ، فلما بصروا باختطاف سلاطين الاندلس ، وانها اضرمت نارا ، وتوقعوا ان يتخطفهم الناس ، وجهوا الى زاوي (2) المذكور شاكين مماهم فيه ، ويقولون : ان كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا الجهاد آكد عليكم ، أنفس تحيونها ، وعزة تاوون اليها ، ونحن شاركوكم باموالنا وانفسنا ، لكم منا الامـوال والسكنى ، ولنا منكم الحماية والذب عنا) .

وعلى عهد الملك عبد العزيز ابن ابي عامر اناخت على بلنسية سرايا الملك فيرناندو ، واستطاعـت ان توقع حماتهـا فى أحبولة التظاهـر بالانسحاب التقليديـة ، واثخنوا فيهم بين بلنسية ومرسية ، ولم ينـج ابن ابي عامر الا بفضل جواده السريع الذى يبدو أنه متدرب على مثلها فى مثل هذه الاحوال وقد سجل ابن عذارى (3) عن هذه الوقعة صفحة رائعة لم ينسبها لاحد ، كما نقل عن ابن بسام ان خبرها لم يقع عليه فى كتاب ابن حيان، وهي صفحـة تفيض بروح التهكـم ، وتشع بلمحـات البيان ، وكانت رنات الاسجـاع المرصوفة فيها عنصر تاثيـر وروعة ، وآية الاحتفال والاهتمام بتجسيدها على هذا الوجه ظاهرة ، وذلـك ما ينم طبعا عن اهتبال بما حصل فى الواقعة وانك لتحس انفاسه تزفر تارة وتهمد اخرى تحسرا على حالة الضعف العسكري التى كان من عقباهـا ما كان فى هذه الموقعة .

واضع امام القـاريء سطورا منها اسنـادا لما نقلـته عن صاحـب ((التبيان)) واقتطف الكلام من حيث ابتـدا العـداة فى نصب الاحبولة التى قصت لحماة بلنسية الجناح :

((ثم كايدهم العدو باظهار الاضطراب ، والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب ، استدراجا لهم واستطـرادا ، وجـدا فى طلـب مكروههم واجتهادا ، فماج رعاعهم ، وتنادى بالنفير مهنتهم وصناعهم ، حتى قيل ان مخنثين تناديا الى الخـروج وقد ايقنـا بسبي العلـوج ، فهما

يتنازعان المنى ، ويقولان نحن اعلم بفعلات القنى ، وهيهات ، تلك اقصف للظهور ، وهذه اشفى لبعض الصدور ، وخرجا ولا سلاح الا رشا يتجاذبانه ، ثم اصطلحا بعد فاقتسماه ، لا يستهيبان ضيق المنهاج ، ولا يشكان فى اقتياد الاعلاج ، وساعد اولئك الرعاع الحائنين اميرهم يومئذ المترف عبد العزيز بن أبي عامر ، فخرج بالعير والنفير والجم الغفير ، يحسب الطعن كالقبل ، وبطن السيوف كالمقل ، ويتخيل صليل الحسام ببين القصرتين والهام ، ما كان اتسع له ذرعه ، ومرن عليه سمعه ، من نغم الاوتار وترنم الاطيار ، فلم يرع العدو يومئذ الا خروج اهل بلنسية الاغمار والاغفال ، الى تلك المصارع والاجبال ، يمشين مشي قطا البطاح ، تاود اهيف الخصور ، رواجح الاكفال ، فظفر العدو يومئذ بهم ، أتاهم من ظهورهم ، فحكم السيف فى جمهورهم، ولم يبق الا من أحرزه أجله ، وخفي على سهم المنية مقتله) .

وباثر معركة الزلاقة ومعنوية الاندلسيين فى الريعان ، نهد المعتمد لرد العادية عن لورقة وهي من املاكه فى الشرق ، وكان العدو قد تحرك اليها كدابه قبل الزلاقة حيث كان يستعرض عضلاته فيما بينها وبين المرية ومرسية وبسطة (4) معتمدا على حصن لييط المنيع بموقعه فوق الجبل داخل التراب الاسلامي بين لورقة ومرسية ، وبما عبا فيه من جند بلغ الف فارس واثنى عشر الف راجل ، وقد عمد المعتمد قبل جواز ابن تاشفين الثاني الى الجزيرة لمنازلة الحصن فجهز جيشا جعل على راسه ابنه الراضي ولكن هذا تمارض وأظهر التشكي ، فلم تخف على والده ظاهرة التقاعس عن معاناة الحرب ، فغاضبه اياما ثم سرعان ما عطفه الحنو نحوه ، وتلك قصة قصيدة المعتمد الساخرة الشهيرة .

الملك فى طي الدفاتر فتخل عن قود العساكر

وصدق من سماها فردوسا فقد كانت الخساسات والسيئات تتضاءل أمام فيوضات الافكار والاذواق !!

وعندها عهد المعتمد الى ابنه المعتد فخرج على راس الجيش الذي يبدو أن والده عقد النصر بكثافته ومعنوياته ، ولكن لم تغن كثرة ولا معنوية عند اللقاء ، ولم يسع الاندلسيين واميرهم الا

القرار ، وكذلك عجز حتى جيش المعتمد عن ملاقاة العدو فى لورقة (5) ، وتلك كانت قصة قصيدة ابنه الراضي التى يقول فى مطلعها :

لا يكرثنـك خطـب الحـادث الجـاري
فما عليـك بـذاك الخطـب مـن عـار

ولما قصد فرناندو الاول منطقة الثغر بغرب الجزيرة ، ودفع بسرية ثقيلة نحو شنترين الواقعة على نهر التاجو اصاب اهلها الفزع ودهمتهم الفوضى لولا ان لحق بهم اميرهم المظفر ابن الافطس قبل وصول العدو ، فهرعوا اليه قائلين : (لقد هممنا ان نستسلم للعـدو ، ولو لم تأتنـا لضعفنا عن دفاعه) (6) .

وعولجت النازلة بجزية سنوية فى مقابل الجلاء عن المدينة .

وفى أحد فصول الرسالة التى وجه بها المعتمد بن عباد جوابا على رسالة الفونسو ما يلي : (والذى جراك على طلب ما لا تدركه ، قوم كالحمر ، لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة ، او من وراء جدر).

وتقول الرواية التاريخية ان الجواسيس جاءت من محلة الفونسو ليلة الزلاقة وانبات بان ابن ملك النصارى كان يقول لاصحابه : ان ابن عباد هو مسعر هذه الحرب ، فاقصدوه واهجموا عليه ، فلا ارى ان ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة .

وليكن هذا صحيحا ، او غير صحيح ، فهو يعبر ولو عند واضعه عما كان عليه اهل الجنوب فى نظره ونظر اهل الشمال .

« ولا يعكر علينا فى هذا الذي اشرنا اليه من الضعـف العسكـري ما نقل (7) عن الرقيق القيرواني فى وصـف اهل الاندلـس بانهم (اهـل جهاد) فالرقيق لم يعرف من اهل الاندلس الا الاوائل ، عنـدما كانـت دنيا المسلمين فى الجزيرة ما تزال بخير ، ولو انها فى معترك عصر الفتنة الكبرى المبيرة ، فقد توفي حوالي نهاية العقد الثاني من القرن الخامس

والجيوش الاسلامية ما زالت تعيش يومئذ على رصيد العزة الاسلامية فى عهد الخلافة ، وبمعنوية امجادها ، واخبار غزوات المنصور بن ابي عامر ما زالت ملء اسماع الدنيا الاسلامية والمسيحية ، وتثير فى قلب الديار الاندلسية الحمية الاسلامية التى لانت ثم انهارت على عهد الاجيال اللاحقة التى عاشت تحت ما يكاد يشبه الى حد بعيد ، نظام الحماية فى القرن العشرين ، وذلك على عهد فرناندو الاول وولده الفونسو السادس وهو عصر المعتضد بن عباد وابنه المعتمد .

واحب أن اقول بوجه آخر ان المؤرخ الرقيق عاش فى عصر كانت فيه الحروب بين الطرفين ما زالت تأخذ احيانا صبغة الحرب السجال ، فقد نلاحظ مثلا انتصار المقتدر ابن هود ملك سرقسطة على راميرو الاول ملك ارجونة ((اراجون)) فى الحروب التى قامت بينهما وانتهت فى الاخير بمصرع راميرو سنة 1063 لما اغار على مدينة وشقة من مدن الثغر الاعلى وعلى نواحيها (8) ولكننا نلاحظ ايضا ان الاخذ بثار الهزيمة ياتي سراعا وبحمية فى وضعية حملة صليبية استولت على بر بشتر في نفس السنة الموالية ، ويلاحظ ان المؤرخ ابن الكردبوس عندما اشار فى تاريخه (9) . الى جملة انتصارات اندلسية ككسر الغارة على ناحية غرناطة على عهد باديس بن حبوس الزيري ، يسجل ذلك بعقب قوله مباشرة (وطال اشتغال الروم بعضهم فى بعض) ولسنا نمر بهذه الملحوظة دون ان نفهم منها بكل وضوح ان الطاقة العسكرية الاندلسية ما كانت تعمل عملها الا عندما يكون النصارى منهمكين فى حروبهم الداخلية وخلافاتهم المتوالية .

ويعنينا من مستفاد هذا العرض ما نستشفه من عقابيله خلال مجرى الاحداث ، وبمضي الزمان ، فلم يكن تاثيره على عهد ملوك الطوائف برؤسائه وشعوبه ماديا وحسب وذلك لما فرض عليهم العدو من فادح الجزى ، وما ابتز من ذخائر واعلاق ، او ما كبس من قلاعهم وحصونهم بالتطاول والاستعلاء ، وانما كان له ايضا تاثيره المعنوي على النفوس والاخلاق ، وتجلى اوضح ما كان فى استعدادات نشات مع الجيل الصاعد ، وفطرة فطر عليها ، فقبل الدنية فى دينه ودنياه وطبع الله على قلبه فحرمه من بواعث المحبة ومن المقومات الانسانية .

وذلك ما سنتعرض الى تفصيل القول فى آياته وظواهره ، لنقع على الاسباب المباشرة التى عجلت بالفاقرة ، ونضع امام القاريء صورة المجتمع الاندلسي الحقيقية على عهد ملوك الطوائف ، وعندما كان المرابطون ينشئون دولتهم القوية العلمية الاصلاحية .

وعندها ، وحين نعرف على الوجه المذكور سبب الخطر الذى حاق بالاندلس ، نفرغ لتصوير ذلك الخطر فى حقيقته الجغرافية والتاريخية التى ازعجت بفداحتها امير المرابطين للعزم على القيام بحركته الانقاذيـــة .

— يتبـــع —

الرباط — عبد الرحمن الفاسي

فالى الذيول والتعاليق التالية :

---

(1) كتاب التبيان (صحيفة 18) انقل بكثير من التحفظ والاحتراس عن صاحب الكتاب ، ولا يصح الاعتماد على ما يقوله ما لم يكن معززا بنص من الخارج ، والمقدمة التي وضعها المستشرق الفرنسي بروفانسال لم توف بالتعريف بالكتاب ، ولم تحلله التحليل الذي يحتاج اليه ، وأرجو أن يتاح لي تقديم فصل عنه بعد الفراغ من هذه الذيول .

(2) زاوي بن زيري هو عم الامير عبد الله صاحب التبيان وكان من قادة الدولة العامرية ومثله ابن أخيه حبوس ابن ماكسن .

(3) البيان المغرب ج 3 ص 252 .

(4) البيان المغـرب (ج 4 ص 141) بالملحق المنقول عن كتاب : الحلل الموشية .

(5) فى رواية قلائد العقيان أن خصمه فى لورقة هو المظفر صاحـب بطليـوس ، وهـو الذي تصدى ليحول بينه وبينها والمرجع ما اثبته فى الاصـل نظـرا لموجهـات واسباب لا تتصل بمحل الشاهد هنا ، وانظر ترجمة الراضـي فى الحلـة السيـراء (ج 2 ص 75) وراجع القصيدتين بتمامهما وقصتهما فى قلائـد العقيـان ط بولاق (ص 31 — 33) .

(6) البيـان المغـرب ج 3 ص 238 .

(7) نفح الطيب ج 1 ص 193 طبع وتحقيق المرحـوم محمد محـي الديـن .

(8) تاريخ ابن الكردبوس ص 74 .

(9) ابن الكردبوس بنفس الصحيفة .

مع المبرد في كتابه "التعازي والمراثي"

عرض وتعليق : محمد ابن تاويت

هذا الكتاب القيم ، يعتبر تضخيما لما ورد فى اواخر كتاب الكامل ، للمؤلف نفسه ، فهو وأن قصد به مناسبة خاصة ، نجمت عن موت صديق المؤلف الحميم ، القاضي اسماعيل بن اسحاق الازدي ، احد اعلام المالكية ، والذى خصص له القاضي عياض فى ترتيبه ترجمة وافية لم ينل مثلها منه ، وفيما عدا مالك ، احد من هؤلاء المالكية — الا أن أصله فى الكامل ، وحتى المؤلف نفسه نجده يقول :

« كنا ذكرنا اشعارا من أشعار المتقدمين ، فقلنا نمليها على وجهها ، ثم رجعت الى أنها مجموعة فى الكتاب الكامل ، على شرح جميع اعرابها ومعانيها ، فان رجعت ، رجعت معادة ، وهو ما يؤخذ من ثم » .

اذن ، فكأن المؤلف سها ، عما ورد فى كتابه ألكامل ، ثم تذكر ذلك ، ولكنه لم يطل هنا بما ثم ، من شرح واعراب وتبين معنى .

وليس فى الواقع ، خاصا بأشعار المتقدمين ، بل فى الكامل من اشعار المحدثين المعاصرين ، ما بعضه اكمل مما ورد فى هذا الكتاب مثل قصيدة ابراهيم بن المهدي فى رثاء ابنه ومثل مرثية عبد الصمد بن المعذل لعمرو بن سعيد بن سلم ومثل مرثية العتبي لولده وآخرين كما ان المراثي والتعازي، تناولها معاصرون للمؤلف ، فى كتبهم ومجامعهم ، وان لم يخصصوها آنذاك بالتأليف مثل الجاحظ ، فى كتابه «البيان والتبيين» ، خاصة ، ومثل ابي تمام فى الباب الذى خصصه للمراثي من ديوان حماسته ، ففي هذا كثير من النصوص كما فى البيان وزيادة .

وبعد ، نلقي نظرة على صفحات الكتاب ، لنسجل على بعضها ما لاحظناه عليه :

اولا : فيه بعض الشخصيات ، ذكرت غفلا ، كأنها كانت معروفة ، لعصر المؤلف ، ولكنها غمرها الزمان ، فأصبحت فى حاجة للتنقيب عنها وهذا ما يجعل الانسان فى شك من ضبطها، ضبطا علميا فقد وردت هذه العبارة : « قال أبو الحسن عن ابي بكر عن ابي المليح » .

ابو الحسن ، هذا معروف فى الكتاب وفى الكامل ، بأنه المدائني الذى اكثر المؤلف عنه الرواية ، اما ابو بكر وابو المليح ، فالبحث عنهما متعب، وجزى الله خيرا الجاحظ فى بيانه ، وعبد السلام هارون المحقق ، الذى هدانا الى أن أبا بكر اسمه سلمى بن عبد الله أو روح ، وانه راو عن الحسن وابن سيرين وابي المليح ، كما هنا ، وان اسم هذا عامر او زيد او أسامة بن عمير ، وكلاهما ذكرهما الجاحظ من خطباء هذيل .

وورد فى صفحة اخرى عن الاصمعي ، ان معتمر بن سليمان لما مات اخوه حزن فكان يدعو الله ان يراه فى المنام ، وانه لما ذكر ذلك لشعيب بن الحبحاب ، قال له : « ان الحزن ينضو عن ابن آدم كما ينضو صبغ الثوب ، ولو بقي على ابن آدم قتله » .

فمن شعيب بن الحبحاب هذا ؟ لقد اجهدت نفسي فى التعرف عليه ، فوجدته يتـردد فى كتاب المصاحف للبستانـي ، كأحد رجال الحديث والقراءات ، ثم وجدته مذكورا بقصته ، وفيها اختلاف بسيط ، فى كتاب البصائر والذخائر ، لابي حيان التوحيدي ، الا أن محقق الكتاب ابراهيـم الكيلاني اثبته مصحفا ، هكذا « الجحاب » وهذا لا يكفي فى التعرف عليه كمـا نـرى .

فهذا مثال من تلك الاعلام التى وردت مجردة ، وحيرتنا فى امرها ، اما لكونها كانت مشهورة فغمرت فيما بعد ، واما لكوننا بعيدين عن مجال الرواية والرواة ، وربما كان الامران فى شأنها .

وهناك نوع آخر من الحيرة ازاء اعلام اخـرى ، فقد يـرد علم فى صفحة ، ثم يرد فى صفحة اخرى ، مغايرا لما ذكر به لاول الامر ، وربما ذكر مرة ثالثة ، مغايرا لهما معا .

ومثالا لهذا ، نجد رجلا ورد اولا باسم زبـان بن منظـور ، ثم ورد باسم وكنية « ابي وهب زبان بن منظور بن زبان » ثم ورد باسم « منظور بن سيار » .

فارتبكنا ازاء هذه الاعلام مع الكنية ، هل اصحاب الاعلام اشخاص متعددون ، وهو الظاهر ، ام صاحب الكنية هو صاحب الاعلام كلها ؟.. وبعد استشارة كتب التراجم والانساب والاخبار ، اتضح لنا ، ان ابا وهب انما هو منظور بن زبان بن سيار ، هو الحسن الذي تزوج ابنته ، فكان منها الحسن ابو عبد الله ، والد ادريس الاكبر . وليس هو زبان بن منظور ، ولا هو منظور بن سيار ، على ان هذا ابوه ، ولا هو زبان بن منظور بن زبان ، بل هو كما قلنا وعرف فى التاريخ والانساب ، بانـه ارتد ثم أناب ثم تزوج امرأة ابيه على عهد عمر فأمر بطلاقها ، ثم مانع فى تزويج ابنته من الحسن ، بعدما قتل زوجها بوقعة الجـمل ، ثم رايناه يشاهد عبد الله وابراهيم والحسن ابناء الحسن المثنى . وربما كان فى هذا الاضطراب ، يد للتحريف بالحذف آنا والتقديـم والتأخيـر والزيـادة

احيانا اخرى، ونحن اميل الى هذا التدخل ، بدليل ورود بيت اثر قصة منظور بن سيار ، صحف فيه « بابن عمار » فهذا هو التصحيف بعينه .

ومن قبيل الاعلام ايضا ، نجد فى الكتاب ابا لامراة ، تدعى هائلة ، باسم منقذ بن سليمان .

فمنقذ معروف فى الانساب القبلية ، ولكن سليمان ، بعيد كل البعد ان يكون موجودا بهذا الاسم عند العرب وفى عهودهم الساحقة فهذا الاسم لم يعرف عندهم ، الا بعد مساكنة اليهود اياهم ، وفى يثرب بصفة خاصة ، حيث وجدنا من بني النجار من الخزرج ، سليمان بن الحرث الذي قتل فى احد ، ولا نعرف غيره ممن سمي بهذا الاسم على فجر الاسلام الاول ، ولم يشع الا بعد أن سمي عبد الملك ابنه به . ونستعرض مثلا اسماء لاجداد النبي عليه السلام ، فلا نجد منها من اسماء الانبياء لبني اسرائيل ، الا الياس ، وهذا غريب وربما كان من قبيل الاتفاق ، ومن القواعد المقررة انه لا يوجد من الاسماء العربية للانبياء الا اربعة ، وهكذا اذا قرأنا قوله تعالى « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين ، وزكرياء ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا » فاننا لا نجد ، عدا من ذكرنا ، على فجر الاسلام ، الا ابراهيم ابن النبي عليه السلام .

قد يقال ، ان اسماعيل ، عرف ابا لاعظم قبيل من العرب ، فكيف تقول ان العرب لم يتعرفوا على الاسماء العبرية ويستعملوا بعضها الا عندما ساكنهم اليهود بيثرب خاصة ؟.

والجواب بسيط فمعرفة الاسماء شيء والتسمية بها شيء آخر ، فهذا آدم أبو البشر ، وهذه حواء امهم ، لا نسمي لا باسم الاب ولا باسم الام فى العربية عامة ، وان كان المسيحيون من الاوربيين خاصة يسمون بهما .

على أن هذا الاسم ، سليمان ابا المنقذ ، ربما يكون واقعا من قبيل التصحيف ، بدليل ان هائلة ايضا ، تصحفت بهيلة، وهي هائلة ، كما فى كتاب الاشتقاق لابن دريد ، الذي أبان ـ كغيره ـ وجه التسمية بهائلة . واقطع من هذا أن سليمان ابا المنقذ لم يرد بكتاب نسب عدنان وقحطان للمؤلف نفسه .

ولا يستغرب مثل هذا التصحيف بالكتاب ، مثلا نجد فيه ما يلي : « وفزارة بن ذبيان بن بفيض ، وبنو عبس بن بغيض ، فكان عبد الله وذبيان اخوين.. (ثم قال بعد حرب بعاث) فحرب الانصار ، حرب بعاث ، وحرب بعاث ابني بغيض حرب داحس » .

فنرى في النص ان « عبس » تصحفت بعبد الله ، وان « عبس وذبيان » ، حل محلهما اخيرا كلمة « بعاث او انهما لا لزوم للذكرهما بعد ما نص على كونهما ابني بغيض ، فتكو كلمة « بعاث » مقحمة لا محل لها هناك على كل حال، ويكون الكلام هكذا : « وحرب ابني بغيض » الخ.. نترك الاعلام ، وفيها من نحو ما تقدم كثير ، والغالب انه تصحيف وتحريف، ولنتوجه الى غيرها، مما لا يد لغير المبرد فيه ، منه هذه الرسالة ، التي عزاها الى النبي عليه السلام، كاتبا بها الى معاذ بن جبل ومعزيا فى ابنه :

من محمد رسول الله، الى معاذ بن جبل، سلام عليك، فاني احمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد : (فان انفسنا وأهلينا وأموالنا ودائع الله ، جل ذكره ، وعواريه المستودعة ، يمتع بها من يشاء ، الى أجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم، فأمر بالشكر اذا اعطانا وبالصبر اذا ابتلانا فكان ابنك من مواهب الله الهنية ومن عواريه المستودعة التى يتمتع بها من يشاء الى اجل معدود ويقبضها لوقت معلوم ، وقد متعك الله به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كبير ، فالصلاة والرحمة والهدى ، يا معاذ ان صبرت واحتسبت فلا يذهبن جزعك اجرك ، فتندم على ما فاتك لو قدمت على ثواب مصيبتك؟ قد أرضيت ربك ، وتنجزت موعده ، وعلمت ان المصيبة قد قصرت عنك ، واعلم ان الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن العزاء ، وتنجز الموعد، وليذهب أسفك ما هو نازل بك) فكأن هذه الرسالة لا شك فى وضعها ، ولا نعرف للنبي رسالة من هذا القبيل ، وليس من المعقول ابدا

ان يدعو النبي احد كتابه ليملي عليه هذه الرسالة ، فى امر خاص لا يأبه له المومنون ، وقد غاب عن المؤلف نفسه انه قال « ومن احسن التعزية ابلاغ فى ايجاز » ومن احسن من النبي فى هذا القول وفى غيره ، وزيادة على هذا كله ، ففى الرسالة من التكرار ما يربأ به النبـي عليه السـلام، مثـل « عواريه المستودعة يمتع بها من يشاء الى اجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم « فقد تكرر هذا بنصه فى الرسالة ، فما احراه ان يكون من واعظ لبليد او متبلد والمبرد قد يقع فى مثل هذه النسبة ، فقد يلفـق ، وهـو لا يدري ، ابياتا من قصيدتين ، يجعلهما من قصيدة واحدة ، كما حصل منه فى هذا البيت :

يا نافعا من للفوارس احجمت عن شدة مذكـورة وطعـان

علم الله أني شعرت بنفوري من الشطرة الاخيرة والاولى ، فاتجهت الى البحث واذا بي أجد صاحب الاغاني ، يذكر قصيدتين لنفس الشاعر ، يرثي باحداهما ابنا له وبالاخرى ابنا آخر ، يقول فى احداهما راثيا لابنه عامــــــر :

عيني تجـود بدمعهـا الهتـان سحا وتبكي فارس الفرسـان

يا عام من للخيل لما احجمت عن شـدة مرهوبـة وطعـان

ويقول فى اخرى راثيا لابنه نافع :

يا نافعا من للفوارس احجمت عن فارس يعلو ذرى الاقران

وهي الرواية الصحيحة ، كما عند الاصفهاني فى الاغاني ، اخبره بها محمد بن مزيد بن ابي الازهر ، حدثه بذلك الزبير بن بكـار الذى حدثه عمر بن ابي بكر الموصلي عن عبد الله بن مصعب عن أبيه ، والاولى ، حدث بها ابن الكلبي عن ابيه ، وصاحب الاغاني فى هذا الشان مقدم على المبرد ، وان كان ـ كما قال بعـض الفضـلاء الطيبيـن ـ من مصـادر

الاصفهاني ، فليس بلازم ان يكون الرجل مصدرا فى كل ما قال ولو اخطأ او سـهـا .

ومما يتصل بالخطأ فى النسبة ، ما وقع للمبرد ايضا فى كتابه هذا ، من قصة الوباء الواقع فى العرق ، وتوفي به المغيرة سنة 50 وهو وال فقد ذكر فى هذه القصة ، ابا موسى الاشعري الذى كان قد مضى على وفاته سبع او ست سنوات ، وقصة ابي موسى مذكورة بالكامل لابـن الاثير وغيره ، وكانت فى طاعون عمواس بالشام ولم تكن فى طاعون الكوفة بالعراق ، والمكان الذى صحف بهذه ، انما هو « دابق » قرية بشـمـال سورية قرب حلب ، كما يقول ياقوت ، وليس مرج دابق كما يقول ، بعض الفضلاء الطيبين الآخرين ، فالمرج انما اضيف اليه ، ولا يعقـل ان يفر الناس فى الطواعين الى المروج ، بل الى الاماكن العالية بالجبال ، كما ذكر المؤرخون فى هذه القصة بالذات .

نكتفي بهذا فى ملاحظتنا على كتاب التعازي ، ونود ان يتنبـه الى الاختلافات الواردة فى نص الاشعار ، عما هي فى غير هذا الكتاب ، مما تسبب بعضه فى كسر احيانا ، فلا شك ان هذا يتحمله الناسخ ، لا المبرد رحمه الله .

تطـوان　　　　　　　　　　　　محمد ابن تاويت

إرتسامات
حول مهرجان "ستروكا"

علي الصقلي

شرفتني وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فاناطت بي مهمة تمثيل المغرب فى مهرجان ستروكا الدولي الثالث عشر للشعر ، وذلك تلبية للدعوة التى وجهت الى بلدنا فى اطار العلاقات الثقافية القائمة بين المملكة المغربية والجمهورية اليوغسلافية .

ومهرجان ستروكا ، او كما يسمونه احيانا ، الأمسيات الشعرية لستروكا ، ينعقد ، عادة ، فى بحبوحة الصيف من كل سنة ، بهذه المدينة الصغيرة ، المطلة على بحيرة أو خريد ، فى اقصى جنوب مقدونيا ، فى الحدود الالبانية اليونانية .

ومقدونيا احدى الجمهوريات الست التى يتألف منها الاتحاد الفيدرالي لجمهورية يوغسلافيا الاشتراكية .

تأسس مهرجان ستروكا خلال صيف 1962 ، وظل ينعقد ، منذ ذلك الحين ، كل صيف دون انقطاع . وكانت الغاية من تأسيسه ، وما تزال ، هي تدعيم جانب الشعر وتقويته لدى شعوب الجمهوريات اليوغسلافية ، وخاصة مقدونيا ، وتقريبه من شعر بقية شعوب العالم . او بعبارة اخرى هي اقامة علاقة فكر وصداقة بين الادباء والشعراء اليوغسلافيين والمقدونيين وبين زملائهم فى مختلف اقطار المعمور عن طريق الكلمة الشعرية التى قد تعتبر أسمى الوان التعبير بين الناس ، وانقاها واصفاها فى دنياهم .

وقد داب اتحاد الكتاب اليوغسلافيين على مديد العون لجمعية الادباء المقدونيين المشرفة على تنظيم اعمال المهرجان سنويا منذ تأسيسه .

وقد انتظم لحد الآن فى سلك المشاركين من الشعراء ممثلو اكثر شعوب العالم ، شماله وجنوبه ، ابيضه واصفره واسوده ! وهم يشاركون حسب برنامج مضبوط للايام الخمسة او السبعة المحددة ـ عادة ـ للمهرجان . ولا يقتصر الامر على تناشد الشعر وتطارحه بين الشعراء خلال المهرجان ، كما قد يتبادر الى الذهن من عنوانه ، بل انه يتجاوز ذلك الى طرح مشاكل الشعر الاساسية ومسائله ، والاستماع الى اهم الدراسات المتعلقة به منذ كان الى الآن ، من مثل : الشعر واللغة ، الشعر بين الاقليمية والعالمية ، الشعر والتجارب المعاصرة ، مستقبل الشعر .. وهي دراسات يهيئها بعض النقاد المدعوين خصيصا لهذا الغرض .

على ان هناك ـ فيما اعتقد ـ غاية اخرى لاقامة مهرجان ستروكا غير التي اشرت اليها سلفا ، وهي غاية لا يكاد يستشعرها من المشاركين فى المهرجان الا من كان ، مثلي ، ينتمي الى بلد تجاهد لغته الاصلية وتجالد ، وسط خضم من التيارات العادية والمعاكسة ، لتحتفظ لنفسها بالحياة ، فى تحد لكل الزوابع والاعاصير ، ذلك ان مقدونيا وان كانت احدى الجمهوريات الست ليوغسلافيا ، وان كانت من اصغر هذه

الجمهوريات ان لم تكن اصغرها، فانها تأبى الا ان تتشبث باهم مقومات شخصيتها وكيانها ، وذلك عن طريق الاحتفاظ بلهجتها التى اخذت تعمل ــ منذ ثلاثة عقود او تزيد ــ على ان تجعل منها لغة « حية » لها مقومات وخصائص أي لغة حية .

ولعلها بالرغم عن هذا الامد القصير قد بلغت فى ذلك شأوا بعيدا، حيث اصبحت المقدونية ــ ضمن حدود الجمهورية الصغيرة ــ لغة المدرسة فى مختلف مراحل التعليم ، ولغة النادي الثقافي والمعهد الفني ، والمتحف التاريخي و .. و .. متجاوزة بذلك البيت والشارع اللذين ظلت طيلة حياتها رهن محبسيهما.

وقد نتصور العراقيل التى واجهت المقدونيين وهم يقتحمون غمرة هذه المحاولة الجريئة التى لا تعدو ان تكون فى نظر البعض ضربا من اليأس ، محاولة خلق كيان لغة لم يسبق لها ان ضربت بسهم فى الميدان الحضاري ، ولا كان لها أي أثر فيه ، غير ان ارادة المقدونيين كانت اكبر واقوى من أية عرقلة ، فرأت المقدونية النور بعد مخاض ، لا شك ، انه شديد ، ثم بدأت مرحلة النمو ، معتمدة على ايمان اهلها بها ، وتفانيهم من اجل تقوية جذورها ، وارساء قواعدها ، وتطويرها بالشكل الذى تصبح معه قادرة على النهوض ، ما أمكن ، بأعبائها ، جديرة بتأدية رسالتها . ولم يدخروا لذلك من جهد ، ماديا كان او ادبيا ، طيلة هذه الاعوام الاولى لجهادهم .

ولعله فى هذا الصدد بالذات ، تقرر اقامة علاقات مع مختلف الاوساط الفكرية والادبية فى انحاء المعمور ، قريبا من مقدونيا او بعيدا عنها ، ولعله ، فى هذا الاطار ايضا ، وجد المهرجان الدولي للشعر الذى يستقطب ، عادة ، ادباء وشعراء ونقادا من مختلف انحاء العالم ــ كما اشرنا فيما قبل ــ ليعرفوا هذه اللغة وادبها ويعرفوا بهما .

والحق انهم نجحوا كثيرا فى هذا الباب ، بدليل انه اصبح لمهرجان ستروكا ، او بالاحرى للادب المقدوني الفتي ، انصار وشعراء فى أوربا وامريكا ، همهم ان يترجموا هذا الادب واليه ، وان يعرضوا حصيلة

اعمالهم خلال المهرجان ، بل ذهب بعض الشعراء الاجانب الى حد العكوف على دراسة المقدونية وادبها ، بغية التخصص فى هذا اللون من الادب الاوروبي ، لمزيد التعريف به واذاعته مترجماً بين الناس، الامر الذى يحقق اغلى أمل عن الادباء المقدونيين ، ويساعدهم على انجاز المهمة المنوطة بهم .

اذا عرفنا ذلك ، امكن ان نعرف السر الذى يكمن وراء توفير جميع الاسباب الضرورية وفوق الضرورية لنجاح المهرجان ، وتفاون جميع الفئات ، وعلى راسها السلطات المحلية والحكومية ، لهذه الغاية .

ولذلك فمن العسير وصف مظاهر الابهة التى احيطت بها الامسية الكبرى للشعر بستروكا ، وتعتبر من بين جميع الامسيات ـ اهم مجمع ومعرض للشعراء ، وحسبي أن اقول ، انها أقيمت ، بمحضر ابرز وجوه مقدونيا ثقافيا وسياسيا واداريا ، على جسر كبير ، بمحاذاة بحيرة اوخريد ، زود بشبكة كهربائية من المصابيح الخاصة ، اعدت لهذه المناسبة ، لتخلل الاشجار القائمة على ضفتي النهر المتحدر من البحيرة ، فتستحم اشعتها المنعكسة على صفحة النهر مع القوارب الشراعية التى تتهادى حالمة بما تسمع من أطايب الكلام ، وبما تحمله من عجائب الاحلام !

هذا بينما اصطف الجمهور الحاضر ، او بالاحرى تكدس ـ لانه كان يعد بالآلاف ـ عن يمين المنصة وشمالها ، وعلى طول جانبي النهر الممتد امام المنصة .

وشاركت السينما فى هذه الامسية ، فقدمت اغلى ما لديها من الممثلين والممثلات ، ليتولوا هم قراءة نصوص الاشعار المترجمة الى المقدونية ، حتى يضاعف ذلك من امتاع الجمهور ، بل الجمهورية كلها عن طريق التلفزة الحاضرة ، وحتى يكون ذلك مظهر تقدير لاهمية المهرجان ، ولرسالة الشعر والشعراء .

وخلال هذه الامسية اعيد تقديم الشاعر التركي فاضل حسني

الى الجمهور ـ وكان قد سبق ، قبل يومين ، منحه جـائزة المهرجـان السنوية للشعر فى حفل خاص فصفق له كثيرا . وانشده بعض قصائده حول مقدونيا ، علما بأنه من اكبر العاطفيـن عليها ، فأنشدهـا وكأنه كان يعاقر هذا الجمهور اقداحا من الصهباء وام يكن له بد من الانتشاء بها !

وفى آخر يوم من ايام المهرجان وزع الشعراء المدعوون فى كل انحاء مقدونيا ، جماعات جماعات ، سعيافى اتصال مباشر بينهم وبين عامة الجماهير المثقفة فى كل البلاد المقدونيـة ، حيث اقيـم فى كل ناحيـة مهرجان محلي كان الشعراء خلاله يتناوبـون على القـاء قصائدهم ، ويجدون هناك من يتولى قراءة ترجمتها ، وتكون مناسبة للتعارف اولا ، وتبادل الراي حول الشعر وشؤونه ثانيا .

وهكذا كانت مقدونيا بحذافيرها ، فى يوم واحد ، على صلة مباشرة بالشعراء المدعوين تستمتع اليهم ، وتتغنى معهم ، وتحييهم تحية الوداع

بقي ان اقول : ان اختيار ستروكا لتكون مقرا دائمـا للمهرجـان اختيار موفق ، نظرا لان كل ما فيها وما حولها هـواء ومـاء وارض وسماء ، يؤذن بأنها جديرة بأن تكون كعبة للشعراء ، تتردد تحت سمائها انغامهم ، وتزهو فى ظلها احلامهم .

كما احب ان أذكر بطابعها الاسلامي الذى ما يزال قويا ، يتمثـل فى مساجدها ذات القباب العالية ، والمآذن الشرقية الرشيقة ، الضاربة فى اجواء الفضاء .

ومع ذلك نتساءل مع شوقي الذى قال منذ اوائل هذا القرن :

مقدونيـــا ! والمسلمـون عشيـــرة

كيف الخؤولـة فيـك والاعمـــام ؟!

تحيّة

مـن ثـم .. من بلـد النسريـن والآس
ومن خمائـل نشـوى فـى حمـى فـاس

اتيت ازجي تحايـا الشعـر عاطـرة
أكرم بها ، كالخزامـى ، طيـب انفـاس

قطفتهـا من عيـون الغيـد ، ناطقـة
بما يكـن الحشـا من نبـل احسـاس

من خمرة النور فى كاس الصباح ، وقد
تراقص الكـون بين الخمـر والكـاس !

من عطـر سوسنـة الـوادي تهيـم به
هنـاك اشتـات اعـراس وأغـراس

من النـدى فى مآقـي الـورد دمعتـه
ترقرقـت وهو ، فى شـوق لها ، حاسـي

من النسيـم وقـد طافـت مواكبـه
علـى الريـاض فهزت ناكـس الـراس

مـن وشوشـات نخيـلات تدغدغهـا
نسائـم الفجـر فـى عطـف وايـنـاس

* القى الشاعر هذه القصيدة فى مهرجان « ستروكا »

من خفقة النجم يحنو فى مشارفه
على حبيبين باتا فى جوى قاس
من لحن قمرية امسى يغازلها
خلف الغمائم ، همسا ، طيف نبراس

— * —

من ثم .. من بلد يشوي بواديه
شعب بغير الهوى لم يحد حاديه
للحب عاش ، ويمضي فى مسيرته
بالحب ، تشحذه عزما اغانيه
ما كان الا اخا رفت اخوته
على الشعوب ، فسلها ما ترى فيه
ولم ينم قط عن حقد يبيته
الا لمن حام ـ ظلما ـ حول ناديه
شعب على الحق والايمان شرعته
قامت ، فمن ذا وذا تزهو امانيه
وليس يصبيه غير الخير منسكبا
كالغيث تحيا البرايا من هواميه
كلا ! ولا شاقه غير السلام ، الم
ترفع على اسه امجاد ماضيه ؟!

مطالعـا بالأمانـي كـل يائسـة

ويائـس فاصابـا مـن اياديـه

كالشمس تحبو سناها الكـون اجمعـه

حتى يرى الكـون في ابهـى مجاليـه

كـذاك شعبـي له الايـام قـد ظفـرت

اكليل حمـد سيبقـي شـدو شاديـه

— * —

من ثم ... حيـث زهت بالاخـوة الـدار

الى هنـا .. حيـث روض الفـن معطـار

تهفـو الى سحـره الاخـاذ افئـدة

ما زال يحـدو بهـا شـوق واصـرار

تستلهم الحسـن فى مـاء وفى شجـر

واي حسـن ولا مـاء واشجـار ؟!

وتنشـد الفـن فى فكـر وفـى كلـم

واي فـن بـلا هذيـن يختـار ؟!

لكن اليـس سـوى الانسـان سرهمـا

حقا ؟ فمنه وفيـه السـر ... اسـرار !

الفن ومضة الهـام ، ووحـي هـوى

طاغ ، وشعلة فكـر ، دونهـا النـار !!

الفـــن تسبيـحـــة ولهـــى مقدســـــة
وكـم لهـا ، فى حنايـا النفـس ، اغـوار

الفـــن للمـــرء معــــراج تسلقـــــه
لـــولاه مـــا قـــدرت للمـــرء اقـــدار

والحســـن ؟ ما الحســـن الا النـــور مؤتلقــــا
فى النفس مهما خبت فى العيـــن انـــوار

ليـزه عالمنــــا فـــى كــــل منعطــف
حسنـا وفنـــا فتصفـــو فيه اكـــدار

ستروكا على الصقلـي

في مكتبة المناهل

ما بعد التّيه

ديوان شعر. لمؤلفه حسن محمد الطريبق 15 × 17 سم. 116 صفحة . مطبعة كريماديس ـ العرائش 1974 . تقديم علال الفاسي .

اشكر لصديقي الاستاذ الصباغ تفضله باطلاعي على ديوان الشاعر حسن الطريبق الجديد « ما بعد التيه » كما اشكر له انه اقترح علي ابداء رأي فيه .

وقد اقبلت ـ وانا المولع بقراءة ما تجود به قرائح شعرائنا ـ على الديوان اقبال المغتبط المشوق ، فما كدت أتركه من يدي حتى آتيت على آخر ما احتواه من قصائد ومقطعات تبلغ تسعا واربعين ، تتميز جلها بقصر النفس .

واستطيع القول بأن الشعور الذى ساورني بعد الانتهاء من قراءة الديوان انه ديوان « مخضرم » يمتاز بتعدد الوانه ، وتنوع آفاقه ،

واختلاف مناحيه . فكما يتنوع مضامين واغراضا ، يختلف لغة واسلوبا ، كما يتلون طرائق واشكالا ، فالشاعر ـ احيانا ـ سابح في اجواء فلسفية ، وتأملات ذاتية شخصية ، فهو لذلك ، هادىء مطمئن ، مؤثر للرمز ، بعيد الاشارة ، مقتضب العبارة :

ترك النور مشرقا ومضى يبحث عن فجره وراء سرابه
يقطع البحر وحده لا رفيق ... معه غير كالح من ضبابه
وينادي وما هناك على الشا ... طيء نور يريه بعض شعابه

وهو ، احيانا ، ناقم على الحياة ، متبرم بها ، يراها مصدر الآلام ، ومنبع الاوجاع، فهو لذلك، ثائر غضوب ، مشائم متمرد :

انا الرافض الواجف اليوم ما ... عرفت سوى الليل مؤتمنا
انا ما عرفت سوى امل ... له كالح الرزء قد كفنا
على فقده الدمع قد هتنا ... واضنى الجوى القلب والبدنا
ولم احس في الليل الا الضنا ... كؤوسا والا الأسى والونى

ويقول من قصيدة اخرى :

لله ما اتعس الدنيا! وقد رحلت ... عنها ، بلا عودة ، كل العصافير
كل المنى اصبحت اصداء اغنية ... منسية ، ليس فيها اي تأثير !
ما في مداها سوى ليل يواكبها ... ولا سوى موطن باليتم مغمور

وقد يدفعه تبرمه الى ايثار الانعزال والانطواء على النفس :

امشي وحيدا في المجا ... هل والظلام بلا دليل
اطوي القفار واعبر الـ ... ـدنيا ولا اشفي غليلي

واظــــل اقطــع فى مسيـــ ــر كــل درب او مسيـــل

وتأبى ثورته الا ان تحتدم اكثر فأكثر حين يتحدث عمن :

كانوا اذا قام للهيجاء معشـــرهم يفجرون دم الاعـــداء وديانـــا

اولئك الذين صنعوا امجادنا فى « وادي المخازن » ، ويصنعونهـا تلبية لنداء الصحراء ، متطلعين الى ان يكونوا جميعا مثال «الفدائي» .

والطريبق ، فى اكثر الاحيان ، ملتزم هادف ، بل شديد الالتزام ، لاسيما فى وطنياته التى تصطبغ كلها بصبغة دينيـة عربيـة ، واضحـة السمات ، بارزة الملامح ، وقصائده فى هذا الباب كثيرة ، تملأ حيزا كبيرا من الديوان ، كما تشهد بذلك القصائد التى اشرت الى عناوينها قبل . وقد تجده بعيدا عن كل قيد، متحالا من كل رباط لا يعنيه الا ان يسرح « مع البحر » فى ابعد الآفاق .

يا بحر انت انا ، كلنـا واحـد ، ما غاب مني فيك منطرحا اراه !

وهو ، من جهة ، شاعـر محافـظ ، لكن فى ادنـى درجـات المحافظة ، لغة واسلوبا ، مع اختلاف بين الرقـة والسهولـة ، وبيـن الجزالة والقوة ، حسبما يقتضيه الحال .

تسمعــه يقـــول :

الاقيك عبر الفضـــاء الفسيـــح شهابا وراء السحاب يسيـــح

الاقيـك فى الليـل خـاطـــرة تعيد الى الميـت كـف المسيـح

فتتمثل مع الشاعر ملكا فى حضن السماء ، تلفه ابراد السحاب ،

او قوة هائلة تضارع قوة المسيح فى احياء الموتى !

ويقـــول :

عاد الربيع فـلا دنيـا تماثلـه ورددت فرحة اللقيـا عنادلـه

والارض قد لبست من وشيهحللا   خضراء ، وانتشرت فيها خمائله

فتحيا مع الشاعر لحظة ابتسام الارض بعد طول عبوس ، على صدى اناشيد العنادل ، فى اكناف الخمائل .

وتسمعه من جهة اخرى ينشـــد :

تمضي القرون ولا تفنى مزايانا   أشعة المجـد لاحت من سرايانـا

هي القلوب تسامى من منابعها   حب، ففاضت به دفئا وتحايانا

فاذا ببوق من الماضي الغابـر يدق بعنف فى أذنك ، متقدمـا مواكب سرايانا التى انطلقت تصنع الامجاد لهذا البلد العظيم ..

وكما نرى الطريبق ثائرا على الحياة وقيودهـا ، راغبـا فى تجـاوز مقاييسها وحدودها نراه ثائرا على المألـوف من قوالب الشعـر العربـي واشكالـه ، وبذلـك يأبـى هـذه المـرة فيمـا يظهـر ! الا ان يكـون مع المجددين ، بل الملحقين فى التجديـد ، وهنا نضطر للتوقف قليـلا لنرى ـ متأملين ـ الوجه الآخر للطريبق ، ولنستشعر هذا البون الشاسع بين لغته المتأنية ، واسلوبه المشرق الديباجة ، الحلو الجرس ، القريب القصد ، من خلال شعره « المحافظ » ، وبين لغته وأسلوبه من خـلال تجربته خارج اطار الاصالة الشعريـة ، وبعيـدا عن قواعـد العمودية الاصيلة ، هذه التجربة التي يظهر انه كان لها اثر العدوى عند الشاعر ، فقد حملته ـ دون ان يفطن ـ على اثارة قلق الخليل بن احمد حتى فى بعض قصائده العمودية .

ولست هنا بصدد دراسة وافية لمحتويات الديوان ، حتى اتنـاول بالتحليل والمقارنة عمل الطريبق فى كلا الاتجاهين الشعريين من خـلال ديوانه ، غير اني استطيع ـ مع ذلك ـ ان اؤكد له انه يفتقد كثيرا من ميزاته ، كشاعر موهوب ، حين يلجأ الى هذا اللون من الشعر الحر ، الذى يتلاشى فى اطاره ـ باديء ذي بدء ـ الايقاع الموسيقي السليم ،

الذى لا غنى عنه لشعبنا العربي مهما ادعى متزعمو هذا الاتجاه توافره فيه .

ولعل السيد الطريبق نفسه يستشعر ذلك ، على الاقل بالقياس اليه ، بل يكاد ينكره ، ولذلك لا نجد له من نماذج « حرة » فى ديوانه الجديد الا اربع قصائد من اصل تسع واربعين !! ولربما كان ذلك ما حمل الرئيس الراحل الاستاذ علال الفاسي قدس الله سره على القول ، فى مقدمة الديوان ، بأن « السيد الطريبق ما يزال يدافع عن الطريقة العمودية حتى اليوم» ، وانه لا يرضى بغير الشعر العمودي بديلا » وان اعترف له بأنه « يؤمن بضرورة تعايشه مع الشعر الحر » .

ولربما كان ذلك ايضا ما حمل الاستاذ عبد الله كنون على ان يثني عليه ب « التزامه بأدبنا الخالد من غير مبالاة بالاصوات المبحوحة التى تتنادى بالتنكر لماضينا المجيد، وحرفنا العتيد، نزوعا الى الجديد والتجديد فيما تزعم » .

لا أريد أن اسأل السيد الطريبق : كيف أثبت فى ديوانه رأي الاستاذين الفاضلين فيه كشاعر محافظ يعتز بمحافظته ، ثم أثبت فى نفس الديوان ايضا ما ينم عن نزوعه الى الاتجاه المعاكس تماما ، وانما اريد ان أؤكد ــ من جهتي ــ أن قضية الشعر الحر ، مهما طال حولها الجدل ، وتقارع الفرقاء فيها الحجة بالحجة ــ هي قضية ذوق قبل كل شيء ، والاذواق لا تناقش كما يقول التعبير الفرنسي ، ولذلك فمناقشتي للسيد الطريبق فى هذا الباب تقوم على مجرد اعتبار كونه حمل نفسه حملا على ان يحشر فى زمرة « الاحرار » ، دون ان يكون ــ حسب شهادة عارفيه ومقرظيه ــ من الذين يميلون الى اتجاههم كل الميل .

على اني اهنيء الشاعر الطريبق على حسن استعداده ليحلق احيانا فى ابعد الآفاق على اجنحة من الخيال الملهم ، الشيء الذى يعده بمزيد من الاشعاع فى مستقبل الايام ، وذلك ، عندي ، احد معاني التجديد الحق ، فاذا اضيفت اليه لغة منتقاة ، وسلامة فى الحس ، ورهافة فى

الذوق ، وخصب في التجربة، وسعة فى الافق ، فقد تجمعت حينئذ اهم الاسباب ليكون الشاعر مالكا زمام القول فى اسمى درجاته ، وابعد مداه .

ولعل الاخ الطريبق بالغ هذه الغاية باذن الله ، طالما هو عازم على المضي بحزم واصرار فى طريق اخصاب تجربته الشعرية ، التى يظهر جليا انها تغنى وتختمر يوما بعد يوم ، كما يشهد لها بذلك ديوانه « ما بعد التيه » .

الرباط — **على الصقلي**

الإعلام الثقافي

كتاب للأستاذ محمد أبا حنيني

يقوم وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأديب الكبير السيد الحاج محمد أبا حنيني بمراجعة الأبحاث والدراسات والمحاضرات التي سبق نشرها فى مختلف المجلات والجرائد المغربية كـ : « رسالة المغرب » و « العلم » و « الوداد » و « السعادة » وغيرها ، وأذيع بعضها فى اذاعة المغرب ، خلال الثلاثينات والأربعينات ، وذلك بقصد اصدارها فى كتاب .

وكما هو معلوم ، فالأستاذ أبا حنيني يعتبر رائد مدرسة أدبية أصيلة تمتاز بالعراقة المغربية الأندلسية ، والرؤية الشعرية المكينة فى عالم خاص متميز يطبعه الابداع والاشراق وجزالة ديباجة .

ومن الاكيد ان المعجبين بادب الاستاذ ابا حنيني سيبتهجون بصدور هذا الكتاب الذي يضم نوعا فريدا من الادب ، كلما مر عليه الزمن زاده اشراقا وجدة . ومن المنتظر أن يصدر الكتاب عن احدى دور النشر المغربية.

الأسبوع الثقافي العربي بألمانيا

بتنسيق بين مكتب الاعلام فى الجامعة العربية والناشر الألماني السيد « أردمان » نظم أسبوع ثقافي عربي بمدينة « توبنجن » الجامعية من 9 الى 15 شتنبر المنصرم يهدف الى التعريف بالوطن العربي وقضيته العادلة ، وباهتماماته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية من خلال ندوات ومحاضرات وعروض سينمائية وموسيقية ، قدمها جامعيون ومفكرون وصحفيون لمختلف البلاد العربية الى جانب المستشرقين الألمان .

ودشن أروقة معروضات الأسبوع الثقافي الامين العام لجامعة الدول العربية السيد محمود رياض بحضور رئيس الحكومة المحلية والناشر السيد « هورست اردمان » والسفراء العرب .

وقد اختصت كل دولة بجناح يعكس تراثها الحضاري وخطواتها الانمائية بالاضافة الى جناح خاص أعده مكتب الاعلام فى الجامعة العربية يعطي أضواء عن الحضارات العربية .

وانطلاقا من حرص المغرب على أن يكون دائم الحضور فى المهرجانات الثقافية المختلفة فقد أبت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الا ان تشارك فى مهرجان « توبنجن » بعرض نماذج من التراث المغربي الأصيل .

وتميز الجناح المغربي بتنوع معروضاته ، حيث شمل نفائس من تراثنا المخطوط مثل المصحف الموحدي والعصر المريني الى جانب أنماط من ابتكارات صانعنا التقليدي ممثلة بالطرز على الجلد والنسيج والنقش والتطعيم على الخشب والنحاس الخ ...

ونال الرواق المغربي اعجاب المواطن الألماني متمثلا فى حرصه الملح

على اقتناء منتوجات الصناعة التقليدية ، ووقوفه طويلا أمام مخطوطاتنـا والاستفسارات والايضاحات عن بلادنا وابداء الرغبة فى زيارتها .

كما ان الجوق الأندلسي اضاف فى اسلوبه الأصيل فى الاداء ومظهره المتميز ابلغ الاثر واصدق الاعجاب . *

معارض موسمية بوزارة الثقافة

توالي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اقامة معارض موسمة ببهوها ، فقد نظمت معرضين أولهما : حول الخزف المغربي . والثاني حول الآلات الموسيقية المغربية . وقد سجل المعرضان نجاحا كبيرا واقبـالا حافلا ، فى انتظار ان تقيم الوزارة معارض موسمية اخرى .

مهرجان " ستروكا " الدولي للشعر

انعقد المهرجان الدولي الثالث عشر للشعر كما جرت العادة بمدينة « ستروكا » المطلة على بحيرة اوكرين الجميلة الواقعة فى اقصى جنـوب مقدونيا أحدى الجمهوريات الست لدولة الاتحاد الاشتراكي اليوغسلافي ، فيما بين 22 الى 27 من شهر غشت المنصرم ، بحضور أكبر عدد مـن الشعراء ، الذين يمثلون أوربا بجميع أقطارها دون استثناء ، كما يمثلـون القارات الأخرى تمثيلا متفاوتا ، تأتي القارة السمراء فى أدنى درجاته .

وقد مثل المغرب فى هذا المهرجان الشاعر علي الصقلي الذي عينته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية لحضوره . ويوجد ضمن هذا العدد مقال ضمنه الاستاذ الصقلي ارتساماته عن هذا المهرجان .

جولات في مغرب أمس

صدر فى الأيام الأخيرة الجزء الثاني من كتاب « جولات فى مغرب أمس» للأستاذ عبد المجيد بن جلون ، وقد صدر الجزء الاول منه منذ شهور، ويقول المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب : « تستند هذه السلسلة ... الى أربعة مـن

الكتب حتى الآن وضع اولها طبيب انجليزي هو « ارثرليرد » الذي زار المغرب سنة 1901 ، ووضعت ثانيهما كاتبة انجليزية زارته سنة 1901 ، وثالثهما من وضع كاتب امريكي عمل فى قنصلية الولايات المتحدة بطنجة خلال السنوات التي سبقت فرض الحماية على البلاد هو « جورج ادمولد هولت » ، واخيرا وضع رابعها « سكوت لوكندر » وهو كاتب انجليزي زار المغرب بعد فرض الحماية عليه ، ايام كان المارشال « ليوطي » مقيما عاما لفرنسا بالمغرب فى اعقاب الحرب العالمية الاولى » .

ويضيف المؤلف : « والاسلوب الذي عالجت به هذه الكتب ليس ترجمة ولا تلخيصا ولا تقديما ، ولا نقدا ولا تحليلا ، ولكنه مزيج من ذلك كله على نحو يتلاءم مع القارىء المغربي فى الربع الأخير من القرن العشرين » .

والحقيقة ان الاستاذ عبد المجيد اعطى فى هذا الكتاب من فكره وثقافته واطلاعه الجهد الكثير ، باسلوب مشرق اخاذ بعيد عن الترجمة والحرفية فى النقل والسرد والاقتفاء . مما اكسب الكتاب متعة وانسيابا قصصيا فى الأحداث التاريخية والاجتماعية التي مر بها المغرب آنذاك . فقد وفق المؤلف توفيقا بعيدا فى اخراج هذا الكتاب على هذا النحو المرضي الذي يستحق عليه التهنئة ، الى كونه يعد مرجعا مهما ومفيدا لبعض عهود تاريخ بلادنا .

ومن المنتظر ان يصدر فى نفس السلسلة الجزء الثالث عن « المغرب قبيل الحماية » والجزء الرابع عن « المغرب بعد الحماية » . نرجو للسلسلة كامل التوفيق ، ولمؤلفها دوام النجاح والتقدم .

قصص للأطفال لمحمد الصبّاغ

اتفقت « دار الكتاب اللبناني » ببيروت مع السيد محمد الصباغ على طبع « سلسلة قصص للأطفال بسمة » وتتضمن هذه السلسلة عشر

قصص ، ستصدر كل قصة منها مطبوعة على حدة ومزينة بكثير من الصور الطفولية ، رمن المنتظر أن تصدر هذه السلسلة فى أواخر شهر نوفمبر المقبل .

كما ستصدر فى هذا الشهر عن « دار الكتاب » بالدار البيضاء لنفس المؤلف قصة طفولة بعنوان : « عندلة » وقد سبق لهذه القصة أن نشرت مسلسلة فى جريدة العلم خلال سنة 1968 .

رسالة إلى كتّاب مجلة " المناهل "

بعث وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني برسالة الى نخبة من الكتاب المغاربة يدعوهم فيها للمساهمة بالكتابة فى مجلة « المناهل » .

وكان للرسالة الوزيرية صدى اعجاب ، لما امتازت به من رقة فى التعبير ، وبلاغة فى المعنى . وقد الح علينا بعض كتاب مجلة « المناهل » أن ننشر مقتطفات منها ، تعميما لطرافتها فى الاوساط الأدبية .

وهذه مقتطفات منها :

« . . . تعتزم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اصدار مجلة دورية بعنوان « المناهل » ، تأمل أن تكون صفحاتها مستزادا للابتكار والانتفاع ، وتود الوزارة أقوى ما تكون الودادة ، أن تتحقق المقاصد من والابداع والبحث ، والدرس والتقويم والتثقيف ، والأخذ والعطاء ، والنفع اصدارها والغايات بالتقاء الشباب والكهول ، الشعراء والكتاب والباحثين والدارسين والاساتذة والطلبة واشتراكهم بأحسن ما تجود به القرائح فى اعداد « المناهل » ، اعدادا يتيسر معه وضعها بين ايدي القراء فى شكل يخلق الترغيب والتشويق .

وان أبعد ما تطمح اليه الوزارة أن تصبح المجلة أداة تؤدي خير اداء ، الرسالة التي تدعو الى اصدارها ، ومصدرا من مصادر المعرفة يعرف أحسن ما يكون التعريف ، بابداع المبدعين من الشعراء ، وابتكار المبتكرين من الكتاب ، وعلم الفطاحل من العلماء .

والوزارة حريصة بعد هذا كله ، على أن تتوالى أعداد المجلة دائبة الحضور ، متصلة الظهور ، بين مختلف مصادر العرفان ، وموارد الثقافة، متسنمة من المستويات ما يقوم برهانا على غزارة المواهب والملكات ، ونفاسة عصارة الأفئدة والعقول .

واذا كان حرص الوزارة على أن يتداول باتصال واسترسال مجلة « المناهل » ظمأ المرفدين الى العطاء ، وظمأ الصادين الى الارتواء ، فان الأمل وطيد أن تتوافر لهذه المجلة بالاشتياق المتبادل بين الكتاب والقراء ، أسباب النباهة ، وأسباب انتشار الصيت ، واسباب البقاء .

وانطلاقا من هذه الرغائب والآمال ، ومما صح عندي لديكم من ضلاعة وكفاية واقتدار على التبصر والتنوير ، فاني أرجو أن تسهموا بحظكم المرموق فى اخراج مجلة الوزارة من حيز التفكير الى حير التحقيق ، واشباع نهم المتطلعين الى آثاركم ما تيسر لكم مد صفحاتها بوافر انتاجكم ومستطابه ... »

فترة استراحة

من بين التقاليد التي يختص بها العمل المسرحي ان كل البرامج تشتمل على (بياض) ياخذ من مدة العروض نسبة تتراوح ما بين عشر دقائق وربع الساعة ، يتمكن خلالها الممثل من العودة الى نقطة الصفر ، ويستغلها الفني لمراقبة التقنيات ، بينما يغتنم الجمهور الفترة ليريح فكره ونظره ويسبح بخياله فى ربوع ما شاهده من المسرحية .

واذا كانت الاستراحة بين فصلين تستغرق بضعة دقائق، فمن الطبيعي ان تاخذ الاستراحة بين موسمين ــ بناء على قاعدة النسبية ــ اسابيع

يرتاح طوالها رجال المسرح ويستنشقون نقاوة الصيف ليعودوا فى مطلع الموسم الجديد الى خوض المعركة الفنية بدم جديد .

الا ان أسرة الفن بالمغرب لم تعمل بهذه العادة هذه السنة ، وكان افرادها من موسيقيين ومسرحيين ورسامين ، ادركوا الفراغ الذي يخلقه فى الاقاليم توقفهم فى عطلة الصيف ، لاسيما والجماهير تتفرغ للراحة والتجول فى ربوع البلاد لتقتات من افنانها وكنوزها .

وهكذا ، وبايعاز من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شرع فنانونا فى اعداد وتحقيق برامج مسرحية وموسيقية تناسب موسم الصيف وتتلون بجوه فى اسلوبها وتركيبها .

وقد كان اقبال الجماهير واستحسانها للعروض فى المستوى المناسب، ففي عيد الشباب وتخليدا لذكرى ميلاد عاهلنا المفدى ، قدم مسرح محمد الخامس سلسلة من السهرات اشتملت برامجها على مسرحيتين ، الأولى بعنوان « النشبة » والثانية بعنوان « درهم الحلال » ، كما تضمنت عروضا للبالي ومنوعات للتسلية قدمتها فرق من الاتحاد السوفييتي ومن فرنسا

وفى شهر غشت حيث تحتفل طفولتنا بعيدها الذي يصادف عيد ميلاد سمو ولي العهد ، اعدت مجموعة « صندوق العجب » مسرحية تربوية للأطفال بعنوان « مدينة الألعاب » .

وقد صادفت المسرحية نجاحا كبيرا واستحسن الأطفال شكلها ومضمونها . ومن جهة اخرى فقد استقبل مسرحنا الوطني فرقة اجنبية مختصة في مسرح الأطفال ، حلت بالمغرب لنفس المناسبة حيث قدمت عروضا شيقة بالرباط والجديدة وخريبكة لفائدة ابناء عمال الفوسفاط .

وتلبية للرغبة التي عبر عنها المسؤولون فى مختلف الأقاليم قامت مجموعة من الموسيقيين والمطربين بمرافقة فرقة « العلج » فى جولتها عبر

المملكة ببرنامج « اضواء المدينة » الذي اقبل عليه المواطنون واعجبوا به ايما اعجاب .

واستمرت الحفلات الفنية حيث شملت كل المدن طيلة الموسم الصيفي، الشيء الذي استحسنه المواطنون وصفقوا بحرارة لهذه المبادرة التي اظهرت بكيفية واضحة ان الجمهور المغربي يلعب دوره كجمهور واع فى موسم الصيف ويرحب بالحفلات بحماس يفوق حماسه فى فصل الشتاء . وهذه الظاهرة تجعلنا نفكر فى اعادة النظر فى تحديد الفترة الزمنية للموسم المسرحي ، والتخلي عن المفهوم الغربي للموسم .

كتاب الورد في الآداب الانسانية لمصطفى القصري

يوجد الآن تحت الطبع بـ « الدار التونسية للنشر » كتاب جديد من تأليف الأستاذ مصطفى القصري بعنوان « الورد فى الآداب الانسانية » يقع فى 400 صفحة تقريبا .

وبما ان موضوع الكتاب طريف وشيق وجديد فى موضوعه ، لقد احببنا فى هذا الباب أن نعطي للقارىء عرضا موجزا عنه قبل صدوره .

ويشتمل الكتاب على أربعة اجزاء .

الجزء الأول : بحث علمي وفني وتاريخي

الجزء الثاني : الورد فى الادب الفارسي

الجزء الثالث : الورد فى الادب الغربي

الجزء الرابع : الورد فى الادب العربي

1) اما الجزء الأول فيحتوي على الفصول التالية :

بحث تاريخي يحاول استكشاف الوردة الأولى من خلال ما ذكره العلماء والمؤرخون اليونان والرومان فقد اثبت التاريخ أن الوردة بصفة مؤكدة عرفت منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

وهذا الفصل يكون بحثا تاريخيا يكاد يكون شاملا لما ذكره الأقدمون عن منابت الورد الأولى فى الارض .

ويتطرق الفصل الثاني الى ما ذكره الأدباء والشعراء الأقدمون عن الورد فى أساطير الحضارات القديمة من يونانية ورومانية وشرقية .

ويليه الفصل الثالث وهو خاص بذكر الوردة فى الادب والتاريخ اليوناني والروماني وما جاء فى وصفها عند شعراء وكتاب وأدباء كبار

وهناك فصل آخر يستعرض فيه المؤلف ما ذكره الأقدمون فى منافع الورد والعلاج به عند اليونان والرومان والعرب .

كما أن هناك فصلا شيقا أورد فيه المؤلف ما جاء عن الورد فى تعبير المنام ، خصوصا ما ذكره خليل بن شاهين الظاهري فى كتابه « الاشارات فى علم العبارات » وما أورده عبد الغني بن اسماعيل الشهير بابن النابلسي فى كتابه « تعطير الأنام فى تعبير المنام » ويختتم الجزء الأول بفصل شيق كذلك أورد فيه المؤلف ما جاء عن الورد فى قصص الف ليلة وليلة .

2) أما الجزء الثاني « الورد فى الأدب الفارسي » فهو مقسم الى دراسة عن الورد فى الأدب الفارسي ومغازيه وأبعاده وما أوحي للشعر من معاني الجمال ، والى مقطوعات لمختلف شعراء الفرس مرتبة حسب مواضيع معينة كالربيع والجمال ، والبلبل ، والوردة ، والورد فى الشعر الصوفي والأمثال والعبر والحكم .

وقد ترجم المؤلف بنفسه عن الفرنسية ــ الا النادر ــ ما جاء عن الورد فى الأدب الفارسي الى اللغة العربية .

3) وقد خصص المؤلف الجزء الثالث عن الورد فى الآداب الغربية فترجم بنفسه الى العربية أشعارا ومقطوعات وقصائد كاملة عن الأدب الفرنسي والانجليزي والاسباني والالماني .

4) ويأتي الجزء الرابع ليتوج كل ما سبق فى فصول عديدة متنوعة عن الورد فى الأدب العربي وقد استهله المؤلف ببحث استوفى الموضوع من حيث اللغة ، فأورد ما ذكره علماء اللغة العرب ، وما جاء فى أمهات الكتب عن أصل الكلمة ومفهومها .

ثم أورد المؤلف بحثا آخر عن ذكر الورد فى القرآن والحديث ، وما ذكره المفسرون وأهل السنة ، ثم يأتي بعد ذلك مقدمة للورد فى الأدب العربي ، يذكر فيها المؤلف عناية العرب بالورد ، ويحلل من خلال الأدب العربي ، مختلف الأبعاد التي تتبين من خلال الانتاج الادبي العربي منذ ذكر الوردة لأول مرة فى هذا الادب على لسان عمر بن أبي ربيعة المخزومي الى ابتداء عصر الانحطاط .

وهذا الجزء الرابع قسمه المؤلف الى ابواب عديدة أورد فيها حصيلة من الانتاج العربي فى عصوره الزاهرة (أبو نواس ، عبد الله بن المعتز ، ابن الرومي ، علي بن الجهم ، ابن زيدون ، ابن خفاجة ، ابن حمديس ، القاضي الفاضل ، وغيرهم كثير) .

وهذه الحصيلة واردة فى الكتاب حسب مواضيع عدة قد يطول سردها فهنا مثلا باب فى حسن التشبيهات وباب فى بدائع البديهيات ، وباب فى الديارات ، وباب فى مجالس اللهو والمنادمة ، وباب فى المدح ، وباب فى المعركة الأدبية التي قامت بين خصوم الوردة وانصارها والتي شنها الشاعر ابن الرومي فى بيتين طائيين ، وفى مقطوعة دالية يتهم فيها مقارن الخدود (الورد) بالعين (النرجس) بالذوق الفاسد ونورد هنا المقطوعة الصوفية السامية فى بساطتها والتي انشأها الشاعر التركي يونس أمري (من القرن الثالث عشر الميلادي) وقد ترجمها الى العربية المؤلف عن نص فرنسي

انهار الفردوس هـــذه .

تجــري مسبحة بحمد الله

والبلبل يرتــل ترنيماته المرسلة

التي يسمع فيها المؤمـــن ...

صوت اللــــه

الغصون فى الجنــة

تهمس باسم اللــــه .

والوردة لا تبخل بأريجهــا :

انهــا تنشــر اسم اللــه

الجواهري في سهرة شعرية

نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية سهرة شعرية بمسرح محمد الخامس ، القى فيها الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري قصيدتين رائعتين هما : « تحية » و « الصحراء فى فجرها الموعود » .

وقد شارك الجوق السيمفوني للمعهد بمقطوعتين افتتح بهما السهرة، أولاهما للموسيقي الايطالي « روسيني » بعنوان « أفتتاحية » ، والثانيــة « الأطلس » لمصطفى بنيس .

وكانت ترنيمات الناي تتخلل الانشاد الشعري ، كما كانت تعــرض الصور الثابتة عن الصحراء المغربية واوجه حياتها ومظاهرها الاجتماعية ، اثناء انشاد قصيدة « الصحراء » .

حضر هذا المهرجان الشعري وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الأستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني ، بالاضافة الى بعض الوزراء الآخرين، والسلك الدبلوماسي العربي ، والملحقين الثقافيين والصحفيين ، وقد غصت

قاعة محمد الخامس على سعتها بجمهور غفير من رجالات الأدب والفكر والثقافة والصحافة .

وقد سجلت هذه السهرة الانشادية نجاحا كبيرا ، وكان لها صدى بعيد فى المحافل الثقافية والأدبية ، وتلقى وزير الدولة فى الثقافة عديدا من التهاني بنجاح هذه السهرة التي افتتحت بها الوزارة نشاطها السنوي .

الملتقى الرابع للآثار والمباني التاريخية والمتاحف

تلبية للدعوة التي وجهها السيد وزير الاعلام والثقافة بالجزائر ، الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية لايفاد وفد يمثل المغرب فى الملتقى الرابع للآثار والمتاحف والمصالح التاريخية ، الذي عقد بمدينة تلمسان فيما بين 2 و 9 شتمبر ، عين السيد وزير الثقافة وفدا لتمثيل المغرب فى هذا الملتقى يتركب من السادة :

أحمد الصفريوي ، نعيمة الخطيب ، جودية حصار . وقد شارك هذا الوفد فى الملتقى المذكور الى جانب مؤتمرين من أقطار المغرب العربي الثلاثة . وكان موضوع المؤتمر ينحصر فى دراسات ما يلي :

1 ــ مشاكل ترميم المدن المغربية .
2 ــ مساهمة البحث الأثري فى معرفة التاريخ المغربي
3 ــ العملة الاسلامية .
4 ــ الدور التربوي للمتاحف .
5 ــ متطلبات الحياة العصرية والقيم التقليدية .

وخلال هذا اللقاء عقدت ندوة صحفية تحدث فيها رؤساء الوفود عن فعالية عقد مثل هذه اللقاءات والآثار المتوخاة منها للتعريف بوضعية العلوم الاركيلوجية والاثنوغرافية بالأقطار الثلاثة .

تنسيق الأنشطة الثقافية

اثناء الاجتماع الذي انعقد باحدى مصالح الوزير الأول خلال شهر يوليو 1974 ، والذي حضره ممثلون عن مختلف الوزارات التي تساهم بنصيبها فى النشاط الثقافي ، تقرر فى هذا الاجتماع ان يعهد الى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بتنسيق مختلف الأنشطة الثقافية المنصوص عليها فى المعاهدات والاتفاقيات التي تربط المغرب بالدول الشقيقة والصديقة . ونتيجة لذلك ، تالفت بمقر وزارة الدولة فى الثقافة لجنة دائمة مهمتها تنحصر فى تنسيق هذه الأنشطة مع مختلف الوزارات ، كما تقرر ان يؤسس فى كل وزارة مكتب يعنى بالشؤون الثقافية .

احداث مكتبات للأطفال

قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالتعاون مع وزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، احداث مكتبات للصغار فى المدارس التطبيقية التابعة لمدارس المعلمين التي يبلغ عددها 18 مدرسة .

وتوالت عدة اجتماعات بين ممثلي الوزارتين المذكورتين اختيرت فيها الكتب الصالحة للأطفال .

وسيقوم بالاشراف على هذه المكتبات ــ التي ستفتح أيام الجمعة ــ مجموعة من المعلمين ، والمعلمات العاملين بهذه المدارس .

وقد جلبت وزارة الدولة فى الثقافة من بعض البلدان العربية كميات من كتب الأطفال التي راتها صالحة لهذه المكتبات .

أيام ثقافية

خلال الموسم الثقافي الحالي ، تعتزم وزارة الدولة فى الثقافة ، تنظيم أيام ثقافية لصالح هذه المؤسسات :

1 — مدارس التكوين التابعة للمديرية العامة للأمن الوطني .

2 — مدارس تكوين التلاميذ الضباط للقاعدة الجوية بمراكش .

3 — مدارس تكوين تلاميذ الضباط للاكاديمية الملكية البحرية بمكناس.

4 — الثانوية العسكرية بالقنيطرة .

5 — ثانويــة آزرو .

وخلال هذه الايام الثقافية الخاصة بهذه المؤسسات ، ستلقــي محاضرات فى مختلف أوجه المعرفة ، بالاضافة الى حفلات مسرحيــة وموسيقية ، واقامة معارض لعرض القطع الأثرية ، واخرى لعــرض المطبوعات والمخطوطات ، وسيقوم بعض الاخصائيين بالقاء عروض حول محتويات هذه المعارض .

جائزة المغرب لسنة 1974

اعلنت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عن جائزة المغرب لسنة 1974 فى بلاغ هذا نصه :

تعلن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عن جائزة المغرب لسنة 1974 التي صدر بشأنها فى الجريدة الرسمية عــدد 3230 بتاريــخ

1974/9/25 ، قرار يحمل رقم 75.474 بتاريخ 17 شعبان 1394 (5 شتنبر 1974) ، وتشتمل جائزة المغرب على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول :

ا ــ جائزة المغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية وتشتمل على :

1) الفلسفة والدين والأخلاق وعلم النفس وعلوم التربية .

2) علم الآثار القديمة والتاريخ والجغرافية البشرية والجهوية .

3) علم الاجتماع والانتربولوجيا والاتنوغرافيا والفلكلور وعلم الموسيقى .

4) العلوم القانونية والعلوم السياسية والعلوم الاقتصادية والعلوم الادارية .

الصنف الثاني :

ب ــ جائزة المغرب للعلوم الرياضية وتشتمل على :

1) الرياضيات وعلم الفلك .

2) الفيزياء والكيمياء .

3) البيولوجيا والطب .

4) علم الحيوانات وعلم النباتات والعلوم الزراعية .

5) علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والهندسة المدنية

الصنف الثالث :

ج ــ جائزة المغرب للفنون والآداب وتشتمل على :

1) المســـرح والشـعــر

2) القصـــة والمقالـــة

3) النقـــــــد

4) التراجم والتحقيقات الصّحافية والرحلات

5) الفنون التشكيلية والفنون التقليدية

وقد حدد مبلغ كل جائزة من الاصناف الثلاثـــة الآنفـــة الذكـــر بـــ 13.000 درهم تمنحها لجنة مؤهلة وخاصة بكل صنف من الاصنـــاف المذكورة اعلاه ، كما حدد عدد المؤلفات التي يمكن أن يجازى عنها سنويا فى مؤلف واحد لكل صنف من الجوائز ، ولا يجوز منح هذه الجائزة لعضو من اعضاء لجنة التحكيم أو تخويلها مرة ثانية لنفس الكاتب الذي أحرز عليها الا بعد مضي 5 سنوات .

ويجب على المرشحين لهذه الجائزة أن يراعوا الشروط الآتية :

1) أن يكونوا مقيمين بالمغرب منذ سنة واحدة على الأقـــل أو أن يكونواغادروه بعد أن أقاموا فيه بالفعل مدة سنتين على الأقل بدون انقطاع.

2) أن يقدموا مؤلفات لم يسبق طبعها أو نشرت منذ اربع سنوات فى 31 دجنبر من سنة « الجائزة » على أبعد تقدير .

ويجوز للمرشح أن يقدم على الأكثر مؤلفين اثنين من صنف واحد أو ثلاث مؤلفات من أصناف مختلفة .

ويجب عليهم أن يوجهوا طلبا بترشيحهم الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بصفته رئيسا للجنة التحكيم وأن يضمنو طلبهم :

خمس نظائر مطبوعة اذا كان المؤلف قد سبق نشره أو خمسة نظائر مكتوبة بالآلة الكاتبة اذا كان المؤلف لم يسبق طبعه ، وتبقى النظائر الخمسة المطبوعة او المكتوبة بالآلة الكاتبة كسبا للوزارة المكلفة بالثقافة .

نسخة موجزة من عقد الولادة ، وشهادة تسلمها السلطة الادارية المختصة تثبت توفر شروط الاقامة المذكورة سابقا .

نسخة من سجل السوابق العدلية .

كما يمكن ان يتم تقديم اقتراح لفائدة مؤلف لم يرشح نفسه أو لفائدة ارملة مؤلف هالك او لأيتامه القاصرين . ويجب أن يكون هذا الاقتراح مضمنا فى رسالة مكتوبة ومدعما بأسباب ومشفوعا بايداع نظائر المؤلف كما سبقت الاشارة اليه ، ويؤهل أعضاء اللجنة التحكيمية وحدهم لتقديم اقتراحات من هذا القبيــل .

ويقفل باب الترشيح فى هذه السنة يوم الجمعة 29 شـــوال 1394 الموافق 15 نوفمبر 1974 فى الساعة السادسة مساء .

المناهل

فهـــرس

مطبعة فضالة



تصـدرهـــا :

وزارة الدولة المكلفـة بالشـؤون الثقافيـة

زنقة غانـدي ـ الربـاط ـ المغـرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



EL-MANAHIL

Publication du

MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93



ثمن النسخة : 2،50 د.